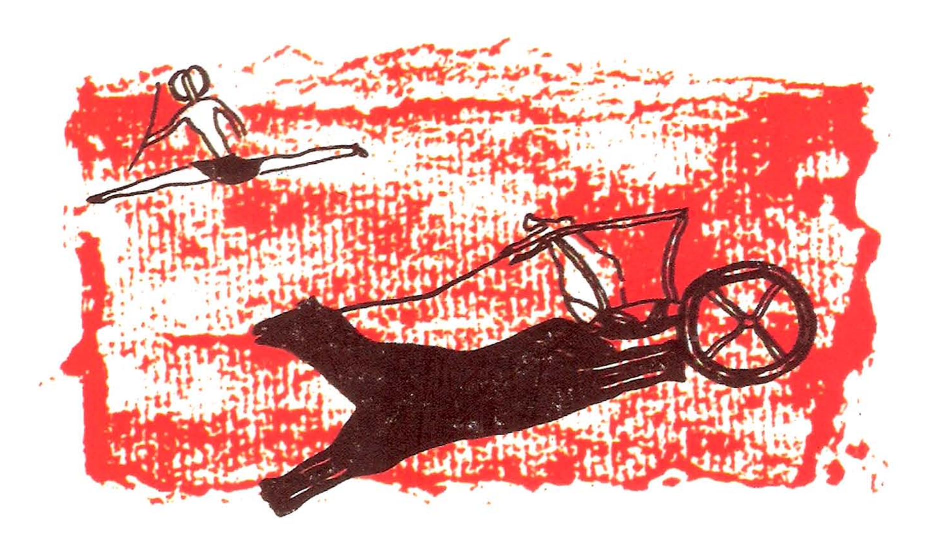
ابراهيم الكوني





رواية

الجزء الاول





الشاعر


المجوس

ابراهيم الكوني



رواية

الجزء الاول

* إبراهيم الكوني: المجوس الجزء الأول.
* الطبعة الثانية: ١٩٩٢.

* الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر   تاسيلي للنشر والاعلام

133 Makarios Avenue
Classic House Building-Office No.4
Tel: (357-5) 387463
Fax: (357-5) 387464
Limassol - Cyprus

* المركز الرئيسي:
الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف ـ
الطابق السابع ـ تلفون ٨٠٦٣٥٩
ص. ب ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

القسم الاول

١ ـ القبلي

«الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال. تـذهب دائرة دوراناً وإلى مداراتها ترجع الريح».

العهد القديم ـ سفر «الجامعة»

(١)

لن يذوق طعم الحياة مَنْ لم يتنفّس هواء الجبال.

هنا، فوق القمم العارية، يقترب من الآلهة. يتحرَّر من البدن ويصبح بمقدوره أن يمدَّ يده ويقطف البدر أو يجني النجوم.

من هذا الموقع يروق له أن يراقب الناس في حضيضهم. يتسابقون بنشاط النمل فيظن أنهم قد حققوا المعجزة. ينزل إلى أرضهم فيجد أنهم دراويش أشقياء يجدّون في البحث ولكنهم لا يجنون سوى الباطل.

كم يبدو سعيهم مضحكاً وقبيحاً من المنازل العليا!

عن سلسلة «أكاكوس» المكابرة انفصل جبلان خرافيان وتاها في الصحراء. أحدهما استلقى جنوباً إلى جوار السلسلة الأم فبدا أقصر قامة من شقيقه الضّال وإنْ جاراه في التطاول نحو السماوات ببنائين جبّارين. أمّا الجبل الشمالي، الهاجع في الطرف الآخر من السهل، فتشق قممه الحزينة، الغامضة، ذات الأبراج الأربعة، الفضاء في جلال.

غمر الغَسَقُ المتاهة الغربية بالأرجوان، تناثرت أسمال السحب العقيمة على طول الأفق. في السهل الممدود بين الجبلين لاحت قافلة، يتقدمها مشاة يجرّون هودجاً مهيباً يتمايل فوق جمل محاط بالعبيد. في أثر الهودج الفخم

تتابعت جمال محمَّلة بالمتاع، ولكن عظمة الموكب تحوّلت، من القمة المعلقة، إلى مشهد مضحك. لاحظ أن الجبل يحوّل كل الأشياء التي تبدو على الأرض منفوشة، جليلة، إلى ألعاب. المهاري تصير فئراناً. والرجال الملثمون، المهيبون، المنفوخون كالطواويس، يصبحون دمى تثير الضحك أو الرثاء. حتى شيخ القبيلة النبيل بلباسه الأزرق الذي يثير الرهبة في النفوس، رآه من قمته دمية صغيرة عاجزة أضحكته كثيراً. ولاحظ أيضاً أن عبث القمة بأحجام الناس ونشاطهم يزداد قساوة كلما بالغوا في الجدية والتحلّي بالكبرياء. وكثيراً ما يقول لنفسه وهو يصافح نبلاء القوم المتعجرفين: «انتظروا، سوف أصعد الجبل وسأرى ما إذا كنتم حقاً آلهة أم انكم مجرد فئران!». وكان السرّ يثيره ويدهشه. لماذا تتعمد القمة السماوية أن تسخر من العظماء والمكابرين وتحوّلهم إلى دراويش بؤساء؟ ولكن وحياً قال له إن القمة معصومة من الخطأ، وهي إذا أظهرت المكابرين كدمى فإن تلك هي الحقيقة. السهل هو الذي يزيّف الناس ويحوّلهم إلى وهم. وأولئك المندفعون الجارون في نشاطهم أكثر من غيرهم يبدون مضحكين، لأنهم في الواقع الأرضي، واهمون أكثر من الجميع، أودعوا أرواحهم في قبضة الشيطان.

الجادّون لقمة أسهل على إبليس.

وكما الجبل محراب الآلهة فإن السهل مملكة الأبالسة.

(٢)

نصبت معسكرها في السفح. انتشرت الإبل في الوديان الشرقية يهشّها بعض الزنوج في حين انهمك فريق آخر في وضع الأسس الأولى للمستوطنة.

سرحت «تينيري» في الخلاء لتحرر ساقها وتعوّدها على المشي من جديد. الحبس الطويل في الهوْدَج أنساها المشي وشلّها عن الحركة، تعثّرت في خطوها وهي تسلك الشُعَبَ الضيقة المنحدرة من أعالي الجبل. أدهشها العجز عن المشي فضحكت بصوت مرح مسموع. سمعت صوته كأنه يأتي من المجهول:

ـ لأول مرة أرى حسناء تضحك لنفسها.

نظرت حولها في حيرة فلم تر شيئاً. همست ببعض التعاويذ وقالت بصوت عال:

ـ هل أنت إبليس؟
ـ لا. أنا الملاك.

وقهقه عالياً.

ثم خرج من مخبئه خلف الصخرة واعتذر بلباقة.

وقفت طويلاً تتأمله دون أن تردَّ على تحيته أو تقبل الاعتذار عن تطفله. ابتسامة خفيَّة تعلو شفتيها. لم تسارع لتغطية وجهها الجميل.

الوجه يشعُّ بتعبير مدهش، ذلك التعبير الجريء الذي يعلو وجوه ناس يخفون سرّاً.

كشفت ابتسامتها عن صفين نضيدين من الأسنان. قالت بشقاوة:

ـ لا يطلع من الجبل إلاَّ شبح أو إبليس الرجيم.

ـ إبليس يسكن السهل والأشباح تسكن جبال الشمال، هناك.

أشار بإصبعه نحو «ايدينان» الشمالي. أُحْكَمَ عمامته حول فمه وأعقب الإشارة بضحكة. تمرَّدت ضفيرة كبيرة سوداء وخرجت من مخبئها تحت اللحاف. انزلقت واستلقت على صدر نافر، لم تسارع باخفائها. ظلّت تراقب، بفضول، ثم تحركت تصعد المنحدر. سيطرت على عجزها. انتصبت بقامتها ومشت بحرية، بكبرياء. عرف «اوداد» أنه يمشي بجوار امرأة من دنيا الخرافات: حورية من الفردوس، أو جنّية من الجنيّات. ارتجف وشعر بالجلال والخجل. قالت دون أن تنظر إليه:

ـ لم أظن أن ألقى إنسياً في هذا الخلاء.

ـ يوجد إنس في كل مكان، حتى تحت الأحجار وفوق رؤوس الجبال.

ـ لن أشك بعد اليوم في ذلك. هل تسكن في القمة أم في الكهوف.

ـ يومَ أفكر في الاستقرار فلن أجد لي مقاماً أنسب من القمة. الكهوف خانقة.

ضحكت. كتمت ضحكتها. قالت:

ـ كالوّدان؟

لوى قطعة الشاش الخضراء حول وجهه. بدأ يتحرَّر من الخجل. وافقها بطفولة:

ـ كالودّان.

بدأ المنحدر يستقيم في صعوده. تباطأت ثم جلست على صخرة على الحافة. سألته:

ـ هل أنت مقطوع؟

أشار إلى الغرب حيث ركعت الشمس في قرص أحمر كبير وقال:

ـ منتجع القبيلة هناك.

سكت لحظة ثم أضاف فجأة:

ـ لو تنازلتِ وقبلتِ ضيافتي في القمة لآثرتُ البقاء هناك إلى الأبد.

حَدَجَتْهُ بنظرة. لم تعلّق. ازداد التعبير الخفي على وجهها غموضاً وسحراً.

أخيراً علَّقت:

ـ أنت كالطفل. لم أقابل أطفالاً مثلك.

ـ أنْ أكون طفلاً أفضل من أنْ أكون رجلاً فخماً يسكن السهل. أهل السهول رجال ولكنهم عبيد. أيهما أحسن: عبدٌ أم طفل؟

انطلق في ضحكة.

أحكمت لحافها حول وجهها:

ـ كل الرجال أطفال. كل الناس عبيد.

احتقن الأفق بالعتمة. من الجنوب زحفت سحب سوداء. قال «اوداد»:

ـ الجوّ يبشّر بالأمطار. مجيئك فأل خير.

علّقت بلا مبالاة:

ـ لا أظنّ.

ثم ابتسمت بحزن.

عاد يسأل بعد صمت:

ـ إعذريني عن تأخر السؤال: هل جئتِنا من آير؟

ـ هل تقرأ الغيب أيضاً؟

أربكه الجواب فأنقذته بدعابة:

ـ جئتُ من آير. أبحث عن مأوى يحميني من الريح. هل تجد لي كهفاً يحميني من القِبْلي.

دقّ على قلبه بقبضته واستجاب لدعابتها بدعابة:

ـ هنا أجد لكِ مأوى أكثر أماناً من كل الكهوف. هذا القفص هو المكان الوحيد الذي لن يدخله الريح.

لم تحفل بالدعابة. راقبت الأفق الكئيب.

(٣)

أكّد الزعيم على ضرورة وضع التحصينات حول البئر بعد أن فرغ من احتساء الكوب الأخير من الشاي واختتم حديثاً طويلاً عن النبل والحرب.

أوْكَلَ لـ «أوخا» بالمهمة.

أوخا من النبلاء، يمت بقرابة للزعيم. طويل. رفيع. وموهـوب. يقْرُض الشعر ويؤلف الأغاني. فارس في ركوب المهاري. اشترك في ثلاث غزوات إلى نهر «كوكو»، فأشاد به الشيوخ وأثنوا كثيراً على مآثره. عشقته كل الصبايا وانتظرن أن يتنازل عن كبريائه يوماً ليفزن به زوجاً.

قطع الوادي وصعد المرتفع يحيط به الأصحاب المنفوشون كقطيع من الطواويس. على الروابي الجنوبية، إلى يمين المنتجع، انتشر العبيد والأتباع وتنادوا بأصوات عالية وهم يحملون المعاول والفؤوس ويتجمهرون. بعضهم انتظم في طابور طويل يقتفون أثر بعضهم كما تفعل قوافل الغزلان في الهجرات.

تغضّنت الصحراء وقطّب الأفق حاجبه اليوم الثاني. احتقنت السماء بالشحوب والعتمة وغرقت أبراج «ايدينان» الشمالي في عمامة كالغيم.

ولكن الخبراء أكّدوا أن الصحراء عندما تتلثم بالعتمة والحداد فإن أكثر السحب جوداً بالمطر سرعان ما تتخلّى عن عزمها وتسلِّم الأمر للقِبْلي. وتروي العجائز أن الخصمين الأبديين قد قاما من قديم الزمان بتقاسم الصحراء: فأصبحت الصحراء الجنوبية منطقة نفوذ القبلي. وفاز المطر بالحمادة الشمالية. ولم يخل الطرفان بالميثاق إلاّ في حالات نادرة. ما لبث أهل الخلاء أن حفروها في قلوبهم وأرّخوا بها حياتهم في الصحراء. ويُروى أيضاً أن أصوات الطبول التي قرعها المجهول في حبيبات الرمل ما هي إلاّ نداء الصحراء الرملية للمطر وحنينها الفاجع للماء والحياة. وفي بعض الأحيان يستمر هذا النغم الحزين ليالٍ متتالية. وكثيراً ما تحوّل عند الفجر إلى نحيب وعويل فيصلّي التقاة ويطلبوا من الله أن يلهم الرملة الصبر على مصيرها البائس. بعضهم يذبح القرابين كي يخلّص الصحراء الجنوبية من الميثاق الظالم الذي حرمهم الحياة وسحاب المطر.

ولكن قلب الآلهة في السماوات لا يرقّ، ولعنة العطش أبديّة. حتى في المرّات القليلة، البعيدة، التي يؤرِّخ بها الأهالي حياتهم وجادت فيها السماوات

بالمطر، فإن ذلك حدث إمّا عن خطأ ارتكبته الأقدار وإمّا بسبب نزاع عابر بين الصحراءين الرملية والجبلية وأحياناً نادرة نجم عن عدوان مبيّت ومميت من أحد الجانبين. وفي مواجهات كهذه كانت الصحاري الرملية تشبع من الماء حتى تسيل الوديان وتفيض مرتفعاتها المغمورة بالغبار. ولكن عليها أن تنتظر أعواماً قاسية إذا أسفر التلاحم عن غَلَبَةِ القبلي. وقتها يفقد صوابه ويهيمن على الصحراء لأسابيع وشهور وقد يتمادى فيغزو مرتفعات الحمادة في حملات انتقامية تشمل جبل نفوسة وتجتازه إلى سهل الجفارة وتضرب سواحل البحار في الشمال فتشتت فلول السحاب إلى سنوات طويلة.

فوق البئر فوجىء «أوخا» بقافلة كثيفة تتكأكأ فوق الجابية وتتزاحم على الماء. أحاطت بالقافلة قبيلة من رجال الزنوج ذوي الأجسام النحيلة والوجوه الممصوصة. فريق منهم انهمك في اقتناء الماء من البئر، في حين اعتنى آخرون بالإبل ووزعوا عليها الماء. وصل أتباعه وزنوجه. طوّقوا الرابية المطلّة على البئر وكوّنوا حِزاماً صامتاً من الرجال.

من قافلة الغرباء خرج شيخ وقور. طويل أيضاً وممصوص الوجنتين. تقدَّم نحو «أوخا» دون غيره. عدَّل لثامه وصمت طويلاً. تكلَّم أخيراً فقال إنه رسول الأميرة ويريد أن يقابل الزعيم.

(٤)

قالت «تامغارت» للعرّافة:

ـ أعجزني. يقول إن السهل عشُّ الشياطين، والشياطين في رأسه. تعاويذ الفقيه المرحوم أضاعها رغم أني على يقين أنه أتلفها عمداً. سمعت نصيحة الحكيمات وأردت أن أقيّده بالحبل الوحيد الذي يمكن أن يشدَّ رجلاً إلى الأرض: المرأة! زوَّجته بنت «آمّا». صبية شهية ولا ينقصها شيء إذا تغاضينا عن الخبرة. تَرَكَتْهُ يفلت قبل أن يكمل الأيام السبعة. وتحجج بالإبل

ومكث في تادرارت شهرين. هل سمعت في الصحراء كلها رجلاً يهجر مخدع العروس قبل إتمام الأسبوع ويهرب إلى الجبال؟

شدَّت لحافها الأسود حول رأسها وقرَّبت نحوها قفة السعف التي جاءت بها ثم واصلت:

ـ قلت للبلهاء إن المرأة لا تحافظ على رَجُلِهَا بالجمال والدلال وإنما بهاتين...

وضربت على فخذيها العجفاوين بيديها حتى تهلَّل وجه العرَّافة الكئيب بابتسامة خبيثة. استمرَّت «تامغارت» وهي تخرج محتويات السلّة وتطرحها أمام الزنجية العجوز:

ـ والآن أريدك أن تكتبي له حجاباً ينزله من أبراجه في الجبال ويعيده إلى الأرض والصواب.

همَّت العرَّافة بالاعتراض ولكن «تامغارت» لم تمنحها فرصة:

ـ ليس حجاباً مكتوباً. سوف يتلفه كما فعل مع حرز المرحوم الفقيه. حجاب آخر يمكن أن يشربه مع الماء أو الشاي أو الحليب. شيء يأكله مع الطعام.

راقبت العرافة ضيفتها وهي تفرش هديتها على قطعة قماش. قالت بجفاء:

ـ لقد أقلعت عن تعاطي هذه الأشياء من زمان. أنتِ تعرفين.

ولكن الضيفة لم تسمع الاعتراض:

ـ البنت عادت إلى بيت أهلها ولم يرها منذ ذلك اليوم. طلبتُ منه أن يذهب ويعتذر لأهلها ويستردَّها ولكنه ركب رأسه. رأسه أكسح من الكبش ومن الودَّان. قال إن المرأة تقيِّد أقوى الرجال بسلسلة طولها سبعون ذراعاً. يا حفيظ!

ـ ذاكرتي صَدَأت بالعجز وبصري ضعف بحجاب العميان. المدّة طالت. نسيت المهنة.

ـ إذا استمرّ وملَكَهُ الجبل فسأفقده إلى الأبد.

أزاحت قفة السعف جانباً وكشفت عن هداياها: زجاجة عطر ومرآة وبخور وأربع بيضات دجاج. «تامغارت» أول مَنْ تجاسر على تربية الدجاج في الصحراء. فعانت من احتقار القبيلة طويلاً لهذا السبب. وعندما يتهيَّأ النجع للرحيل كانت ترشو الصبيان بالبيض وبوعود أُخرى سريّة كي يتعاونوا ويقبضوا لها على الدجاجات في اليوم السابق على الهجرة، فتحبسها في سلال السعف حتى الصباح لتحملها مع الأمتعة على ظهور الجمال.

وتامغارت اللئيمة تعرف أن العرافة تحب البيض أكثر من أي شيء في الصحراء. فجاءت لها بأربع بيضات مقابل أن تقنعها في تدبير الحصن. قالت مشجِّعة:

ـ الفقيه مات. وأنا لست ثرثارة.

ـ ظلَّت تحدِّق في البيض الناصع ثم مدَّت يدها وسحبت نحوها قطعة القماش:

ـ رحم الله مَنْ مات. ولكني لم أَخَفْهُ يوماً.

رفرفت أطراف الخيمة وصفَّقت فجأة.

عصف العجاج. من زاوية الخباء مرق الدرويش.

٢ - شيخ الطريقة

«إيّاكم والأنبياء الكَذَبَة، يأتونكم بثياب الحملان وهم ذئاب خاطفة».

إنجيل متىَ

(١)

أول ما فعله الفقيه لزرع بذور الحقيقة أنْ شنَّ حملة على المنجمين والعرَّافين وشعائر المجوس.

جاء مع قافلة من مرزق عائداً إلى بلاده في «توات» وقال إنه من أتباع الطريقة القادرية هدفه هداية الناس إلى صراط الحرية. ولم يفته في تعريفه بنفسه التشديد على خلافه مع فقهاء السنّة. وقال للزعيم «آدّه» الذي استضافه في بيته: «أنا لا أشير إلى خلافي مع الفقهاء تقرّباً لكم وتزكية لنفسي. لأني أعرف ما عانته قبائل الصحراء على أيديهم من نهب ونشل باسم الدين، ولكن الخلاف في المنهج. هم جرَّدوا الدين من لغة الإيماء وترجموا التعاليم إلى لغة الحروف والشرع. أخرجوا الشيطان من معقله في النفس ودعوا البسطاء كي يطاردوه في الدنيا طمعاً في قتله فتمكّن منهم وفقدوا أنفس جوهرة وهبها الله لمخلوق وشكَّل بها جوهر كل دين؛ «الحرية». ورأى الشيخ أن هذا الخطأ هو الذي قلب الآية فغلبهم الشيطان وقاد مسعاهم في الحياة فأفسدوا وتحوّلوا جميعاً إلى نماريد وعاد الدين غريباً كما كان.

فرح به الزعيم ونَحَرَ على شرفه الذبائح وأحاط به الشيوخ والوجهاء طوال ثلاثة أيام ورفَّهت عليه صبايا القبيلة بالغناء والطرب البريء. وفي اليوم الرابع تشاور الزعيم مع وجهاء العشائر وطلب منه، نيابة عنهم، أنْ يبقى

معهم ليكشف لهم ما خفي عنهم من أمور الدين ويعلِّم أولادهم القرآن. طلب مهلة للتفكير. ثم استأذن في الذهاب إلى بلاده «توات» لإنجاز أشغال دنيوية على أن يعود بعد شهور للإقامة النهائية. شيَّعه النبلاء ووضعوا إبلاً محملة بالزاد والماء والعبيد تحت تصرفه ولكنه ما لبث أن عاد من منتصف الطريق. قال لتبرير قراره المفاجىء بالعودة أن أمور الدنيا لا تستحق شقاء الرحلة وعلى الإنسان أن يبدأ الخلاص من نفسه إذا شاء أن يقنع الآخرين بالصراط الجديد.

ولَّما كان أهل الصحراء يجهلون صراع الفرق في الإسلام فإنهم لم يفهموا ما قاله عن خلافه مع الفقهاء واستمروا بتلقيبه بـ «الفقيه». قرَّر في البداية أن يربِّي أتباعاً. فعلَّم الأولاد القرآن وحرص أن يتلقوا التعاليم نقية دون وسيط. ثم قرر أن يخطو إلى الأمام فكوَّن من مريدي الحقيقة فرقاً تساعده في تنفيذ خطة أعدَّها لمحاربة البدع الجاهلية وشعائر المجوس. علَّق في رقبة كل مريد حصناً وسلَّطهم كي يرجموا العرّافة «تيميط» بالحجارة. نصب خيمة خاصة فوق الرابية المطلَّة على البئر واتخذها مقرّاً للذِكْر وتلاوة القرآن والاجتماع بمريديه. وكثيراً ما انبعث منها ضجيج الدفوف وأصوات المغنين وهم يترنمون بالأوراد الصوفية. ومن هذه الصومعة الإلهية ابتكر الفقيه أساليب الهداية لصراط الخلاص والحرية. فبعد أنْ نجح في التخلّص من كهنوت العرَّافة وأجبرها على اعتزال الناس والمهنة والإقلاع عن قراءة الغيوب وتحرير التمائم الشيطانية، أَنْزَلَ مريديه إلى النجع لتنفيذ الخطوة التالية من الدعوة. فاجتمع قبلها بالأعيان والوجهاء في خيمة الزعيم «آدّه» وطلب منهم أن يبدأوا بأنفسهم إذا أرادوا الفوز بالفردوس. ارتبكوا وتبادلوا نظرات حائرة فقال شيخ القادرية:

ـ حان الوقت كي تتوقفوا عن غزو الدغل والنهر.

إزدادت دهشتهم فتكلَّم الزعيم:

ـ وماذا سنفعل بدون سبايا وبدون عبيد؟

ـ كل مالك مملوك. وليس من حق مملوك أن يطمع في نعيم الحرية.

ـ ولكننا لا نصطاد السبايا والعبيد فقط في غزواتنا وإنما نبشّر بالإسلام أيضاً.

ـ لن يبشّر بالإسلام مَنْ يصطاد عبيدالله كالأنعام ليحوِّلهم إلى عبيد لنفسه.

عمَّ الصمت فمضى الشيخ في هجومه إلى أبعد:

ـ هذا لن يكفي.

التفتوا إليه في استنكار فقال دون اكتراث:

ـ عليكم أن تعتقوا كل أَمَةٍ سبيّة وكل عبد منهوب.

سكتوا طويلاً ثم تكلَّم الزعيم مرة أخرى:

ـ ما فات مات. عفا الله عمّا سلف.

ـ بل كل شيء مكتوب في لوح محفوظ.

ـ ولكن أكثر هؤلاء الأعيان اتخذوا من سباياهم خليلات، وآخرون اتخذوا منهنَّ زوجات على سنَّة الله ورسوله.

ـ السبايا محرَّمات والزوجات مغتصبات بحدِّ السيف.

عمَّ وجوم طويل. ثم حاول الزعيم مرة أخرى:

ـ هل تريدنا أن نطلقهن؟

ـ خير البرّ عاجله.

ـ ولكن الطلاق أبغض الحلال عند الله.

ـ أبغض الحلال عند الله عندما تكون الشركة برضى الطرفين أصلاً.

ـ وإذا رفض العبيد حريتك وطلبوا البقاء في عصمة السيد ماذا سنفعل؟ هل نجبرهم على تركنا؟

ـ طبعاً. لا بدَّ من إجبارهم. كل الناس تفضِّل الاختباء في العبودية هرباً

من الحرية. الخلاص وِزْرٌ كبير وعلينا أن نبدأ بالعبيد إذا شئنا أن نغيّر ما بأنفسنا ونبدأ العمل المقدس.

ـ تعاليمك قاسية.

ـ لن يذوق طعم النعيم مَنْ لم يولد مرتين. كل التعاليم الربانية قاسية.

وكما توقَّع الزعيم الحكيم فإن تحرير العبيد لم يكن سهلاً. إذْ رفضوا الحرية وتجمهروا في السهل. انضمَّت إليهم الزنجيات المطلقات يجرجرن أولادهن المهجَّنين وتوجَّهوا إلى خيمة الأذْكار. تظاهروا هناك وصرخوا باللعنات ورجموا بالحجارة. تصدَّى لهم المريدون واشتبكوا بالعصي والهراوات والقبضات.

أسْفَرَ الصدام عن جرحى وقتيل واحد. ابتهج خصوم القادرية من الوجهاء، ولكن الشيخ قرر أن يواجه الموقف بأنفس تعويذتين في الحياة أثبتتا نجاحهما في كل زمان ومكان: الصبر والحيلة.

خرج في الغد عندما تجمَّعوا أمام الخيمة وخطب قائلاً:

ـ أعرف أنْ ليس هناك ما هو أصعب من الانتصار على النفس. ولكن لا تنسوا أن الجزاء لا يكون إلاَّ بقدر العطاء. ولنا مثال في الصحابة. طلبوا الموت فكتبت لهم نِعَمُ الحياة. إذا لم تولدوا اليوم فلن تولدوا غداً...

قاطعه أكثر من صوت:

ـ لا نريد أن نولد غداً. دعنا في يومنا وارحل عنّا.

ولكنه واصل صابراً:

ـ خُلقنا أحراراً...

قاطعوه بهتاف جماعي:

ـ لا نريد الحرية. إرحل عنّا. نريد أن نعيش تحت رحمة أسيادنا.

ـ سيدكم الله. والجنة تحت أقدام الحرية.

ـ لا نريد الجنة، دعنا وارحل.

ـ تقولون هـذا لأنكم لم تذوقـوا الحريـة. أمهلوني أسبوعـاً وسوف تـرون بأنفسكم كيف تُبعثون.

عـمّ الصمت لحظات. همَّ بأن يستمـر ولكن امرأة مـاردة صاحت وهي تلوِّح أمام وجهه بطفل يبكي:

ـ يتّمت أطفالنا وحرمتهم حنان الآباء.

وتبعتها أخرى:

ـ نريد أن نعود إلى أزواجنا.

سكت الشيخ فسمع نحيبـاً ولعنات. أيقن بقسـاوة ما أقـدم عليه ولكنـه قرَّر ألا يعود من منتصف الطريق. رأى العرَّافة بينهن وسمع صوتاً فاجعاً:

ـ نريد أن نعود إلى عشاقنا. لا نريد أن نذهب إلى جنتك بالسلاسل.

مسح وجهه بكلتا يديه وتمتم بيأس:

ـ أعوذ بالله. اتقوا الله. لا حول إلاَّ بالله.

كاد ييأس ويسلِّم بالهزيمة لو لم تهرع لنجدته زوجات الوجهاء.

(٢)

تـاريخ الشقـاء بين النسـاء النبيلات يعـود إلى غزوة قـام بها الـزعيم إلى الأدغال. وكثيراً ما أرِّخن لبداية نكبتهن بذلك اليوم الحـزين الذي وصَـل فيه رسوله يمتطي صهوة مهر أبلق ضامر كالغزال ليأخذ جملاً بقرب الماء ويستقبـل به المقاتلين الذين يبعدون عن النجع مسافة يوم واحد. وقد فهمن من تجارب سابقة، عندما كان الفرسان يعودون من الغزوات ضد القبـائل الأخـرى، أن الفارس الـرسول إنما جاء لينبئهن بموعد وصول الفرسان حتى يعطيهن الفرصـة لـترتيب مراسم الاستقبـال للرجـال الـظافـرين. فيسـارعن لتخضيب أيـديهن وأرجلهن بالحناء ويتغسلن ويدخّن أجسادهنَّ بالبخور والزهور البرية ويتـطيبن بعـطر «تيديت» النـادر يستعـرنـه من بعضهن فتـطوف الـزجـاجـة، المخبـأة

خصيصاً لمثل هذه المناسبات، على كل النساء المتزوجات في المنتجع. قمن بهذه الطقوس أيضاً في ذلك اليوم.

ارتدت كل امرأة أفخر اللباس. «الرفيفت» الناصعة، فوقها ثوب «الطاري» الأزرق ثم رداء «تامبركامت» الأرجواني. في الأصابع المخضّبة بالحناء لمعت الخواتم الفضية. في الآذان تدلّت الأقراط، وفي المعاصم الرفيعة استقرت الأساور. وقلائد الخرز الملوّن استقرّت، يومها، في كل جيدٍ. وحرصن على التخلّص من حلي الذهب تحسباً للسوء الذي يجلبه المعدن الشيطاني. أعددن الطبول وهيّأن ألسنتهن للزغاريد وحناجرهن لأغاني الحنين الحزين.

خرجت الجموع مبكراً وتحرّك الموكب الجليل عبر الروابي العارية ووديان الطلح، إلى الجنوب حيث تتطاول قمم «آكاكوس» نحو السماوات. وكانت دهشتهن عظيمة عندما شاهدن حصيلة الغنائم: فإلى جانب قطعان الإبل والأبقار والأغنام سار قطيع آخر من الزنوج والزنجيات في طابور طويل يهشّه عدد من الأتباع المردة كما يهشّ أتباع آخرون قطعان الماشية المنهوبة. فماتت أغاني الشوق على شفاههن.

استيقظ وحش الغيرة. إذْ ليس صعباً على امرأة، ترى حتى في ظلّ الرجل ضرّة تنافسها على امتلاكه، أن ترى ما يمكن أن تشكّله الحبشيات الفارعات، كنساء الأساطير، من خطر على رجال خَبِرْنَ فيهم ضعف النفوس، فتتراءى لهم طلحة فرعاء في ضوء البدر حورية هيفاء من حريم الفردوس.

تقاسموا الغنائم وتخاصموا طويلاً على السبايا. تدخّل الزعيم ووزّع الأنصاب بحكمته. قال: «العدل يقضي أن يكون الحكم للقرعة فهي القانون الذي لم نسمع أنه ظلم أحداً في الصحراء». اهتزّت العمامات المنفوشة بالموافقة وارتخت القبضات على مقابض السيوف فواصل الزعيم: «كل سبية

يقابلها ثلاثة رؤوس من العبيد. فهل من اعتراض؟ على بركة الله».

انتهت القسمة وبدأت متاعب النساء.

في اليوم الثالث على العودة دعا الزعيم أحد الفقهاء الجوَّالين وعَقَدَ له على سبيةٍ حبشية ماردة. رأى الرجال في ذلك افتتاحاً للمباراة فتسابقوا للدخول على أسيراتهم على سنَّة الله ورسوله وعلى مرأى ومسمع من زوجاتهم وأولادهم.

هكذا شقَّ الشقاء طريقه في نفوس النساء النبيلات السعيدات.

(٣)

وما أنْ سمعن بدعوة الفقيه لتحرير النفس والعبيد حتى كبَّرن وابتهلن لله أن ينصر هذا المهدي الذي انتظرنه طويلاً كي يأتي ليعيد الرجال إلى العقل والصراط ويحررهن من استبداد الضرّات الزنجيات.

قام عدد منهن بزيارة خيمة الأذْكارِ فقالت زوجة أحد النبلاء:

ـ كنت أتوهَّم أني حرة ونبيلة ولم أظن يوماً أن تستعبدني زنجية سبيّة!

أيّدتها رفيقتها:

ـ كنا نظن أننا سيدات فأصبحنا مستعبدات ذليلات!

هتف شيخ الطريقة مواسياً:

ـ أستغفر الله. ما نحن جميعاً إلَّا عبيد للواحد الأحد.

بكت صبية حسناء تبدو حديثة العهد بالزواج واشتكت:

ـ . . . إلَّا نحن، فعبدات للعبد.

ـ حاشا الله.

وعادت المرأة الأولى تحرِّض:

ـ هل يرضيك أن تصبح الحرَّة عبدة لعبدة؟

ـ لا سمح الله. الحرية ديني. ولكن ما أشقى أن يتحرَّر الإنسان.

ـ سنقف معك. سنضع ما نملك تحت تصرفك. إذا أمرت أطعنا. فقط هوِّن علينا وحرِّم الزواج من سبايا الأدغال. نسلنا النبيل مهدد بالزوال في الدم الزنجي يا سيدنا.

ـ سبق وقلت كلمتي جهاراً في هذا الشأن.

ـ الله ينصر دينك يا سيدنا الفقيه!

ردّد الوفد السرّي في أغنية شجيّة:

ـ الله ينصر دينك يا سيدنا الفقيه. خلَّصنا الله يخلصك من كل عدو كاره. آمين.

وشهرن أيديهن لقراءة الفاتحة.

هذا ما ترويه الأساطير عن ذلك الاجتماع الخفي. ولا أحد يعرف عمَّا إذا كان ثمة بنود سريّة أخرى في ذلك الميثاق، أم أن ما تردد في النجع مجرد مبالغة أخرى من مبالغات كثيرة اعتادها الناس من الرواة.

اليقين أن العطايا تدفقت في اليوم التالي على بيت الأذكار. فتلقى الأساور والأقراط ومصنوعات الفضة. وجاءه الأتباع والمريدون بالتموين والأغذية. متاريس من أكياس القمح والشعير والقصب والذرة والتمور. وأقبلت الصبايا يحملن قصع الكسكسي على الرؤوس. ولا يعرف أحد حتى اليوم أي تعويذه استخدمتها السيدات النبيلات حتى استطعن أن يقنعن جيش العبيد بالطاعة للفقيه والقبول بواقع التحرير. وأجمع الجميع على استبعاد أن يكون للعرَّافة دور السحر لِمَا عرف عمَّا بينها وبين الفقيه من عداوة.

أقام الشيخ معسكراً لأنصاره الجدد في العراء الممتد وراء البئر، وبعد أيام فوجىء به النجع يقرأ الفاتحة ويزفُّ أربعة عشر شاباً من مريديه ويدخلهم أزواجاً على المطلَّقات الزنجيات. واستمرّ يعقد الزيجات حتى فاز أغلب الأتباع بأشهى النساء ولم يبق إلاَّ عدد قليل من الحبشيات المتكبِّرات

تطوَّعن لخدمة بيت الأذكار وتوسّلن إليه أن يتخذهن جواري. وترددت شائعات عاصفة تقول إنهن كُنَّ له مجرد محظيات. وأيقظت هذه الشائعة الوحشية غيرة النبلاء وأزواجهن السابقين فطلبوا من الزعيم أن يسمح لهم بالاحتكام إلى السيوف. ولكن الرجل الحكيم أخجلهم بعبارة هادئة: «مَنْ قبل أن يكون طرفاً في اللعبة منذ البداية فعليه أن يتحمَّل النتائج في النهاية».

ولكن المفاجآت لم تنتهِ عند هذا الحد. فما انْ فاقتِ القبيلة (رجال القبيلة خصوصاً) حتى تلقَّى الوجهاء ضربة اعتبروها أقسى من كل الضربات.

(٤)

أدركوا منذ البداية أنه يتعمَّد ضرب كبريائهم. إذ استدعاهم إلى بيت الأذكار في موقعه الجديد وسط معسكر الأنصار، وأجلسهم على الأرض في مدخل الخيمة. لم يجرؤ أحد أن يحتجَّ. ربما لأنهم شعروا أن مجرد الاحتجاج سوف ينزلهم درجة أخرى في سلَّم الانحطاط. لأن الإهانة لا تكون إهانة موجهة لك إذا لم تلاحظها وتوجّه اهتمام الناس إليها. هذا ما يقوله قاموس النبل. سكتوا على عارهم وتحمَّل الزعيم، صابراً، الجلوس في العَرَاءِ بجوار الوَتَدِ في بيت الأذكار. بل لم يفتهم أن يلاحظوا الابتسامة التي لم تفارق شفتيه طوال الجلسة.

قال الشيخ تمادياً في التعذيب:

ـ لا تظنُّوا أني أسيء معاملتكم عن جهل بمراسم الضيافة ولكن تعمَّدت أنْ أجلسكم على الأرض في مدخل الخيمة حتى تذوقوا ذلاًّ كان بالأمس أهون ما يتلقاه منكم عبيدكم وأتباعكم.

الإشارة إلى الذل تأكيد على الذل. العار لحقهم إلى الأبد. حاول الزعيم أن ينقذ الموقف بحكمته.

ـ أنا أرى أنه لم يلحقنا أي ذل حتى الآن. والجلوس في العراء بين

أتباعنا وعبيدنا كان من شيمتنا دائماً. نحن يا فضيلة الفقيه على استعداد أن ندفع أي ثمن خليق بأن يحرِّر أرواحنا ويعلِّمنا أصول الدين.

هتف الشيخ:

ـ أحسنت. أحسنت. أنا لا أعرف لماذا لا تأخذوا العبرة وتحتذوا بسلوك الزعيم الحكيم؟ أول ما يجب أن يتجرَّد منه المؤمن بدين الحق والخلاص هو التكبّر والكبرياء. الكبر لله في السماوات والتعالي على العباد من شيم الشيطان الرجيم. لن يذوق طعم الخلاص رجل في قلبه ذرّة من كبرياء أو غرور.

سكت فتبادل الوجهاء النظرات. استمرَّ بعد زمن قصير:

ـ مع العمامات المنقوشة وثياب الطواويس سيكون لنا شأن في المستقبل القريب. أمَّا اليوم فقد استدعيتكم لأمر أهم.

جاءته جارية حبشية بقدح من الحليب. شرب جرعتين ومسح شفتيه بطرف زمالته الهزيلة. قال:

ـ طهَّرتم بيوتكم من الحرام وعليكم أن تطهِّروا أموالكم وتؤتوا الزكاة.

توتَّر الصمت بأعصاب مشدودة. جاءت جارية فلاَّتية ووزَّعت الشاي. لم يستطع أحد أن يتناول مجرد رشفة. غرسوا الكؤوس أمامهم في التراب وحدَّقوا في فقاعات الرغوة منكسي الرؤوس.

في النهاية تشجَّع الزعيم. تدخَّل:

ـ الحق أننا لم نتقاعس عن أداء الفريضة يوماً. وكنا نؤتي الزكاة في كل عيد.

تكلَّم الشيخ كأنه كان ينتظر هذا الجواب:

ـ زكاة الأعياد شيء وزكاة تطهير المال شيء آخر. بذل المال أحقر البذل لِمَنْ أراد أن يخلِّص روحه من الشيطان. ولا أعتقد أن فيكم غنياً واحداً يبخل بماله في سبيل الله.

أدخل يده في جيبه وأخرج قرطاساً وقرأ منه تفاصيل القانون المدهش الذي سنّه لإنشاء بيت المال وتنظيم الضرائب على الدّخْل والمواشي، وأتاوات جديدة قرّر أن يضعها على قوافل التجارة.

(٥)

هَالَ النبلاء مصير القبيلة وأحزنهم أن يروا القانون الجائر وهو يأخذ طريقه إلى التنفيذ فتنتقل السلطات الفعلية إلى الشيخ الداهية. ونبّهوا إلى أن في تنفيذ هذا القانون عدوان على سلطان الزعيم وسلطاته، ولكنه قال لهم في خيمة الاجتماع:

ـ لا يقف في وجه السيل إلاّ مجنون!

كان أكثرهم صبراً على البلاء فتحدّث طويلاً عن ضرورة التضحية بكل الأملاك في سبيل الخلاص والفوز بالجنّات. لم يرهبه انكسارهم ولا الهزيمة التي تنطق بها عيونهم. استنكر أحدهم:

ـ أعطيناه أولادنا ليعلّمهم القرآن وأصول الدين فصنع منهم أتباعاً له ومريدين.

وافقه ثانٍ:

ـ صنع منهم جيش الأنصار ليحاربونا.

هتف ثالث:

ـ ألّب علينا العبيد وأجبرنا على تطليق زوجات غنمناها بحدّ السيف. الدين يقول: «وما مَلَكَت أيمانُكم» فكيف يدّعي الدعوة لدين الرسول مَنْ يحرّض على أبغض حلال عند الله؟

ابتسم الزعيم فاشتكى رابع:

ـ لم يكفه هذا كله فتمادى وسرق منّا الزوجات!

ـ يا للعار!

تشجَّع المتطرفون فهتفوا:
ـ لن يقف في وجه الدَّعي إلاَّ السيف. لن يمحو هذا العار إلاَّ الدم.
تكلَّم أحد الشيوخ الوجهاء فحرَّض قائلاً:
ـ بل أغفلتم أفعالاً أكثر خزياً. أنسيتم أنه ينوي نهب أموالنا بعد كل هذا؟!

عمَّ صمت طويل. ثم اندفع شاب يتوِّج رأسه بعمامة فخمة:
ـ وأسوأ من كل هذا أنه يريد أن يجرِّد رؤوسنا من الأقنعة بدعوى محاربة التكبُّر والمكابرين. أُفضِّل الموت على أن أسير في النجع حاسر الرأس كعبيد الأدغال.

عاد الوجيه المهيب يقول:

ـ الحق أنه لم يبق ما يدل على أننا رجال!

ثم التفت نحو الزعيم:

ـ كيف تريدنا يا جناب الزعيم أن نسكت على هذا؟ نحن الآن عبيد وأسوأ من أعبد العبيد.

أجاب «آدّه» بهدوء وهو يركع فوق رموز يرسمها بإصبعه على التراب:
ـ وهل كنتم تطمعون في الفردوس بدون ثمن؟

صرخ أحد المتطرفين:
ـ لا نريد فردوساً ثمنه الهوان. الموت أشرف.

فرددت أصوات يخنقها الغضب:

ـ ضاع الشرف. الموت أشرف.

في هذه اللحظة العصيبة نهض رجل كان يجلس في الزاوية، صامتاً طوال الاجتماع. تقدَّم من الزعيم وكشف سرّاً:

ـ منذ أيام قابلت فقيهاً في مراعي «تاسيلي». هل تدرون ما قال عن دين فقيهنا؟

رمق الوجهاء بنظرة شاملة ثم همس:

ـ قال إنه يدعو لدين المجوس.

تساءل الزعيم بدهشة:

ـ دين المجوس؟!

ولكن الوجهاء عجزوا عن التعليق.

(٦)

وجد الزعيم نفسه وحيداً، معزولاً مهملاً، فاستأذن من شيخ الطريقة للهجرة لصحراء الحمادة. أمّا الشيخ نفسه فاستولى على طرق القوافل وضاعف الأتاوات على التجار وحارب القبائل الأخرى وقام بغزوات إلى الأدغال وسلب السبايا والعبيد والقطعان. ولكنه ارتكب خطأً خفياً.

قيل إنه قبل هدية من تجار إحدى القوافل القادمة من «تينبكتو». وكانت الهدية صندوقاً صغيراً مليئاً بتبر الذهب. ولا أحد يعرف حتى اليوم كيف فات الشيخ الحكيم أمر هذا المعدن الشيطاني المنحوس. وردَّد بعض اللؤماء رواية تؤكِّد أن العرَّافة هي التي دبَّرت له هذه المكيدة. ولم يكن التاجر إلاَّ وسيطها السرّي لتسليم التعويذة السحرية في يد خصمها القديم. ولم يكن الأهالي ليحيطوا الصندوق الغامض بهذه الهالة الجليلة لو لم يعامل الشيخ نفسه هديته كتعويذة، يحملها معه أينما ذهب. ويدسّها تحت الوسادة عندما يهجع للراحة أو يخلد للنوم. وكثيراً ما شاهده الأعوان والمريدون يخبِّىء الصندوق تحت عجيزته أثناء جلساته الشعائرية في بيت الأذكار. وما أُدْهَشَ الأتباع أنهم لم يعرفوا في شيخهم المهيب حبَّ الكنوز أو الاكتناز، بل إنه كثيراً ما يلعن المال وعَبَدَةَ المال ونُقِلَتْ عنه أقوال تصف المعدن الأصفر بأنه أصل بلاء العالمين. احتار المريدون في أمر الصندوق وكثيراً ما قالوا إنه يخفي سراً غير تبر النحس!

إلى أنْ جاء يوم الخروج إلى «تيمنوكالين». وهو اليوم الذي ضربت فيه القوى المجهولة المملكة الأسطورية وأزالتها مرة واحدة. وكل مَنْ بقي على قيد الحياة بعد تلك المعركة العجيبة تدروش وفقد العقل أو لزم الصمت الأبدي وأُصيب بفقدان الذاكرة.

واليوم المشهود سبقته استعدادات شاملة لغزوة وصفها الشيخ بأنها ستغيّر تاريخ الصحراء. ولكنه تكتّم على التفاصيل كعادته عندما يتخذ قراراته المصيرية.

وكثيراً ما اعتبر أعداؤه هذه السياسة (التكتّم والتعتيم) سرّ نجاحه. وحتى في تلك الغزوة، التي لم تَكْتُبْ لها القوى الخفية أنْ تتمَّ، كان المقاتلون يظنون طوال الوقت أنهم سيتحركون جنوباً، نحو الأدغال، ولكن الشيخ فاجأهم في آخر لحظة بالخطة. أُعطي الأمر للعودة على الأعقاب والتوجّه إلى الشمال الغربي. وعند الجبل الضّال، «ايدينان» المسكون، انفصل الجيش إلى قسمين، حاصرين في مسيرتها الجبل المعزول الغامض، ووضعا الأبراج السماوية المقامة على قممه بين فكي كماشة من طابور بشري لا ينتهي، مثقل بأفتك أسلحة الصحراء، يتدفّق في الخلاء نحو عدوّ مجهول.

توقّفت القافلة فوق بئر «تيمنوكالين» وأمر الشيخ بالتزوّد بالماء وإعطاء الفرصة للدواب كي تلتقط أنفاسها وتتزوَّد بالماء أيضاً استعداداً لمواصلة الرحلة الخفيّة.

في هذه اللحظة سمعوا هديراً وهبَّة عاصفة مفاجئة وبدأت المذبحة. أعداء مجهولون، لم ير وجوههم أحد، ولم يتمكّن أحد من الدفاع، أعملوا فيهم السيف وذبحوهم كالخراف. وكان الشيخ أول المقتولين. لم يستطع أحد أن ينجو بالهرب. وحتى أولئك القليلون الذين نجوا كانوا شبه أموات. إذْ يُعتقَد أن جيش المجهول مشَّط الجثث بحثاً عن الجرحى الأحياء. فكانوا حريصين أن يجهزوا على الجرحى الذين بقت في صدورهم بقية من حياة. ولم

يعرف أحد هوية هؤلاء الجند، ولا ماذا يريدون، وعمّا إذا كان الشيخ قد حشد الجيش لمحاربتهم أم أنهم أعداء آخرون. وما حيّر الشيوخ الذين بقوا في المضارب ومنعهم المرض والشيخوخة من الالتحاق بالجيش، أن الأعداء لم يتركوا أثراً. إختفوا كما جاءوا. نبتوا من فراغ وعادوا إلى الفراغ. شيء واحد أثار اهتمام الناس: اختفاء الصندوق!.

ولم يكن غريباً أن يرجعوا سبب النكبة إلى الهباء الملعون.

(٧)

عاد الزعيم «أدَّه» من منفاه في الحمادة. جمّع ما تبقّى من أتباعه القدامى ومَنْ بقي على إخلاصه من الأعوان والشيوخ واجتمع بهم أياماً. عاد إلى السهل المهاجرون والمنفيون المشتتون في الصحراء، وحكم الزعيمُ بالعُرْف الصحراوي والتقليد القديم.

٣ - الرسول

(١)

العمامة الشفّافة التي يتقنّع بها «ايدينان» الضال ازدادت قتامة ونزلت من البرج السماوي الأول إلى البرج الثالث فجرَّد القِبْليُّ الجبل من جلاله وغموضه وغطرسته وأجبره أن يتحلّى بالتواضع ويتشبّه بقرينه الجنوبي الأقصر قامة.

حامت فوق السهل سحابة من التجهم والعبوس استمرّت أيّاماً قبل أن يتمخّض الأفق عن الهباء والغبار. هبّت ريح متقطعة، مجرَّدة من الذرات، متغيرة الاتجاهات، في اليوم الأول، وظلّت حبيبات الرمل معلّقة في الأجواء العليا ولم تهبط من سماواتها المجهولة إلاّ في اليوم الثاني. قوّضت الريح الأولى الخيم في المنتجع وطيّرت الأردية والعمامات المنفوشة. غَمَرَتْ الأفواهَ والآذان والعيون وصرعت العَجَزة والأطفال وشتت قطعان المواشي.

في الصباح نفذّت مكيدة قديمة وبدأت في دفن البئر.

في المنخفض، حول الفوّهة، تحلّق عدد من الرجال. بعضهم تعلّق بسلم الليف وتدلّى داخل البئر وتداولوا قفةً لتفريغ التراب النديّ من القاع المغمور بالرمل، وتجمّع فريق آخر في الخارج يقيم التحصينات ويبني طوقاً مدوّراً حول الفوّهة يشبه قبور الأولين المستديرة. من المنخفض انطلق نحو الجبل الجنوبي طابور طويل من العبيد والأتباع يشمّرون عن السواعد

ويتعاونون في اقتناء الأحجار وتسليمها لبعضهم فتتناقلها الأيدي وتجلبها إلى تجمع المنخفض.

على الرابية وقف «أوخا» متلفعاً بثيابه الزرقاء، يمسك بيده مقبض السيف ويتابع خلية الرجال مثل شبح من الجبل المسكون. تنفخ الريح لباسه الفضفاض فتدفعه إلى أسفل ثم تعيده إلى الوراء نحو المرتفع في غزوات استفزازية، ولكن يده اليمنى لم تتخلّ عن مقبض السيف كأنه يتأهّب لأنْ يشهره في وجه الريح.

زحفت عتمات المساء ولكن الريح استمرت.

تقدّم رجل بائس يرتدي عمامة سوداء هزيلة عفّرها الغبار. وقف بجواره دون أن ينطق بكلمة. وقفا متجاورين صامتين، في عتمة العَجَاج والمساء، مثل جبل «ايدينان» وقرينه الضّال في الشمال.

مضى وقت طويل قبل أن يحسَّ الشاب المنفوش برهبة خفيّة ويعرف في الشبح البائس رسول آير.

(٢)

في الجانب الآخر من السهل، على طول العراء المجاور لـ «ايدينان» الجنوبي، تطاول عبيد الأميرة في السماء وبدأوا في تشييد البنيان أيضاً. انتشروا على السفوح منذ صباح اليوم التالي للوصول وبدأوا يصففون الأحجار بجوار المضارب. احتجبت الأميرة في الخباء وتعاون الزنوج في تثبيت أوتاد الخيمة الجلدية الكبيرة الموسومة بنقوش الزينة ورموز التعاويذ. في الليل طوّقها الريح بحزام من الرمال فجاء الأتباع في الصباح بالجمال وأفرغوها في الغرائر ثم عادوا بالجمال وعقلوها في طوق لحماية الخيمة من غزوات الغبار ورجعوا إلى الجبال لاستجلاب صخور البناء.

جثمت الجمال الصبورة تجترُّ وتصغي لصفير الريح في العتمات. هرول

الرسول بين السهل والسفح وتفقّد النشاط وسير العمل.

بعد يومين استقبل قافلة جديدة قادمة من آير. فاضت الصحراء بـأشباح الرجال.

(٣)

في الخيمة خيّم السكون وبدأت شعائر الاجتماع.

هدأ القِبْليُّ وارتفع اللهب ورائحة الشواء.

سعل الزعيم مـرتين قبـل أن يختتم مراسم الاحتفـاء ويمارس صـلاحيات الزعامة.

أَحْكَمَ القناع الأزرق حول وجهه وقال:

ـ بلغني أنكم تطلبون الإذن بالجوار والاستقرار؟

تابع الرسول مثلثات الكليم بسبابته النحيلة وأجاب بعد صمت جليل:

ـ حق.

أقبل أحد الأتباع وطاف على الحاضرين يـوزِّع الدور الأول من الشـاي. رشف الزعيم ووضع الكأس بجوار الركيزة. قال:

ـ ولكننا قوم لا نـطيق الاستقرار في مكـان ولا يطيب لنـا المقام بـأرض. اليوم في سهل «ايدينان» وغداً في الطريق إلى «تادرارت» وقد نهاجر إلى الحمادة في أقصى الدنيا إذا هبّ البحري وبشّرنا بالمواسم الممطرة. هذا قانون قديم.

سكت لحظة ثم سأل فجأة:

ـ هل تستطيعون إقرار هذا القانون؟

ـ حكم الضيف في يد المضيف، وقانونكم يسري علينا منذ اليوم.

ـ ولكن أميرتكم تورَّطت في البنيان. هذه مخالفة صريحة للقانون.

البنيان يعني استقراراً، والاستقرار يعني الاسترخاء والقيد والعبودية. هذا هو الناموس.

ـ لم نفعل ذلك إلاّ لنتّقي شرّ الريح. القبلي لعنة تطاردنا يا سيدنا الزعيم والله على ما أقول شهيد.

ـ هذا فأل يجلب السوء في عرفنا. إذا طلبت النجاة من الريح أو المطر أو الشمس بالبنيان صنعت لنفسك حبساً دون أن تدري. تهرب من شرّ صغير فتقع في شرّ أشر.

ـ لا بدّ من فعل شيء.

ـ الدين نفسه أدان العناد والمعاندين والله قال إنهم من أخوان الشياطين.

ـ وقال: «قل اعملوا. . .» أيضاً.

ـ ولكنه لم يقل اعملوا ضد رُسُلِهِ وآياته.

تابع الرجال المباراة باهتمام. في الركن جلس الإمام ولكنه لم يتدخّل. طاف عليهم الأتباع بالكبد المشوي مغروساً في أعواد طويلة محروقة بالنار.

قال الرسول بتسليم:

ـ حدّثني تجار القوافل كثيراً عن حكمتك كما أشادوا بفلسفتك في الإمساك بالعصا من الوسط.

ـ لو لم أفعل ذلك لما وجدتني أجلس أمامك الآن.

ـ نعم. بلغتنا الأخبار عن مخلوقات أرادت لكم الاستقرار وبئس المصير.

تبادل الرجال النظرات من تحت العمامات. نكس الزعيم رأسه وصمت طويلاً قبل أن يعلّق:

ـ تقصد بليتنا في شيخ الطريقة، توقّعت أن تأتي على ذكره.

ـ لم يكن في إيمائي ظل من سوء النيّة. يعلم الله، ولكن نفوذه وصل آير وآضاغ. أذلّ شعوباً وقبائل وعانت من غزواته الأدغال وبلاد السودان.

ـ مغامر إدّعى أنه من أتباع القادرية، وعَدَنا بتحرير النفس من سلطان الشيطان فمكّناه من أنفسنا وسمحنا له بأن يرينا أصول الدين فَفَسِدَ وأَفْسَدَ، انحرف واستعبد.

ـ كما يحدث في الحياة.

تابع المثلثات البيضاء فوق الكليمة التواتية بسبابته وأضاف:
ـ يبدأ أصيلاً وعادلاً وينتهي إلى الضدِّ.
عَوَّتِ الريح مرة أُخرى. عمَّت الصحراء العتمات. قال الزعيم:
ـ لماذا ينتهي كل شيء إلى الضدِّ؟ الأصالة إلى زيف والعدالة إلى فساد. سبحان الله.
لم يتدخَّل الإمام. استمرَّ الضيف:
ـ صَدَقْتَ. الخير ينحرف عن الطريق ما أن يتحوَّل إلى طريقة. الخير خير ما بَقِيَ بكراً طليقاً يَسْرَح في البريّة على هواه، فإنْ مسَّته يد بني آدم وتبنّته طريقة انقلب. كالماء والهواء. إذا حبست الماء ركد وإذا سجنت الهواء فسد.

هتف الزعيم بحماس مفاجىء:
ـ ينصر دينك. هل أنت عرَّاف؟
ولكن الرسول لم يبالِ بالسؤال:
ـ. . كنز مختوم بطلسم. الخير سرّ تغرَّب عنّا منذ تغرَّبنا عن أنفسنا.
عاد الزعيم إلى حماسه:
ـ فهمتك. السرّ في تلك الثمرة التي كانت سبباً في إخراجنا من فردوس «واو» أم أنني أخطأت التقدير؟
رمقه الضيف بنظرة غامضة في ضوء النار الخافت فعاد الزعيم يلحُّ:
ـ هل أنت عرَّاف؟
ولكن الضيف قفز إلى عهد الشيخ البائد:
ـ بلغني أنكم تحلَّيتم في المحنة بصبر الأنبياء.

أحنى الشيخ رأسه وعاد يستند بمرفقه على الوسادة بجوار الركيزة. قال:
ـ ليس في ذلك بطولة. كل ما في الأمر أني وجدت نفسي مضَطراً للانسحاب فهاجرت. إذا لم تستطع أن تواكب الموكب فالأجدر أن تحني الهامة حتى تمرَّ العاصفة.
ـ أهل الوسط في نعيم.

في الـزاوية تململ الإمام. سحب لثـامه الأبيض إلى أعـلى فلمعت عيناه بنظرة خفيّة.

(٤)

توقفتِ الريح عن العواء.

هَجَعَ النَجْعُ فخـرج الزعيم لتشييـع الرسـول. سار إلى جـواره صامتـاً، يـدحـرج الحجـارة بنعله ويـردّد التعـاويـذ. صعـدا رابيـة تشرف عـلى بنيـان الوافدين. توقّف فجأة وباغت ضيفه:

ـ بلغني أنكم ارتددتم عن الدين وضللتم الصراط.

القناع والظلمات: حجـابان تعـاونا عـلى إخفاء سرّ أراد الـزعيم أن يقرأه بـاستفزازه. انتصب بينهـما صمت ومتاهـة من العتمة. عبثت مـوجات القبـلي بالأقنعة وفضفضت الثياب. عاد الزعيم:

ـ هذا يثير قلقنا. لا أخفي عليك.

طـالت المواجهـة. أضاف الغبـار للظلمات ستـاراً آخـر. انهار الـرسـول وتقرفص فوق الرابية. انتظر الزعيم لحظات ثم جلس على رؤوس أصابعه.

قرر الضيف أن يفتح قلبه:

ـ لا أنكر أن شعوباً وقبائل ارتدّت بعـد انتشار الـدعوة واختفـاء التِّبر من الأرض. ولكن ثمَّـة قلة استـطاعت أن تثبـت عـلى الصراط وإنْ عملت لدنياها.

ـ لم يجتمع مال مع الله في قلب عبد.

ـ اختفـاء الذهب فجيعـة أرهبت ضعـاف النفـوس فـارتـدّوا. أمّـا نحن فرضينا بالقليل وهاجرنا بديننا. أَلَـمْ تقل إن الحكيم مَنْ يحني الهامة عنـد هبوب الزوبعة؟

ـ لا أنفي أن المنفى حجاب المظلومين. ولكن لا تنسَ أن التِّبر سحـر من صنع الشيطان.

ـ لا أجهل عداوتكم لهذا الهباء برغم أن الفضل يرجع له في تخليصكم من الشيخ وطريقته ولكن النَذْرَ القليل رزق دنيوي يقوّي الإيمان والدين.
ـ ما أسكر كثيره فقليله حرام. رأي الشرع في الحلال والحرام أوضح من الشمس.

اندفعت الريح في غزوة مفاجئة. نفش الثياب الفضفاضة وعبث بقناعيهما. وقفا صامتين يعاركان العاصفة. قال الزعيم:
ـ لا يسعني إلاَّ أن أرحِّب بالمهاجرين. ولكن لن أحيد عن رأيي أيضاً: لم أسمع يوماً أنهما اجتمعا في قلب مخلوق.

لم يعلِّق الرسول. استمرَّ يعاند الريح فأضاف الزعيم:
ـ . . . الله والتبر.
ضاعت الكلمات في غبار القبلي وظلمات الفلوات.

(٥)

في طريق العودة مرّ بجوار البئر. تناوب الرجال فوق رأسه واستمرّوا يقاومون موجات الرملة. تجنَّبهم وانحرف يميناً. صعد عدداً من الروابي قبل أن يبلغ السفح الجنوبي. هناك أيضاً سهر الرجال. تطاولوا في البنيان وتناوبوا على العمل. يوقدون المشاعل والنيران، تطفئها الريح فيعاودون إشعالها في عناد. تحت صخور السفح القاسية قامت جدران حجرية مسقوفة بسعف النخيل وأعواد الطلح كما اصطفت أبنية أخرى في طور الكمال.

عَبَرَ أكوام حجارة ومشاريع شوارع وجدراناً يتسلقها العبيد والأتباع كالذباب. يتراءون تحت وميض الأضواء المتلامعة، كأشباح شريرة. دفعته موجة مفاجئة فتراجع إلى الوراء حتى حاصرته إلى جدار حجري قصير القامة. غَزَتْ أنفه رائحة حادّة. ثبّت عمامته بيديه حتى عبرت موجة الغبار. ازدادت الرائحة شراسة وحدّة. شعر بالغثيان. التفت فوجد فوق رأسه زنجياً مارداً يشذِّب حجراً بالفأس ويحاول أن يسويَّه على الجدار بعناية. سدَّ أنفه بطرف

قناعه وقفز إلى الجدار المقابل. بصق اللعاب ممزوجا بالتراب ودخل إلى بيت مسقوف بالنخل والطلح. من الخارج تعلوه ألواح رقيقة من الحجارة. أمَّا من الداخل فامتدّت خيمة جلدية موسومة برموز السَحَرةِ وتعاويذ العرَّافين، لتشكِّل بطانة السقف.

قُسِّم الخباء من الداخل بستائر متعددة من البسط التواتية والأردية الجباليّة الملوّنة. من أقصى الخباء انبعث ضوء. وقف وأعلن عن وصوله بالسعال. بعد لحظات مرق شبح في العتمة. شبح امرأة عجوز يقتفي أثرها زنجي بائس يرتدي عمامة رمادية. وقف بجوار الجدار الحجري وحدَّق نحوه في العتمات ببصر خفيّ. انتظر أن يتكلَّم فلم ينبس. أشاح بوجهه نحو بصيص النور فاختفى الشبح. خرجت «تينيري» من خبائها فسأل:

ـ ماذا تفعل الجنيَّة هنا؟

ابتسمت في الظلمة قبل أن تجيب:

ـ لا يعيب الغريب أن يتسلَّى ويسامر الناس.

جلس فوق كومة من الرمل مفروشة بكليم وقال بخشونة:

ـ تعرفين أني لا أحب العرَّافين ولا العرَّافات!

ـ ولكنها عرَّافة ليست ككل العرَّافات. تعزف على «أمزاد» وتقول الشعر.

ـ لن آمنَ جانب عرافة حتى لو تمتَّعت بمواهب الآلهة.

جاءت الجارية فسألت الفتاة:

ـ هل أشعل النار؟

تجاهل السؤال وقال بلهجة أخرى:

ـ هنيئاً بالإقامة. فوز وبشارة!

أمرت الجارية أن توقد النار. دخلت إلى الخباء وعادت تتلفح بلحاف سميك. جلست في المواجهة وقالت باسمة:

ـ لا يليق أن يُحتفى ببشارة في الظلام.

انتظرت حتى اختفت الجارية الحبشية بحثاً عن الحطب فأكملت بلغة العرّافين:

ـ ذلك يجلب السوء.

أنصت لعواء العدوّ القديم وهو يندفع في الصحراء السمحاء وابتسم بكآبة. حاول أن يطرد الذكريات فقفز إلى فكرة أخرى:

ـ قلت له أن الخير، مثل الحق، ملاك يسعى في البرية على هواه فإنْ أمسَكَتْهُ يدُ بني آدم ووضعته في القمقم تحوّل إلى مارد شرير. هذا سرّ الانقلاب مع شيخ الطريقة.

شدّت اللحاف حول رأسها فلم يتبين أيّ تعبير على وجهها.

أكمل:

ـ سُرَّ بالتفسير حتى ظنَّ أنني عرَّاف!

استلقت برأسها إلى الوراء ضاحكة:

ـ لا يعرف حقيقة علاقتك بهم.

في الزاوية ارتفعت ألسنة النار والدخان. تبيَّنا بعضهما في العتمة فرأت شحوباً في وجنة برزت تحت اللثام الرمادي. أَحْكَمَ اللثام حول العينين وأضاف ببرود:

ـ ولكن لا أُخفي عليك أنه حذَّرني.

رمقته مستفهمة. قال:

ـ قال إنهما لا يجتمعان في قلب العبد: الله والمعدن النفيس!

تفحَّصها بنظرة سريعة فتحصَّنت باللحاف. بدأت الجارية الحبشية في تحضير الشاي بجوار الجدار الحجري. استمرَّ:

ـ لن يطول وصول القافلة من الشمال. يجب أن تحرِّضي الحدّادين لإعداد ما يمكن أن نبيِّض به وجوهنا. للخطوة الأولى في المعامـلات التجاريـة مفعول السحر.

ـ لن يستـطيعـوا أن يعملوا في العَـرَاء. لا يمنعهم القبـلي وإنمـا عيـون الأهالي.

ـ علينا ألَّا ننتظر رحمة القبلي أيضاً. سيشتدُّ في الأيام القادمة.

ـ ما أبشعه. لا أحد يستطيع أن يتنبأ بنواياه.

ـ ولكن علينا توقع الأسوأ في كل الأحوال.

ـ لا عاصم منه إلَّا الجبل، تقول النبوءة القديمة. وها نحن في حماه.

ـ لا أصدّق نبوءات العرّافين!

ساد الصمت. ارتفع الدخان. اندفع بموجة جديدة كأنه يشارك في الحوار. أنزل حجاباً من الغبار رأى ذرّاته العنيدة وهي تحاول أن تستر ضوء النار. اهتزَّت الأسطح ورفرفت الخيم. قال فجأة:

ـ في مثل هذه المواقف لا تنفع إلَّا المصاهرة!

راقبها تحت اللثام ولكنه عجز من مشاهدة ردَّة فعلها. حجاب الرملة أخْفَى عنه وجهها. استمرَّ:

ـ أنا لا أؤمن إلَّا بالعرف والإرث القديم. هـذا القانـون يؤكِّد أنَّ رابـطة الدم أقوى من العهد والوعد والميثاق.

صمت ثم أكمل وهو يصلِّب يديه حول صدره ويحدِّق في ظلمات الفجوة:

ـ لأنها ميثاق سماوي.

رمقته بفضول.

بعدها رأى في عينيها الوميض.

٤ ـ القريـن الضـال

الدّونيا نـ ـ تزيد يرات كرّاس
ود يسيقيم أر ايدينان غاس
وساس كود يرى آضو يغلا ياس
أذ كومبت سابده تكراس فولآس(*)

(*) يا دنيا خلقت للصبر والخداع
لا يتحمل عبئك سوى جبل «ايدينان»
وحده لا يعبأ بحصار الريح
ولا يقيم وزناً لعمامة الغبار.

(قصيدة قديمة لشاعر طارقي مجهول)

(١)

انفصـل القرينـان عن السلسلة الأم هـربـاً من الـريـح واتفقـا أن يتـولّى «ايدينان» استطلاع الصحراء. تـوجّه شمـالاً متـوّجـاً بأعـظم صَرْحٍ شهـدته الصحـراء على رأس جبـل. ولم يكد يقـطع السهل حتى اعـترضـه ملك الجنّ وقـال له: «نحن أيضـاً قرّرنـا أن نستقرّ في أرض ونبني لشتـاتنا وطنـاً. أنهكنا التسكع في الفلوات وعانينـا من اضطهـاد الإنس الرجيم. جـاء إلى الصحراء البكر الأغراب والمغامرون واللصوص. انتهكوهـا ونهبوا كنـوزنا. ولم نجـد في القارة الصحراويـة كلها سكنـاً أنسب ولا مأوى آمن من هـذا الصرح العظيم الذي يقف على رأسك. فهل تبيعنـا نفسك مقـابل أن نكفـل لك الحـماية من القبلي والرملة؟». فكّـر «ايدينـان» طويـلاً في الصفقة. ثم سـأل: «ولكن هل تـوجد قـوّة تستـطيـع أن تقف في وجـه القبـلي؟». قـال الملك: «نعم. القـوة الوحيدة هي الجن». فكّر «ايدينان» مرة أخرى ثم قال بشكٍّ: «كنت أظن أنه رسول الآلهة». قـال الملك: «ليس رسولاً وليس قَـدَراً. لا شيء يقف في وجه الجنّ». هَـرَشَ «ايدينـان» المهيب رأسه الجليـل وسـأل سـاخـراً: «مـا الـذي يضـطركم للبحث عن مأوى إذا كنتم لا تخـافون حتى القَدْر؟». ضحك الجني الحكيم حتى استلقى على قفاه ثم أجاب: «اعلمْ أنه لا يوجد لا في الأرض ولا في السماء مَنْ يستطيـع أن يدّعي أنـه معصوم من نقـطة ضعف. تستطيـع أن تضمّ إلى هذا الدستـور حتى الآلهة نفسهـا. أمّا نحن فنقـطة ضعفنا تكمن في

معشر الإنس. إنهم أشرّ من القبلي ومن الآلهة بل ومن القدر الأعظم نفسه».
تحيَّر الجبل وفكَّر طويلاً ثم سأل مرة أخرى:
ـ ما الذي فعله الإنس؟
ـ وما هو الذي لم يفعله الإنس؟
ـ . . .
ـ عندما يريد إنسيّ أن يدمغ آخر بالشر يصفه بـ «الجنّي». والأجدر أن يصفه بـ «الإنسيّ». نحن لا نظلم. نحترم العهد ونؤمن بالآلهة. أمَّا معشرهم فيظلم بعضه بعضاً، يحنث بكل عهد ولا يؤمن بأي إلـه. فلترحمنا الآلهة ولتكفنا شرّهم العظيم. عبثوا بالصحراء واستولوا على كنوزنا.
ـ هل يكفي رأسي لحماية كنوزكم؟
ـ يكفي لأنه آمن. لن يستطيع إنسي واحد أن يصل إليه. تشاورنا كثيراً قبل أن نهتدي إلى هذا المكان.
ـ إذا منحتكم صرحي السماوي فأخشى أن أخسر نفسي.
ـ أنت ستخسر نفسك إذا لم تهبنا الصرح. لا عاصم من القبلي وترابه إلاَّ من استنجد بنا. انظرْ ما فعله بـ «أكاكوس» الأم. انظر كيف عاقبت الآلهة السلسلة في وادي الآجال عندما احتكمت إلى الآلهة بشأنه فعاقبتها بأن قطعت رؤوسها جميعاً. ها هي الآن عاجزة في كل مكان في الصحراء، صلعاء، لا تستطيع أن تستدعي المطر. قطرة لم تنزل منذ أربعين عاماً.
ـ يُرْوى أن غياب المطر أربعين عاماً دليل على غياب العدالة.

ضحك الجني العظيم مرة أخرى:
ـ وهل تريد دليلاً أقوى على غياب العدالة من هذا؟ بخلت عليكم الآلهة بالمطر أربعين عاماً في حين زوّدت عدوّكم ببحار من حبّات الرمل والغبار. إذا رفضت العرض فسوف يحزنني ألاَّ أرى هذا الصرح العظيم قريباً. انظرْ ما يفعله بقرينك الآن. ها هو يبدأ في تسلقه من الخلف. ها ـ ها ـ ها. . .

تردَّد الصدى في كل جبال الصحراء. ثم بكت الجبال في القـارة العاريـة وتوسَّلت «ايديتان» أن يقبل العرض. قالت إنه من الأفضل أن ينجو ولو جبل واحد منَّت عليه الآلهة بصرح سماوي، على أن تنقرض الذرية وتختفي سـلالة الجبال من الصحراء الكبرى.

قبل «ايدينـان» وباع روحـه. جاءت قبـائل الجنِّ وسكنتـه. وضعت على صرحه المربع المهيب عمامة أبدية من الغمام وحرَّمت على غبار القبلي الاقـتراب من وطنها الجديد.

أمَّا «ايدينان» الشمال فتنكَّر لقرينه في الجنوب وتركه يقاوم العدو وحيداً.

(٢)

يرطنون كثيراً بلغة واضحة ولكن غير مفهومة. ويقـول أهل السهـل إنهم يختارون قلب الليالي الظلماء وقتاً لمحاوراتهم الطويلة، الغامضة. وفي المـواسم النادرة لهطول الأمطار تجرف السيولُ من القمة السماوية المربعة الجريدَ وجذوعَ النخيـل وأعواداً يـابسة من أشجـار التين والكـروم والرمَّـان وتـدفعهـا، عـبر السفح، نحو السهل. أمَّا المتـطفِّلون والفضوليـون الذين تسـوِّل لهم نفوسهم الصعـود إلى الجبل فسلَّطوا عليهم أسراب النحـل. ولم يكن أحد من الأهـالي ليصدِّق بوجود هذا المخلوق، الذي أشاد به القرآن، في الصحراء لو لم يحدث مراراً أن هرع إلى البيـوت أبناء السبيـل والجوالـون بعد أن تعـرَّضوا للسعـاته المميتة عند السفح.

ثم امتلك الغزلان وسكن الودَّان.

أطلق سراح أنعامه ترتع في السهول المجاورة فتسابق إليها الصيادون. ولم يعرفوا أنها أنعام مسكونة إلاَّ بعد أن مرض المعاندون منهم وأصيبوا بعـاهات. ومـا زال أهل السهـل يتناقلون القصص عن سلوك هـذه الحيوانـات البريـة. فبعد أن كانت أكثر المخلوقات حساسية تجاه الإنسان أصبحت أكـثر استئناسـاً

من الغنم والإبل. وبدأ الانقلاب عندما عثر «امناي»، الصياد الزنجي المشهور، على قطيع وديع من الغزلان ترعى ببرود في عراء السهل المجاور لسفح «ايدينان». شمَّر عن ساعديه المدرَّبين وقرّر أن يعود للنجع بوليمة. أطلق كل ما في جعبته من النبال دون أن يتمكن من إصابة غزالة واحدة.

روى الحادث لزعيم القبيلة فقال إن الغزلان ترتع في العشبيات البرية الشاحبة بهدوء دون أن تعبأ بنباله. بل إن صغارها كانت تتقافز في الهواء مع كل رمية وتثغو بصوت حاد. ثم تعود وتدسّ رأسها في نباتات البرية. ولكن الصياد القديم لم يستسلم، فقام بمحاولات أخرى فاشلة أيضاً. وفي آخر أيامه جنّ قبل أن يصيبه مرض مفاجىء لم يمهله طويلاً.

أمّا موخامد فقد كان حظّه أسوأ. نطحه ودّان بقرنيه الخرافيين وبقر بطنه.

عرف أهل السهل الحقيقة ولم تُجْدِ تعاويذ الفقهاء ولا تمائم الإمام. حرَّموا صيد أنعام الجبل واضطر الصيادون لتنظيم رحلات الصيد إلى جبال «تادرارت» أو «مسّاك صطفت» أو إلى وديان «مسّاك ملت» وأصبح الودّان المسكون يرافق قطعان الأغنام ويناطح التيوس. واستأنس الغزلان ودخلوا مع الجديان إلى المرابط والبيوت.

(٣)

... ثم جاء دور الكنوز.

لم يجد أهل الجبل صعوبة في الاحتيال على الأهالي وسلب مقتنياتهم المصنوعة من الذهب. إذْ وجدوا الطريق القديم الذي حفره المدَّعون والفقهاء المزيفون وأتباع الطرق واستولوا بواسطته على حلي النساء وأرزاق الأطفال مستغلِّين جهل أهل الصحراء بدينهم وبعدهم عن مكة. وأصبح في مكنة كل محتال يحفظ بعض الآيات والأوراد ويجد في نفسه الكفاءة في ركوب حمارة

او ناقة أن يأتيهم ليبتزّهم بدعوى تعليمهم أصول الدين وإعادتهم إلى الصراط.

ولم تكن هذه الحيلة لتخفى على الجنّ.

ألبسوا حكيمهم جبّة فضفاضة، خشنة، من النوع الذي تعوّد أتباع الطرق الصوفية أن يرتدوه في الصحراء. وأرسلوه إلى السهل ليبشّر أهل الصحراء بدين جديد. وما زال الشيوخ والعقلاء يتناقلون العبارة الحكيمة التي استهلّ بها حكيم الجنّ حديث الدعوة. قال:

- كل مالك مملوك. إعلموا ذلك. وكل مَنْ ملك ذهباً ملكناه ومسخناه وسكناه. إعلموا ذلك. الذهب والله لا يجتمعان في قلب العبد. إعلموا ذلك ابضاً.

قال إنه من أتباع الطريقة التيجانية، ثم حَمَلَ على أسلافه من القادرية واتهمهم بالتحريف ومخالفة السنَّة والرسول أمام جَمْعٍ من زعماء القبائل المتعاطفين مع الطريقة القادرية. قال أيضاً إنهم يستمدون دعاويهم من أسفار اليهود وأناجيل النصارى وليس من القرآن. وانتهى إلى أن نبوءة الخلاص تقوم على التخلّص من المعدن الأصفر وتجريد النساء من حليهن الذهبية. وسمع الناس من شفتيه أبشع الأوصاف في هذا المعدن وسمعوا أيضاً أجمل الكلام في الخلاص ولذة الزهد. وكل ما ردّده أهل الصحراء فيما بعد عن السكينة والطمأنينة ومعاداة حظوظ الدنيا إنما يرجع إلى هذا الداعية التيجاني الموهوب. ولولا هذه الموهبة الربانية لما استطاع مخلوق أن يقنع امرأة واحدة لتتخلّى طوعاً عن حليها الذهبية وتذهب لتدفنها بنفسها في حفرة بحذاء الجبل كما فعلت نساء الصحراء في ذلك اليوم. ولم تمضِ أيام على نهار الطهارة حتى اكتشف الأهالي اختفاء الداعية. بحثوا في كل مكان ولم يعثروا له على أثر على الأرض. شكَّ بعضهم في الأمر في البداية وتناقل الفضوليون روايات كثيرة تؤكد أن الزائر الغريب لم يكن سوى جنّي من سكان الجبل السماوي. وقالوا

إنهم تتبعوا أثره فوجدوا أنه يمشي بحافر حمار، وما الجبَّة الفضفاضة التي يجرجرها على الأرض إلاَّ لإخفاء حقيقة قدميه. ونُسِبَ لأحد المحظوظين الذين زاروا مكة وحجّوا لبيت الله أنه قال إن جبَّته لا علاقة لها بلباس الصوفية لأنه رأى قساوسة النصارى من أقباط مصر يرتدونها وهم يتسكَّعون في سوق باب زويلة.

وثارت مناقشات طويلة حول حكمته الدهرية: «.. كل مَنْ ملك ذهباً ملكناه ومسخناه وسكنّاه» فتوقف المتفقهون عند هذه الزلّة اللسانية وتساءلوا: «لماذا يقول ملكناه ومسخناه وسكنّاه؟ أي مخلوق يملك الحق في أن يمسخ ويملك ويسكن إنْ لم يكن شيطاناً أو جنيّاً؟»

ولكن العقلاء تمسَّكوا بالوصية ونادوا به رسولاً ومبشِّراً وأسطورة. وضعوا له ضريحاً في قلوبهم وأخلصوا لذكراه.

حُرِمَت النساء في الصحراء ارتداء المصنوعات الذهبية منذ ذلك اليوم. لأن الفرقاء أجمعوا في النهاية أن مالك الذهب مملوك. وروحه دمية في يد القوى الخفية.

(٤)

وعندما قضى الجيش الخفيُّ على مملكة شيخ الطريقة أشار إصبع الإتهام إلى الجبل. لأن نقطة ضعف شيخ الطريقة في جهله بما يعنيه أن تملك في أمتعتك صندوقاً من التبر!

٥ ـ طائر الفردوس

«اتجاه العبور غير معروف ولكن في الواحات الداخلية الجنوبية. الحالة: مهاجر. ويحتمل أنه معشش. افترض HARTERT أن هذا الطائر معشش ولم يقل أحد ذلك غيره. أكثر الملاحظين في الطبيعة سمعوا غناءً متقطعاً ولكنهم لم يجدوا أثراً لأي أعشاش له».

أوغوستوتوسكي ـ «الطيور الليبية»

(١)

مَنْ لم يَرِمْ تسلّق الجبال لم يذق طعم الحياة.

نـزل من القمم برشـاقة ودّان. توقفت الريـح واستيقظ الجلاّد الأبـدي. احتكم إلى سياط النار فتدفّق السراب في السهل. اغتسلت الصحراء بالسيول الخرافية منذ الأصيل. عند السفح قابل ودّانـاً مهيباً. يـرفع فـوق رأسه قـروناً معقوفة ويتمشّى بكبرياء التيوس.

حَدَجَهُ بنظرة خفية فـابتسم «أوداد». عرف فيـه ودّاناً من قـطعان الجبـل الضالّ فأعرض عنه وتوجّه إلى المنتجـع. عَبَرَ سلسلة الـروابي وشقّ قطيعـاً من الأغنام في طريقه إلى المرعى. غزت أنفه رائحة التيوس والغبار. عطس وسـدّ أنفه بلثامه الهزيل.

أطلّ على المنخفض فرأى الرجـال ينشغلون في تحصين البئـر. وقف كأنـه يكتشف السهل القديم لأول مرة. استدار برأسه يساراً فرأى أبنية شيطانية من الحجر. اصطفت في طوابير طويلة ورُفِعت على قممهـا صوامـع. هرول أبنـاء المهاجرين في الشوارع. لا يحسن هذا النسق إلاّ الجان. لا يتقن هذا البناء إلاّ إبليس.

السهل يحكمه إبليس.

استـولت عليه كـآبة طـارئة ففـرَّ إلى بيت أمّه. وجـدها تتقـرفص في ظل

الخيمة وترتق ثوبها القديم. ركع تحت قدميها ولكنها لم ترد التحية. جلس لحظات ثم دخل إلى زاويته في الخباء. بدّل ملابسه فسمعها تتقدّم بمشروع مصالحة:

- لم تر الصحراء القبلي في بداية الربيع.

إذا عجز أهل الصحراء عن إيجاد المدخل المناسب للحديث استنجدوا بالطقس. لم يجبها فسمعها تزحف نحو الزاوية الأخرى. أوقدت النار وبدأت تحضّر الطعام. خرج من الزاوية واستلقى بجوار الوتد. أسدل لثامه على عينيه ولكنه لم يحجب عنه قمة «ايدينان» العمودية. ما زالت تتعمم بلثامها الأبدي. عالية، متكبرة. خفية حزينة. متنكرة للقرين الجنوبي المسكين. الزعيم آدّه يقول إن هذا مصير كل مَنْ رهن نفسه وباع روحه بمقابل. القمة الجنوبية تبدو أسعد حالاً برغم قساوة القبلي وزحف الرملة. ما أشقى «ايدينان»!

(٢)

وضعت أمامه طبق الطعام فجاء الدرويش. رمقه بعينه الحولاء ومسح لعاباً لّمّاعاً تدلّى من شفتيه وقال غاضباً:

- كم مرة تعدني بأن تأخذني إلى الجبل ولا تفعل؟

ضحك «أوداد» ثم اقترح:

- دعِ الحساب الآن حتى نتناول الغداء. هل تشاركني؟

- لا أريد طعامك. أريد أن تجيب على سؤالي.

فكّر «أوداد» لحظات ثم قرّر أن يعلّق السبب في رقبة القبلي:

- القبلي. القبلي هو السبب. أهل السهل لا يستطيعون أن يواجهوا الريح حتى في السهل فكيف يستطيعون أن يقاوموها على رؤوس الجبال؟

سكت الدرويش ففرح «أوداد» بالجواب. عاد يقترح:

ـ ستشاركني الآن الطعام ثم نتفاهم حول الجبل فيما بعد.

تقرفص الدرويش على الأرض ولكنه قال بجفاء:

ـ لن أشاركك الطعام.

ـ هل أنت شبعان؟

ـ لا. أنا جوعان ولكن لا أريد أن أبقى في السهل.

ـ لا أفهم.

سكت لحظة ثم قال:

ـ إذا وعدتني وعداً أخيراً في أن تأخذني إلى الجبل فسأبوح لك بسر.

ضحك «أوداد» مرة أخرى. مدَّ يده إلى الملعقة فقال الدرويش:

ـ إذا وعدتني آخر وعد أخبرتك بأمر يهمك.

ـ هكذا قال الطائر الثرثار لضرَّة تانس عندما همَّت المسكينة بأن تأكل لحم ابنتها.

ضحك الدرويش لأول مرة. هتف:

ـ صحيت. صحيت. هو كذلك. أنت أيضاً ستفعل ذلك بعد قليل.

تضاحكا معاً ولكن «أوداد» غافل الدرويش وتناول لقمة. بدأ يمضغها فاقترب منه الدرويش وهمس في أُذنه. قفز «أوداد» إلى الوراء ودسّ رأسه في الزاوية.

انحنى طويلاً وهو يتقيأ.

(٣)

علَّمه الغناء وصعود الجبال. علّمه الحياة. ولكن لم يره. سمعه أول مرّة عندما كان يرعى الجديان في وديان «متخندوش» وهو صبي. انتصف النهار فجلده جلّاد الصحراء الأبدي بسياط النار. استظلَّ بشجرة طلح عالية ترتدي فروة كثيفة خضراء فأحاطت به الجديان. هبَّ القبلي وحرقه بنيران

الفلوات الجنوبية. شرب من الزمزمية ورش وجهه ببضع قطرات، ولكن القبلي اشتدَّ فزحف وبحث عن المأوى في الكهوف. طارد الجديان في الوادي وصعد مرتفعات وحشية سوداء قبل أن يبلغ أرض الكهوف والخرافات. دخل أول كهف فوجده مفتوحاً من جانبين. وبرغم أن الفوّهة الجنوبية تواجه الريح إلاَّ أن الكهف كان يحوِّل صهد القبلي إلى موجات باردة. الكهوف دائماً باردة. استلقى في جوفه الرملي البارد وراقب الجديان الشقيّة وهي تعبر من المدخل الشمالي لتجتاز الكهف، المعتم، الممتد كالنفق، إلى الناحية الأخرى. في الجدران المواجهة حفر الأوّلون رسومهم الملونة. زرافات وغزلان. وحيد القرن وودّان. صيادون مقنعون وآلهة سافرة. في أعلى الرسوم، في سقف الكهف الحجري سطَّر الأجداد بالتيفيناغ رموزاً ونبوءات. تعاويذ سحرية وإرشادات للباحثين عن آبار المياه. في الطفولة فطمته أُمه وأخذته من يده لتريه الصحراء والكهوف. طافت به الجدران المرسومة وقالت له إن هذا هو الأصل والتاريخ. حدَّثته طويلاً عن الحيوانات المنقرضة ومعاني الرموز والكلمات. قصَّت عليه أُسطورة عن كل حيوان وكل إنسان سجّله الأجداد على جدران الكهوف. ثم أخذته من يده وعادت به إلى البيت لتعلمه كيف يتهجَّى الأبجدية ويقرأ التيفيناغ.

منذ ذلك الوقت أصبح يهرع إلى الصخور كلما مرّ في طريقه بواد جديد ليبحث في الأحجار عن السرّ والبهجة والأثر. يمسح وجوه الألواح الصخرية من الأتربة حتى يصل إلى الرسوم ويكتشف الكنز. وكان يعود ويقصّ عليها مشاهداته في ألواح الأولين فتشجِّعه وتبارك خطاه وتقول: «لا خوف عليك ما دمت تبحث عن أصلك». لم يفهم. لم يكن مهماً أن يفهم. وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يفهم أن لذلك علاقة بحنينه الأبدي إلى الماضي وذلك العطش الخفي إلى المجهول.

سَطَعَ السراب وبدأت الأرض تغلي. همد النهار. سكنت الصحراء واستسلمت لطغيان الجلاَّد.

في تلك القيلولة العميقة، في ذلك السكون الخفي سمع النغم. ظنّه في البداية صوت القبلي الخبيث وهو يتسلل بين شقوق الجبال أو تجاويف الكهوف. ولكن الغناء الشجيّ يزداد وضوحاً كلما هدأتِ الريح وتوغّل النهار في القيلولة والسكون.

غناء مجهول. حزين، يزيد من غموض الصحراء وجلال الجبال. يوقظ في الصدر وحشة خفية ويثير شهيّة وحشية. ينطق بالمجهول ويوحي بسرّ الموت والحياة. يبتعد تارة حتى يغيب ثم يعود ليرتفع مرة أخرى حتى يتخيل أن طائر الفردوس يقف فوق رأسه. وأكثر ما أثار دهشته هو قدرته على الانتقال من لحن إلى آخر. وكل لحن يبدو أشجى وأشهى من سابقه. دار رأسه بالشجن والوجد فزحف وبحث عن خارج الكهف. حرقته الرمضاء في قدميه فرجع ولعق رجليه. انتظر حتى العشية فخرج وبحث من جديد. ولكن الطائر توقف عن الغناء واختفى.

(٤)

هاجروا إلى «تادرارت» بحثاً عن السيول والكلأ. هناك سمعه من جديد بعد انقطاع دام شهوراً. أدهشه تنوع الألحان وازدواج العزف وتعدد الأوتار والآلات كأنه عشرة طيور وليس طائراً وحيداً. ردّد خلفه الأغاني وتسلّق وراءه الصوامع الحجرية. رأته أُمّه مرة يصعد خلفه لوحاً حجرياً عمودياً من صروح «تادرارت» فشهقت والتفتت نحو قرص النار وقرأت تعاويذاً بلغة الجنّ و«الهوسا» لتحميه من السقوط. جاءها ضاحكاً فرفضت أن تكلّمه. مشى وراءها طويلاً في طريق العودة إلى البيت. ثم قرّر أن يرضيها بالغناء. رفع صوته مقلّداً طائر الفردس المجهول فتردّد الصدى السحري في القمم السماوية والتقطته أفواه الكهوف وأعادته إلى الوادي بعمق أسطوري. رقصت الحوريات في الفراديس وناحت الجنيات في صوامع الجبال، ووجد بعد أن توقف أن أمّه تبكي أيضاً.

سألته في ظلمات الخباء عندما هجعت للنوم: «مَنْ عَلَّمك الغناء؟ مَنْ أعطاك صوت السماوات؟». ابتسم في الظلمة وتظاهر بأنه نائم.

(٥)

السرّ ليس في تعدد الآلات والأصوات والألحان في أغانيه وإنما في فجيعة خفيّة ترفعه في السماوات وتعيده إلى الماضي والأساطير. تتبدّد الوحشة ويتكشَّف السر الأعظم الذي يحسّه دائماً ولم يدركه يوماً. سر الحياة والصحراء والأموات. غناء أصبح معه صفير الريح في تجاويف الصخور عواء وتحوّلت أهازيج النساء الشجية في الأمسيات والمناسبات ـ مقارنة به ـ عويلاً. فصمم أن يطارد صوت الجنيّات ويكتشف الطائر.

المطاردة علَّمته صعود الألواح الملساء، والمحاكاة هذَّبت صوته فملك الغناء.

ولكنه لم ير الطائر أبداً.

قال لأمّه في إحدى الأمسيات:

ـ الطائر الخفيّ يقول ما أحسّ به ولكن أين أجده؟

ابتسمت وهي تتمايل وتمخض الحليب فعاد يسأل:

ـ أي طائر يمكن أن يقول ما يحسّه الناس؟

أجابت ببرود دون أن تفارقها الابتسامة الغامضة:

ـ في الصحراء لا يوجد شيء، ويوجد كل شيء.

ـ هل تقول الخرافات شيئاً عن طائر كهذا؟

ـ . . .

ـ حدثيني عن الطيور. أي طير يملك صوتاً كالطائر الخفي؟

ـ العندليب.

ـ وهل العندليب طائر خفي؟

ـ يمكنك أن تراه بين الأحراش في الربيع.
ـ حدثيني عن الطيور الأخرى. الطيور الخفيّة.

ابتسمت مرة أخرى ولكنها لم تتحدث عن الطيور.

في ليالي الظلمات، عندما يختفي العالم من الصحراء ويعمّها سكون الغموض والموت تقول:

ـ لماذا لا تسمعني صوتك؟ أريد أن تسمعني الغناء الذي أعاره لك طائرك الخفيّ.

فيغنّي. يقتحم على الجنيّات خلوتهن في الكهوف. يراقص الحوريات في الفردوس. ينير ظلمات الليل. يبعث الحياة في نقوش الأولين على الحجر ويعيد الصحراء من رحلتها في العدم.

(٦)

... وكان أن سمعته ابنة العم يغني في إحدى الفلوات فبكت ومرضت بالحمّى. لزمت البيت أياماً ولم تبح لأمها بالسرّ إلاّ بعد مرور أسابيع. لم تنفع المراهم ولم تُجْدِ التعاويذ. دعت الأم صبايا الرُحَّل وقرّرت أن تنظِّم حفل «الميعاد». انتصف الشهر واستدار البدر. تطيَّبتِ الفتيات بالبخور والعطور التي جلبها تجار القوافل من «كانو» وتخضَّبت أيدي الصبايا وأقدامهن بالحنّاء. خرجن في ضوء القمر باللباس المنقوش وجلسن في عراء السهل الرحيب.

عزفت الشاعرة على وتر «أمزاد» وقرعت الزنجيات على طبل «تيندي». ارتفعت الحناجر بالأهازيج الجماعية فجاء الفتيان والشبان. ولكن الصحراء الحزينة لم تشفِ غليل إبنة العم المريضة. تمايلت بين الراقصات باكية ثم استولت عليها نوبة جنونية. جاء «أوداد» فتوقَّف السمر. طلب من الشاعرة أن تصاحبه بـ «أمزاد» وحده ورفع صوته بأغاني طائر المجهول. انقطعت كل الأنفاس. أنفاس الصحراء وأنفاس الناس. إزداد السكون كثافة وتضاعف تدفق الضوء من القمر. تأجّج الحنين وطار العشّاق ليعيشوا في الأسطورة.

انسلَّ المرض من بدن المريضة وشعرت بأنها ملاك سماوي.

قالت لأمها: «يُحرَّم عليَّ أن أتزوج بغير أوداد الجني».

(٧)

التحقوا بالمنتجع الكبير في السهل وسافر نهائياً ليعيش مع الإبل في «تادرارت».

كانت ابنة العم تسعى للفوز به وكان يسعى كي يفوز برؤية طائر الفردوس والمجهول.

اعترضت الأم:
- وابنة عمِّك، لَمَنْ تتركها؟
- لم أعد أحتمل. الهواء في السهل خانق.
- رأسها كاسح مثلك. مصممة ألَّا تدخل على رجل غيرك. لَمَنْ تتركها؟
- السهل مليء بالرجال. أريد أن أرى الطائر.
- رأسها كاسح.
- لا أُفكِّر في بناء بيت.
- ستفعل ذلك إنْ لم يكن اليوم فغداً. لا تؤجِّل العمل إلى الغد.

في قمم «تادرارت» لاحقته بالرُسُل. كل راعٍ يصل وديان الطلح يحمل له منها وصيّة. ثم لجأت إلى الحيلة فأوحت للرعاة أن يتولّوا إقناعه. قالوا له إنها من أجمل العرائس. طويلة. نحيلة، بيضاء البشرة. وجه مدوَّر بعينين كبيرتين. تجيد الغناء وتقول الأشعار. ملاك يحلم به فرسان النبلاء في آهجار وآير. وإذا تأخر فربما جاءوا من هناك وخطفوها من بين يديه. وإذا تركها تفلت فإن نصيب ابن الأتباع سيكون قردة من القبيلة أو زنجية من الأدغال. وقد قام أحد هؤلاء الرعاة الموهوبين بتأليف قصيدة مديح في محاسن الفتاة أثارت «أوداد» وأيقظت في قلبه الحنين إلى الحوريات الأنسيات وآلهات السهل.

طارد الطائر في القمم أياماً أُخرْ ثم نزل إلى السهل ووضع رأسه عند قدمي الحورية العاشقة.

(٨)

فرح بفرحه الشبان وأقاموا له عرساً ينازع أعراس النبلاء. في الاستعراض رقص أمهر المهاري واشترك أكثر الفتيان فروسية.

ولكنه في ليلة الدَخْلة عجز عن الغناء وفقد صوته.

اكتشف ذلك بالصدفة. جاء «أوخا» إلى حلقة الطرب وطلب منه أن يسمعه أُغنية. قال:

- لم يسعدني حظي فأهنأ بسماع صوت الجنيّات.

لم ينتظر جوابه. أرسل الدرويش لإسكات حناجر النساء. تهيَّأت الفرصة فطلب «أوداد» الشاعرة كي تصاحبه بـ «أمزاد». وعندما فتح فمه لينطق بالمحاكاة أصابه بُكم. تدفَّق العرق وبلل اللثام. احمرت الوجنتان واستأذن للانصراف. لحقه الدرويش فطلب منه أن يخبر الجَمْعَ بتعرضه لنزلة برد وتوسَّل أن يقبلوا اعتذاره.

في الليل جلس فوق عرش الرمل بجوار الركيزة مهموماً. وحتى عندما انتصف الليل ووضعوا يد حوريته العاشقة في يده لم يفق من عاره.

من أين له أن يعرف أن طائر الفردوس يتخلَّى عن عاشق رهن قلبه في يد معشوق آخر؟

(٩)

لم يحتمل أكثر من ثلاثة أيام. تسلل من الخباء في الظلمات وهرب.

عاد إلى «تادرارت» وأقام فوق القمم طَلَباً للصوت الضائع. طاردته الأم بالرعاة فتوغَّل في الصحراء الجبلية وتطاول في صخور «متخندوش» المعلَّقة.

ولم يفز بالغفران إلاَّ بعد مرور ثلاثة أسابيع.

أمّا سلوك الحورية في السهل فأثار دهشة الناس. السيرة أثارت سخرية الحسودات وهزأ بها أنصار شيخ الطريقة. شاب مغرور ووقح من الأنصار بعث لها بنصيحة مع رسول قائلاً إنه سوف يتزوجها إذا ذهبت إلى الإمام وأخذت الطلاق.

ولكن الحورية صبرت ولم تأبه للتحرّشات. قالت للصبايا في الأمسية القمرية التالية إنها فازت بما تريد. أخذت من الجنيّ وريثاً سيرث صوته ولون بشرته الأخضر. ضحكت طويلاً وسط دهشة الفتيات ثم أضافت بنفس المرح:

- ويلٌ لامرأة لم تتعلّم كيف تقلب العشق من الرجل إلى الولد. إذا أعطى الولد لا حاجة لي به.

رمقتها «تاناد» بإعجاب. أدهشها أن تصنع ثلاث ليال في حضن الرجل من صبية رعناء امرأة حكيمة.

الحورية لم تقل إنها استعارت الحكمة من شفتي جدَّتها.

(١٠)

هي لم تطلب الطلاق. هاجرت مع أهلها إلى مراعي «مساك ملّت». وهو لم يذهب إلى الإمام ليطلقها. استمر يتطاول في القمم الحجرية، يصغي لطائر الفردوس، ويرقب السهول من عليائه في السماوات.

بعد شهور جاءه الرعاة بالبشارة: الحورية المهجورة أنجبت له وريثاً يخلفه في قلبها.

٦ ـ أهل الردة

«. . . في طاعة سلطان هذه المملكة بلاد مفازة التِّبر، يحملون إليه التِّبر كل سنة. وهم كفّار همج، ولو شاء أخذهم، ولكن ملوك هذه المملكة قد جرَّبوا أنهم ما فتح أحد منهم مدينة من مدن الذهب ونشأ بها الإسلام، ونطق بها الآذان، إلا قلَّ وجود الذهب، ثم يتلاشى حتى يعدم. ويزداد فيما يليه من بلاد الكفّار».

ابن فضل الله العمري ـ «مملكة مالي وما معها»

(١)

دخل عليه الحاجب الزنجي الممصوص كعود قصب وأخبره أن الرَحَّالة يطلب الإذن بالدخول. جلس في صدر الرواق بثياب الاحتفال الزرقاء. خصره مطوق بحزام الجلد. من الحزام تدلّى سيف مغمور في غمد موسوم بالنقوش ومثلثات «تانيت». ثبَّت في المعصم، تحت القميصين الأزرق والأبيض، مدية تباوية شرسة مدسوسة أيضاً في جلد ثعبان. حوله في الرواق، المثبت بالأعمدة وأقواس المعمار الإسلامي، تحلَّق شيوخ العشائر. يتوِّجون رؤوسهم بالعمامات الزرقاء ولكنهم لا يتمنطقون بالأحزمة وخاصراتهم عارية من السيوف. يحصون حركات بعضهم ويختلسون النظرات تحت الأقنعة الزرقاء ويلزمون الوجوم.

السلطان أيضاً لزم الصمت طوال الجلسة. يتابع خطوط الكليمة التواتية بإصبعه الرفيعة وينكس رأسه في خشوع. وكلما جاءه الخدم بالشاي رشف من الكوب صامتاً محاولاً ألَّا يلتقي ببصر أحد من الأعيان. وعندما أعلن الحاجب عن وصول المهاجر هبَّ واقفاً فنهض الشيوخ تباعاً. تقدَّمهم لاستقباله ولكن الرَحَّالة دخل الرواق بخطوات واسعة كأنه ما زال يقطع فلوات الصحراء. شيخ نبيل، طويل القامة، نحيل، صارم، في عينيه تصميم المهاجرين الأبديين وجنانهم أيضاً. وجنتاه بارزتان خلف لثام رمادي هزيل. بشرته محروقة بالشمس الطاغية. يطوِّق خاصرته بحزام الكتان ويمسك بيده اليمنى

عكازاً قديماً من السدر. تقدَّم نحوه السلطان وعانقه طويلاً. ثم تراجع خطوتين وأفسح المجال للشيوخ. عانقوه بحرارة. من عيون بعض الشيوخ العجائز لمعت دموع نبيلة. دموع الوفاء وغدر الزمان وذكريات الماضي.

جلس السلطان بجوار الضيف. صمتوا طويلاً. طويلاً جداً. جاء الخدم بالشاي. رشفوا في صمت.

تأمل الضيف التعويذة الجلدية التي تتوِّج عمامة السلطان ثم فتح مراسم السؤال. تحدَّثوا طويلاً عن البلاء: الجدب في الصحراء واختفاء الذهب من مناجم الأدغال.

اشتكى السلطان:

ـ اختفاء الذهب ضَرَب التجارة. حركة القوافل مع الشمال توقَّفت. مخازننا خاوية والناس جياع.

ولكن المهاجر العجوز انتهز الفرصة وبدأ:

ـ أن يموت الناس أحراراً أهون من أن يعيشوا عبيداً.

تبادلوا النظرات مع السلطان كأنهم توقَّعوا الهجوم فأكمل الرَحَّالة بمرارة:

ـ . . . عبيداً للمجوس من قبائل «بامبارا».

اعترض السلطان ولكن بتسليم:

ـ لا بدَّ من الهدنة. الجوع كافر.

التفت نحوه العجوز وقال بخشونة:

ـ هل نسيت تعويذتنا القديمة؟

نكس السلطان رأسه واقتفى أثر النقوش على الفرش.

أضاف الضيف:

ـ الصبر. أنفس تعويذة في الصحراء. لولاه لما تحمَّلنا يوماً واحداً. الصبر قَدَرُ مَنْ أراد أن يعيش حرّا.

قال السلطان بلسان العجز:

ـ الصبر لن يطعم الجياع.

ضحك العجوز فجأة ضحكة عصبية، غاضبة. ثم نطقت عيناه باحتقار:

ـ تريد أن تفوز بالنعيمين: نعيم الأرض ونعيم السماوات. أنت تفضِّل أن تبيعهم لإله المجوس على أن يصبروا على البلاء. إذا قبلت بالهدنة اليوم بدأت في التراجع غداً حتى تتراجع عن دينك نفسه.

ـ الهدنة تعطينا الحق في استغلال بعض مناجم الأدغال في أراضيهم. هذا يعيد لنا الحياة وتجار القوافل سيعودون من الشمال.

ولكن العجوز لم يهادن. قال بلغة قاسية:

ـ بعت بلادنا. بلاد الله والإيمان، إلى شياطين التِّبر يا مجوسي.

احتقن وجه السلطان. وجنتاه امتلأتا بدم العار. قفز واقفاً. استنجد بسيفه وجرَّده من الغمد. هَرَعَ الشيوخ وأخذوه في أحضانهم.

ولكن العجوز لم يعبأ. استمرَّ بنفس القساوة والبرود:

ـ مَنْ رفع سيفاً في وجه أب أو أخ لأب فهو ابن حرام. منذ اليوم لا أنت مني ولا أنا منك. اشهدوا يا جماعة!

تكلَّم شيخ يناهز المائة عام. جلس في الزاوية العتماء طوال الحوار. قال:

ـ منذ قليل تحدَّثت عن تعويذتنا التي قهرنا بها الصحراء يا شيخنا الجليل. انتظر بالله.

ولكن المهاجر وقف وأعاد:

ـ لا أنت مني ولا أنا منك. اشهدوا يا جماعة.

(٢)

بلاد غرب وجنوب «تينبكتو» فتحها المرابطون ونشروا الدعوة في الأدغال

بين قبائـل الزنـوج ثم جعلوا من «تينبكتو» عـاصمة للصحـراء وما تبعهـا من أجزاء القارة التي شملتها الفتوحات. ونصّبوا «ختامان» الحكيم سلطانـاً عليها قبـل أن يعبروا غـرباً ليجتـازوا المضيق إلى بـلاد مـا وراء البحـار. وإذا كـان الفاتحون أول مَنْ اقتحم مجاهل القارة بالدعوة فإن لـ «ختامان» الحكيم يرجـع الفضـل في إقامـة أول نظام إسـلامي في قارة من الـزنـوج المجـوس. فهنـأت السلطنـة وتمتّعت باستقـرار في سنوات حكمـه. وضع القـوانين لـيرسي أسس العدالة. سنَّ الأعراف بين القبـائل ووضـع الميثاق مـع «بامبـارا» تمنع الـدولة بموجبه تجارة الرقيق مقابل استمرار الزنج في تزويد السلطنة بما تحتاجه من التِّبر لضـمان تدفق المـوارد ومواصلة التجـارة مع المـدن في شمال الصحـراء. شجّع الزراعة حول ضفاف النهر وداخل المساحات المروية بالأمطار الموسمية، ونظّم تسويق منتوج الغلال، فازدهرت المقايضة، وطاب للأغراب المقـام في البلاد. منع السجود للإله «آمناي» وطوّقه بسياج من الحجارة ودعا الناس لأداء صلاة الاستسقاء في المساجد وطلب الماء من إله السماء.

وبرغم اندماجه في بناء «تينبكتو» لتكـون عاصمـة الذهب وبغـداد القارة السـوداء وبرغم انشغـاله بصنـع دولة العـدالة إلاَّ أنـه حرص ألاَّ يفقـد صلته بـالصحراء. وهـو أول السلاطـين الذين يـرجع لهم الفضـل في إرسـاء ذلـك التقليد الفاضل الذي عمل ورثته على استمراره. فكان يقضي فصل الربيع في المواسم الممطرة من كل عام في البرية.

ووضـع قانـوناً لنبـلاء «تينبكتو» يقضي بـأن يـرسلوا أولادهم ليقيموا مع الرعاة في الصحراء بمجرَّد أن يبلغوا السادسة من العمر. هنـاك يجدون الـرعاة الموهوبين والمهاجرين الأبديـين الحكماء في انـتظارهم ليعلّموا الـذكور الحقيقـة والرماية، وركوب المهاري ويسلّموا الجـديان لـلإناث لا ليتـدرَّبن على الـرعي ولكن ليتعلّمن تعويذة الصحراء القديمة: الصبر! فلم يجد أهل الصحراء أنفع من الجديان في تعليم الصـبر، وليس أجدى لليـافع النبيـل من تعلّم الحقيقة.

ويقول ختامان الحكيم إنه توصّل إلى هذه الشعائر بعد استقراء طويل لتجارب القدماء وقراءة طقوس الأوّلين.

ويروي شيوخ الحاشية أن ختامان الحكيم عندما انتهى من عمله رقد على الفراش وسحب الغطاء على وجهه وهو ما زال بصحة موفورة ونطق بآخر وصاياه: «. . . والآن انتهينا من اللعب وبدأنا نطرق بوابة الجدّ».

مات في الليل.

ولم يكن غريباً أن يستهجن العقلاء وفقهاء الدين هذا التطرف من رجل لم يعرفوا فيه سوى الحكمة والاعتدال، ولكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم جميعاً يرددون نفس العبارة بمجرّد أن جاء الوقت وحلّت المواجهة مع الأبدية.

ذاع صيت العبارة وانتشرت على شفاه المحتضرين كالوباء.

(٣)

ورثة ختامان إثنا عشر سلطانٍ.

تولّى بعده ابن أخته دوكن. بعد دوكن تولّى ابن أخت له يُدْعَى اكنار. تولًّى بعده أمود، وهو ابن أخت أيضاً. ثم جبور، فختامان الثاني، فموخامّد، فأسوف، فآخمد، فأخنوخن، فختامان الثالث، فأساغون، وكان آخرهم همّه. همَّه هو الذي كسر أقدم تقليد فتنحَّى عن السلطنة وتخلّى عنها لابن أخيه «أورغ» عندما داهمه مرض الحنين إلى المجهول وعَزَمَ أن يهاجر إلى صحاري «أضاغ» و«آزجر» ليعيش راحلاً في الفلوات. وبرغم أن «همَّه» هو السلطان الوحيد الذي لم يرزقه الله بأخت تنجب له وريثاً إلاَّ أن الناس لم تغفر له هذا المُصَاب واعتبرت أنه سلَّم رقابهم في يد رجل مجهول الأصل واضعاً الثقة في امرأة الأغراب، مرتكباً حماقة بتصديق أكذب مخلوق. وصفوا السلطان الجديد في جلساتهم المسائية بـ «النَغْل» وتوقَّعوا في عهده شؤماً.

(٤)

لم يصدِّق أحد أن يوجد مرض في الدنيا يمكن أن يجبر سلطاناً على التنازل عن عرشه مهما كان هذا المرض مجهولاً وخفيّاً. فتسكّعت في شوارع «تينبكتو» الشائعات، وتردّدت رواية أيّدها العقلاء كما أجمع عليها السفهاء، تقول إن «أورغ» تحالف مع السَحَرَة المخيفين من بلاد «كانو» ليجبر عمّه المسكين على التنازل والهجرة إلى المنفى. وإلاّ مَنْ يصدِّق أن يتخلّى عاقل عن الحكم ليختار منفى الصحراء طائعاً؟ ووجدت هذه الشائعة دعماً من نفوس الأهالي بسبب الطريقة المشبوهة التي تمَّ بها تخلّي الرجل عن السلطنة. إذ استيقظ الناس ذات ليلة على ضجة غير معهودة في القصر. وروى شهود عيان في الصباح أن السلطان أُصيب بنوبة مفاجئة شبيهة بنوبات الوجد التي يتعرَّض لها الشباب في ليالي السَمَرِ والسهر من قبل شيطان الفن والطرب. سقط كالمصروع. تلوّى طويلاً، عَلَتْ شفتاه طبقة من الزبد. في عينيه دهشة وطفولة وفراغ. جسده فاق جذوع الطلح تصلباً. وروى بعض أفراد الحاشية أن «أورغ» كان أول مَنْ هَرَعَ إلى المكان. فوقف على رأس عمِّه طوال الوقت تصحبه جماعة مخيفة من السَحَرَةِ المجوس الذين جاءوا من «كانو» المجاورة خصيصاً لتنفيذ هذه الخطة. قيل بعدها ـ على لسان الحاشية أيضاً ـ إن السلطان قال إن قَبَساً حلَّ في قلبه ورأى في نوره الله. ولم تمضِ أيام حتى أعلن المنادي عن تنحي السلطان وتنازله لابن أخيه عن الحكم.

ولمّا لم يسبق لحاكم في تاريخ الصحراء كلها أن زهد في حكم، كما لم يسبق أن تسلَّم مقاليد سلطنة تينبكتو ابن أخ مشبوه الأصل، فقد أيقن الأهالي أن المؤامرة من تدبير هؤلاء السحرة المجوس بالاشتراك مع امرأة الأغراب، فتوقّعوا شؤماً أسوأ.

(٥)

الانتظار لم يطل.

فبمجرَّد أن غادر همّه وغاب في الصحراء استولى سحرة كانو وعرّافو

الأغراب على الحاشية، وسيَّروا السياسة في السلطنة. ولم يمض وقت طويل حتى حلّوا محل المستشارين والمعاونين من أهل البلاد واحتلّوا المناصب وكل الوظائف الحساسة. في ذلك الوقت كان الوضع الاقتصادي يشهد تردياً لم تشهده تينبكتو منذ عهد الفتوحات. رأى زعماء قبائل «بامبارا» وبلاد المجوس حالة العجز والتدهور في السلطنة فتشجَّعوا وامتنعوا عن دفع الجزية. خلت الخزينة من الذهب فتوقَّفت تجارة القوافل مع الشمال. كسدت الأسواق وفرغت الدكاكين من البضائع. وجد المرابون والمضاربون فرصتهم فاستغلّوا واستعبدوا الرقاب. كثر النهب والسلب وانتشر قطّاع الطرق في شوارع الليل.

طرقت المجاعة أبواب تينبكتو لأول مرة في تاريخها.

وفي الوقت الذي كان فيه سحرة «كانو» والمجوس الأغراب يُحْكِمُون صنع الفخ أجمع العرَّافون المحليون على أن سرّ النكبة يكمن في ابن الأخ. وفكّوا رموزاً وثنية تقول إن حصن الإرث بالدم غير مضمون إلاّ بابن الأخت وخروجه من هذا الحصن يجرُّ الشؤم. وكل مَنْ صدق امرأة الأغراب فهو درويش!

قالوا إن ما يحدث إشارة لبدء العدِّ التنازلي لسلطنة «تينبكتو». فسارعوا بتوزيع الصَدَقَات سراً على المساكين وذبحوا أنعام القرابين.

(٦)

في ذلك العام عمَّ الجدب واحترقت الصحراء بالنار. ولكن الزهَّاد القساة يعرفون الحيلة.

فلم يحدث أن نوى أحدهم تطهير الروح والفرار لملاقاة الله في الصحراء إلاّ وقام إبليس الرجيم بابتداع أخبث الحيل لاعتراض صراطه وإعادته إلى المملكة. وكان العجوز «أفوس» من هؤلاء الزهَّاد العتاة. تولَّى رعاية همّه وساقه على ناقة عجفاء عبر متاهات «آضاغ» التي اتخذها وطناً منذ أن نال

الحرية من السلطان أساغون، خال همَّه، وقرَّر أن يتمتع بهذه الحرية في الخلاء الأبـدي العظيم. وبـرغم أنه لا يتكلم إلاَّ إذا أجـاب على سؤال، غـير أنـه لم يخفِ سعـادته بـأنه العبـد الوحيـد الـذي استحقّ الحـريـة من السلطان لقـاء إخلاصه ونبل أخلاقه، فتباهى أمام همَّه كثيراً بالامتياز وردّد أنه فخور إذْ قدَّرَهُ الله أن يرافق ابن أخت سيده القديم ويقطع به الفلوات الشمالية.

قال بشأن خطته لمواجهة إبليس:

ـ أعرف آباراً لا يعرفها الشيطان نفسه. وإذا حصلنـا على زادنـا من الماء فلن ينقصنا شيء.

همَّه أيضاً قضى عمراً في الصحراء. رافق الرعاة وتعلَّم على يدهم الرمايـة والحقيقة وركوب المهاري عملاً بالتقليد القديم الذي أرساه ختامـان الحكيم. ولكن المرض اضطره أن يقـطع إقامتـه في الصحراء ويعـود إلى تينبكتو. فبقت الغصَّة في قلبه وعـانى من حنين مجهـول إلى الصحراء. ظنَّ أن الأيـام ستشفيه من الحنين ولكن الزمان غذاه ورعاه فنما وكـبر حتى أصبح هـاجساً وحمّى. إذا هجع للراحة وأغمض عينيه رأى السهول العارية، الـواعدة، تمتـدّ وتبتعد إلى مـا لا نهاية. وإذا نـام زارته الجبـال الخفيّة وتحـدث معـه الجنُّ في الكهـوف. وكثيراً ما وجد نفسه محاطاً بالقبائل المجهولـة وهو يتخـذ مجلسه بـين الشيوخ. اضطر مراراً أن يجيب على سؤال أو يستجيب لنكات فتغلبه الضحكة في وقت الـوقار. لاحظ تـبرُّم الشيوخ ودهشتهم إلى حـد جعل كبـيرهم مرّة يفـاتحه في الأمـر بصراحة. قـال له إن النـاس أصبحت تشكُّ في قـواه العقلية وتـرى في غرابة تصرفاته شذوذاً يهدِّد سمعة السلطان والسلطنة. ولكنه كان عـاجزاً عن فعل أي شيء يعيده إليهم.

الظمأ المجهول إلى السراب وصل مداه. وأهل الخفـاء والخلاء أصبحـوا يـزورونه كـل يوم. يـأخذونـه في الليل ويـطوفون بـه الصحاري المجـاورة ثم يعيدوه إلى قصره قبل حلول الفجر. وكلما تـوغَّل بصحبتهم في الصحـراء كلما

ابتعد عن الناس وكره الشيوخ واشمئزَّ من الحكم والسلطنة. وعندما قرّر أهل الخفاء والخلاء أن يهجروه ويتركوه للأعداء أُصيب بنوبة. فجاء «أورغ» بسَحَرَته وحاشيته ليأخذ مكانه على عرش تينبكتو.

كان همَّه، مثل أفوس، سعيداً بحياة الصحراء.

أفوس قال له مرة: «الصحراء مثل الأغاني السماوية، إذا لم ترتوِ من لحنها قتلك العشق والجنون».

أخيراً تحرّر من جاهٍ لم يعرف طعمه يوماً وعاد ليروي الظمأ القديم.

(٧)

استمرَّت الصحراء تتنفس القبلي والنار.

تعلَّم من أفوس الحكيم أن لا أحد يستطيع أن يفهم سرَّ الصحراء إلاَّ مَنْ عاش في المدن وذاق طعم العبودية، وتعلَّم من تجربته استحالة الاستثناء إلاَّ في حالة واحدة: قراءة الآية مقلوبة على طريقة السَحَرَة المحليين. فهو عاش حياة عكس أفوس. جبلوه على الصحراء وأطعموه الحرية والفردوس. ثم ساقوه كالشاة، عندما أُلَّم به المرض، وأودعوه جدران تينبكتو. مضى وقت قصير فنادى المنادي ناعياً السلطان. ثم وجد نفسه مكبَّلاً بأصفاد أخرى، يجلس على كليمة تواتية منفوشاً كطاووس، داخل الردهات المزركشة بالآيات والأروقة والأقواس الإسلامية، يجالس الكبار، ويحسب عليه الشيوخ حتى الأنفاس. يتكلم بحساب. ويسكت في اللحظة المناسبة. إذا رغب في قضاء حاجته امتنع، وإذا هاجمته حشرة مقززة تظاهر بأنه لم يرها. وإذا أصابه التعب وأراد أن يغفو تكبَّر على سلطان النوم. وإذا سعل أو تجشأ فقد خُتِمَتْ الجلسة بالعار.

قتلته قساوة الشعائر حتى أيقن أن الشيوخ هم السلاطين وليس هو. فأصبح يتنصَّل من الاجتماع ويتجنَّب المراسم. يتمارض حيناً ويبتدع رحلات

الصيد أحياناً. هاجر مرات إلى أطراف الصحراء القريبة ولكن ملاحقة الشيوخ له بشؤون السلطنة لم تمكنه من أن يتوغّل ويمضي إلى أبعد كما يريد.

أصبحت الأغلال تضيق عليه وأحسَّ بالاختناق. زار الزاوية القادرية وشاهد حفلات الذِكْرِ ثلاث مرات، وأقام في القصر ثلاث أمسيات لـ «أمزاد» فتعرَّض لاستنكار الشيوخ واتهموه بالاستهتار والصبينة. فاتح كبيرهم بنيته في التنحّي فنظر في عينيه نظرةً طويلة غامضة. قال بعدها:

ـ أنت لا تعرف ما تقول. الله العظيم هو الذي وضع السلطنة في رقبتك وجعلها قَدَرَك. لأنك الوحيد من سلاطيننا الذي لم يحظ بأخت تنجب له وريثاً. فأين ستهرب؟ أنت سلطاننا الأبدي. إذا تركت ضاعت السلطنة إلى الأبد. هكذا يقول «آنهي».

ـ ولكني سأموت يوماً حتى إذا لم أتركها اليوم.

ـ هذا ليس شأنك. أمر الموت في يده تعالى. مهمتك أن تقبل بالقدر اليوم وتسلِّم بالمكتوب.

ولكنه لم يقبل بالقدر. بالعبودية. بالسلسلة التي توارثوها منذ عهد ختامان وتلتفُّ الآن حول عنقه بطول يزيد عن السبعين ذراعاً. ضاحك الرعاة القدامى في مجلس الشيوخ. ردَّ على تساؤلات أهل الخلاء في الكهوف أثناء استقباله لسفراء السلطنات المجاورة. غاب في الصحراء وتركهم لطقوسهم القاسية وهو يجلس بينهم. استيقظت شهوة الحكم في نفس «أورغ» فشجَّعه بالإشارة والإيماء حتى تجاسر وجلب حاشية السَحَرَة من «كانو» وبلاد المجوس.

كان تسلُل المجوس إلى القصر المرسوم بآيات القرآن أكثر ما أثار حزنه. ولكن نداء الصحراء أقوى. فيئس وانقطع به خط الرجوع.

(٨)

برغم كل ما حدث لم يبخلْ بزيارة السلطنة.

زيارات متقطعة مجبورة، نادرة، ولكنها كانت ترضي الشيوخ وتعزّيهم في المحنة.

وكثيراً ما قام المساكين باستقباله بفرق القادرية كأنه المهدي المنتظر.

ولم يكن صعباً على الشيوخ الحكماء أن يلحظوا آثار الصحراء في سلوكه خلال هذه السنوات. رقّ قلبه لهم وعاملهم بالشوق والطراوة بقدر ما عامل نفسه بالجفاء والقساوة. يعانقهم بحرارة لم يتحلّ بها في عهد السلطنة. في عينيه القاسيتين رأوا دموعاً كلما ودّعهم. ولكنهم فشلوا في أن يقنعوه بالبقاء. فأيقنوا أن مرونته الجديدة ليست بديلاً لعناده القديم.

تداولوا في الأمر في مجلس المساء طويلاً، وانتهوا إلى أنه الوحيد الذي لم ينتظر حتى يرقد على فراش الموت كي يردّد جملة ختامان الزهدية القاسية عن اللهو والجد. كما لم يخفوا إعجابهم بشجاعته. فهو الوحيد الذي تجاسر وهرع لاستقبال الرسول المخيف الذي يخشاه كل الناس ويهربون من وجهه. ولكنهم لم يعلموا أن رسول الأبدية المجهول غريب الأطوار كالبشر: يسعى خلف الجبناء والهاربين ويخشى الشجعان المقبلين.

ويُقال إنه يتجنّب هؤلاء لأنهم يحملون في قلوبهم سرّه.

(٩)

حتى العرّافون المحليون يئسوا من الخلاص وتوقّفوا عن سفح الدم. كبير الشيوخ اعتصم في زاوية القادرية واستسلم للقضاء. رأى الناس في أفق تينبكتو أشباحاً أسوأ من المجاعة. فعقب إفلاس بيت المال من الذهب سعى السلطان لتسوّل الصلح مع قبائل «بامبارا». بعث إلى زعمائهم بالرسل واستدان أكياس التبر. وبرغم استجابة بعضهم لنواياه إلاّ أن ذلك لم يكن كافياً للفوز بثقة التجار.

فاستمرّت الفوضى في الشارع والسوق. وتصاعد نشاط اللصوص وقطّاع الطرق.

ووجدت القوافل طرقاً أخرى آمنة عبر «آغاديس» في الشمال الشرقي بعد أن استأجرت فرسان «آزجر» كحماة وخبراء طرق واستطلاع. ورأى السلطان ومستشاروه المجوس أن إعادة الروح لتينبكتو كعاصمة للتجارة مستحيلة بدون تزويد السوق بكميات كافية من التبر. فأرسل بمبعوثين جدد إلى زعماء الأدغال لتوقيع إتفاق طويل الأمد يتنازل هو بموجبه عن الأراضي الخصبة الواقعة جنوب نهر «كوكو» مقابل تزويده بكميات كافية من الذهب تعيد لأسواق تينبكتو الحياة وتجار الشمال. ولكن الزعماء طلبوا مهلة فاضطر السلطان أن يسرِّح مزيداً من أفراد الجيش تحت ضغط الإفلاس وخواء الخزانة. وعلى عكس ما توقَّع فإن التسريح في الجيش أدَّى إلى تفاقم النقمة وزعزع ثقة الأهالي بالسلطنة. كما شجَّع زعماء المجوس، الذين كانوا يراقبون الوضع مستغلين الهدنة والمهلة، فلجأوا إلى الابتزاز. بعثوا برسول في أشدّ أوقات المحنة ولقَّنوه عبارة ليقرأها أمام السلطان. قال: «لم تثبت الدنيا على حال. تبعث الحي من الميت، وتبعث الميت من الحي. عاليها ينقلب سافلها، وسافلها ينقلب عاليها». وعاد إلى الأدغال.

غضب السلطان وطلب من عرَّافيه الأشقياء أن يفسِّروا له معنى الخطاب. ولكنهم رفضوا جميعاً. في ذلك الوقت بدأت جوهرة القارة السوداء تغلي وتحترق. تجاسر الجياع وقادهم قطّاع الطرق إلى الانتفاضة. فوقع السلطان في الفخ. تقدَّم منه عرّاف نحيف من «كانو» وتطوَّع بتفسير الرسالة:

ـ ملوك الأدغال يقولون إنهم على استعداد لتلبية كل ما تطلب مقابل أن تتخلَّى لهم عن الأرض والعِرْض والسماء.

دُهِشَ السلطان وهدده بقطع العنق ولكن العرَّاف العظيم استمرَّ في قراءة أبسط الرموز:

ـ الأرضُ: المغتصبة بالسيف، جنوب النهر. والعِرْضُ: طابور مقبول من صباياكم. والسماء: إعادة الروح إلى الآلهة القديمة وإحياء شعائر المجوس في تينبكتو.

انتهى العرّاف من قراءة المكتوب.

(١٠)

أيقن «أورغ» أنه لن يفلح في إبرام الاتفاق طالما بقي «همّه» على قيد الحياة فأعطاهم الموافقة الفورية ولكن بشرط أن يضمنوا له إلتزام السرية خاصة فيما يتعلّق بالبندين الثاني والثالث. ولكن الزعماء الوحوش رفضوا السرية واشترطوا إعلان كل البنود على الناس إمعاناً في الإذلال وثأراً للمهانة القديمة التي ذاقها أجدادهم على يد المرابطين زمن الفتوحات.

تشتت شمل المجلس ولم يفلح في إقناع أكبرهم سناً في الخروج من مخبئه في الزاوية والعودة إلى القصر. استمال شيوخ بعض العشائر الضعيفة ولكن كلمتهم أضعف من عشائرهم وأصواتهم لم تنجح في إقناع الناس. هنا فقط أدرك أن همّه تنازل له عن السلطنة ولكنه أخذ معه السلطة الروحية إلى الصحراء. بعد اجتماع القطيعة أرسل خلفه الرُسُلَ ولكنه رفض الصلح وأصرّ على موقف التبرئة والتنصل من رباط الدم.

فكّر السلطان طويلاً. ثم تفوّق على نفسه وأرسل خلفه رسولاً.

(١١)

لم تتأخر الأنباء.

وَجَدَهم الرعاةُ مقتولين تحت طلحة وحيدة. همّه يولّي وجهه نحو القبلة ويحدِّق في الأفق البعيد. أمّا أفوس فيسند رأسه إلى جوار رأس رفيقه ممدداً إلى الناحية الأخرى. في عينيه فراغ وابتسامة غامضة.

ما أثار الناس ودفعهم إلى الجامع أسطورة أجمع عليها الرعاة تؤكّد أن الرائحة لم تفحْ من كلا الجسدين. كما نفوا أن يكونوا قد لاحظوا الديدان.

بعد صلاة الغائب خرج الناس من الجامع وتجمّعوا في ساحة السوق. هناك قرأ أحد عرّافي تينبكتو نبوءة قال إنها وردت في دستور الأولين الضائع

«آنهي» تقول: «مَنْ تنكَّر للدمِ وَرَفَعَ سيفاً لِيَقْتُلَ أباً أو عمّاً فهو نَغْلٌ كَذَبَتْ أمُّه عندما إدَّعَتْ بُنوّته لأبيهِ».

(١٢)

يوم الإفراج عن «أمناي» جاء كل زعماء الأدغال. تقدّمهم زعيم قبائل «بامبارا» مشيَّعاً على نقّالة جلدية موسومة بالتعاويذ ورموز السحرة. يرفعها على الرؤوس جيش من المحاربين العراة المسلحين بالحراب المسمومة. أما الزعيم نفسه فعلَّق في رقبته قلادة كبيرة كتميمة صُنِعت من سن الفيل. خصره العريض مطوّق بحزام من قواقع النهر قال عرّاف السلطان إنها تمائم أيضاً. كما وضع في كلا معصميه أساور خشنة من الخرز الملون الدقيق مطرّزة على سوارين من جلود الثعابين. حمل في يده اليمنى حربة طويلة مسمومة أيضاً. عريض. طويل. أفطس الأنف. تتدلّى شفته السفلى الحمراء مثل نعل «التمبا» القديم. تفوح منه رائحة حادة ويشتعل فوذاه المجعدان ببياض الشيب فيبدوان للمشاهد كأن طبقة من الزَبَدِ تغطيهما وتتدلّى من الجانبين.

في ذلك الوقت كان الزعماء قبد نفَّذوا أول بند فتدفق الذهب وجذب القوافل. سعى وراءه تجار الشمال. امتلأت الأسواق بالبضائع وازدحمت بالمرابين والمضاربين. بدأ ضعاف النفوس يطمئنون على الغد فتنفّست تينبكتو وانتعشت وعادت لها الحياة.

في اليوم الذي سبق وصول المجوس أمر السلطان بتجريد الصوامع من الأهلَّة ومسح آيات القرآن من المساجد وجدران القصر ومنع الآذان وصلوات الجماعة. تقدَّم منه رئيس العسس في مساء نفس اليوم واستأذنه في بشارة: قال إنه تمّ اكتشاف منجم للذهب بجوار سياج «أمناي» شمال المدينة. هلّل أفراد الحاشية وابتهجت النفوس التي أفزعتها المجاعة. وقال العرّافون أن هذه إشارة الآلهة للخروج من الكابوس والبعث من الزوال، في حين ندب مريدو الطريقة القادرية في الزاوية وبكوا عودة الناس إلى الظلمات.

٧ - «واو»

«واحات «واو» في الصحراء ثلاث. واو الكبيرة، واو الناموس، واو حريرة. واو الأخيرة واحة مفقودة. لا يعثر عليها إلاَّ التائهين الذين فقدوا الأمل في النجاة. تسقي العطشان والضائع ولا تنقذ إلاَّ مَنْ أشرف على الموت. ويجمع أولئك المحظوظون الذين فتحت لهم أبوابها وتمتَّعوا فيها بالضيافة والعطايا والبهجة أنهم لم يروا في الأحلام مدينة تفوقها جمالاً أو ثراءً. لم يدخلها إنس إلاَّ وخرج منها محملاً بكنز يغنيه عن الناس والحاجة إلى أن يموت. ولكنهم نبَّهوا أيضاً إلى عدم جدوى البحث عنها، فما أن يخرج الضيف من أسوارها حتى تختفي. ويتوارث أهل الصحراء رواية تقول إن البحث عنها يجري منذ آلاف السنين».

من أسطورة للطوارق

(١)

انهارت التحصينات حول البئر ثلاث مرات، ولكن العراك مع الريح لم يتوقف.

استمرَّ يتدفق طوال أسابيع. يهبّ في موجات محملة بالحصى والتراب أياماً ثم يتراجع ويتحوّل إلى أنفاس جنوبية حـارة، متقطعـة. وأحيانـاً أخرى يهـدأ فيتصاعد غبار كثيف في الفضاء. فيبقى عالقاً في السـماوات العليا ويحلِّق فـوق المرتفعات. يحجب رؤوس الجبال كالسحاب عدة أيـام ثم ينفجر فجـأة ويعود في موجات جنونية تقوِّض كل ما بناه أهل السهل.

في هذه الأثناء يروق للجلاَّد الأبدي أن يطلَّ برأسه من بين سحب الغبار ويتفـرَّج على الأهـالي الأشقياء ثم يعـود فيختفي شامتـاً. ولكن أهـل السهـل الذين يستطيعون أن يسلِّموا في كل شيء ويتحمَّلوا أي بلوى إلاَّ طمر البئر، آثروا، هذه المرة، سياط الجلاَّد الأبدي عـلى نكبة الـريح. قـام أولئك الـذين جرَّبوا العـطش بتوزيـع الصدقـات سرّاً عـلى الجيران والمسـاكين نَـذْراً لله كي يهدىء من جنون قبلي هذا العام.

فوق الفوّهة تناوب الشبـاب كأنهم قـرروا أن يحموا فم البئـر بأجسـادهم بدل ألواح الحجارة.

جـاء الزعيم لتفقـد الحال يتبعـه الإمـام وجمـع من الشيـوخ. في الفضـاء

خيّمت سحابة الغبار. استراح السهل وسعى الناس لقضاء الحاجات والتقاط الأنفاس. في الجنوب الشرقي، تحت السفوح، ارتفعت أعمدة الدخان من الأبنية وعلا رنين الحدادين وصيحات تجار القوافل.

فوق الرابية وقف «أوخا» كالشبح. ثم تحرّك لاستقبال الزعيم. قاده عبر السفح ونزل إلى المنخفض. في ناحية الجنوب ارتفعت تلة رملية عالية وأشرفت على التحصينات الحجرية. مشى الزعيم بخطوات حيوية، اجتاز الحصن الحجري المستدير حيث التأمت الجماعة. قال وهو يصعد المرتفع الرملي:

- إذن هذا هو المستودع.

وقف فوق التلّة وتابع قوافل التجار في معسكر المهاجرين. أكمل:

- الأجدر أن تقضوا على المستودع الذي يتزوّد منه الريح بدل إقامة السدود على الفوّهة.

دُهِش أوخا. قال:

- لا أظن أننا نستطيع أن نزيح جبل الرمل.

- إذا عجزتم عن إزاحة الجبل فلن تشربوا ماءً بعد أيام.

- إذا أزحنا هذا الجبل أتى القبلي بغيره في الغد.

- أذا أتى بغيره في الغد فاستعدّوا لمقاومته أيضاً.

- سيضحك علينا الناس.

- إذا أردتم أن تشربوا الماء.

- لن يتوقف نمو التلال ما لم يتوقف الريح.

- هذا قدرنا. إذا أردتم أن تشربوا ماءً في الصحراء.

- لم يشهد السهل ريحاً استمرت لأسابيع وشهور.

- السهل رأى كل شيء. الصحراء شهدت كل شيء.

عمَّ الصمت. استمرَّت صيحات الوافدين الجدد في مدينتهم.

قال أوخا:

ـ مهما حاولنا فلن نستطيع أن نزيل الربوة في يوم أو يومين.

ـ أزيحوها في أيام. العجلة من الشيطان الملعون.

تساءل أوخا في شك:

ـ هل يمهلنا القبلي؟

الزعيم حسم الحوار:

ـ هذا موضوع آخر.

نزل الربوة إلى الناحية الأخرى فتبعه الشيوخ كقطيع من الأشباح.

(٢)

المدينة شُيِّدت على طراز «تينبكتو».

و«أناي» هو الذي شاء لها أن تشابه عاصمة الذهب ليس حسرة على ثرائها القديم ولا بسبب الاغتراب والحنين ولكن لأنه آمن دائماً بأن الصحراء الكبرى لم تنجب مدينة يمكن أن تنافسها في جمال المعمار وغنى النقش وعظمة القباب والقصور والمآذن.

وبرغم أن المدينة الجديدة ما زالت في طور النمو إلاَّ أن التجار الذين زاروا العاصمة الإسطورية على مشارف الأدغال أجمعوا على أن المدينة الجديدة هي «تينبكتو الصغرى». استلقت تحت سفح «القرين الجنوبي» وامتدَّت الأبنية حتى حذاء «أكاكوس» تخترقها شوارع متربة، متعرجة، تتخللها فوهات ظلماء على هيئة أقواس. بعضها مغلق بألواح من جذوع النخيل فأصبح باباً وبعضها استمرّ يفتح فمه المظلم ككهوف «تادرارت» في انتظار أن يحصل على نصيبه من الجذوع التي تجرّها القوافل من وادي الآجال.

ولكن المآذن ظلَّت عارية من الأهلَّة والآيات. كما بقت القباب الجليلة مطفأة يكسوها لون رصاصي كئيب.

(٣)

السوق انتعش وبعث الحياة في السهل قبل اكتمال المدينة.

حركة القوافل لم تتوقف وأصبحت تينبكتو الجديدة محطة لها. ورأى تجار الشمال والشرق أن النقطة الجديدة توفّر لهم حاجتهم من التِّبر وتختصر الطريق القاسية التي تقطع الصحراء وتصل مشارف الأدغال. فوردت السهل قوافل من القيروان وطرابلس وبرقة عبر مرزق والكفرة وغدامس. وبقي تجار الغرب من أهالي مراكش وطنجة وفاس يسلكون الطريق القديم إلى تينبكتو الأم. كما نشطت حركة القوافل العكسية فتدفّقت على تينبكتو الجديدة قوافل الذهب من أعماق القارة. بعضها جاء من تينبكتو الأم وبعضها من «كانو» وأغاديس، فابتهج تجار السواحل وقالوا إن الذهب يسعى إليهم ويلاقيهم في منتصف المسافة لأول مرّة.

هذا الانقلاب في صحراء «أزجر» التي امتازت في الماضي بهدوء أبدي جعل الزعيم يطلق على المدينة المدهشة اسم «واو الضائعة».

(٤)

رافق «أناي» ضيفه لتفقد الأسواق. عبرا مساحة من العراء تفصل المدينة عن الجبل يتخذها الناس سوقاً للمقايضة وتبادل البضائع. بدأت الساحة تتزاحم بالأهالي مع الأصيل. خليط من الجنسين الأبيض والأسود، المهاجرون وأبناء السهل، تجار القوافل والبدو والرُحَّل. فوق السطوح يتعالى صياح البنائين وهم يواصلون التحصين ودعم البنيان، وفي الساحة تصايح الباعة على البضائع. من البيوت ارتفعت ذيول الدخان. وفي زحام العراء اختلطت روائح التيوس والبول والزنوج والبهارات والتوابل والشاي الأخضر.

بلغا نهاية السوق فامتدَّ عراء آخر حتى حذاء «أكاكوس» ليفصل طابور الأبنية عن الجبل ويتخذه الرعاة مربطاً لإبل القوافل.

توقّفا لمشاهدة أحد الأتباع وهو يروِّض مهراً بكراً ويحاول أن يثبت فوق ظهره. ولكن المهر المتوحش يلقي به إلى الأرض في كل مرة ويحاول أن يحرِّر رأسه من الشكيمة في عناد ووحشية. أشار إليه «أناي» أن يشدَّ الرسن إلى أقصى ما يستطيع ولكن الراعي لم يفهم فجلس فوق المهري والتفت نحوهما متسائلاً فغفل عن الرسن. قفز المهري وطرحه على الأرض وجرّه في العراء مسافة طويلة. ضحك «أناي» وشاركه الضيف. ثم انحرفا يميناً ودخلا زقاقاً ضيقاً متعرِّجاً. أفضى الزقاق إلى رواق مسقوف يتوسّط الأبنية ويقف على أبوابه المقوَّسة عسس زنوج مسلحون بالحراب والسيوف. داخل الرواق المعتم علا رنين النحاس وضرب المطارق.

في الداخل مضى وقت طويل قبل أن يتعوَّد الضيف على العتمة ويميّز الحدّادة الزنوج الذين تجمعوا داخل الرواق في حلقات صغيرة وانهمكوا في العمل. ومضى وقت أطول كي يكتشف أن المصنوعات التي تلمع بين أيديهم ليست الحلي المزيّفة التي تعوَّد أن يراها في أسواق فاس وزويلة وغدامس ولكنها حلي مصنوعة من أجود أنواع الذهب. راقبه «أناي» طوال الجولة، وابتهج للدهشة التي رآها في عيني كبير التجار.

الرواق أفضى في النهاية إلى ممرٍ عارٍ من السقف. في فم الممر استقبلهما زنجي مارد مقنَّع بلثام مخطط قدَّمه «أناي» لضيفه قائلاً إنه رئيس الحدّادة. صافحهما وجاء صبي خلفه بطبق نحاسي وقدَّم لهما الشاي الأخضر. تقرفصا في الممر في حين اختفى المارد داخل عتمة الرواق. قال «أناي»:

ـ أردت أن أريك الرواق كي تطمئن إلى مستقبل مدينتنا.

ابتسم الضيف. عدّل طربوش القماش على رأسه. ومسح لحيته عند منبت الشعر. لم يعلّق. فاستمر «أناي»:

ـ تعلّمت في تينبكتو أن الثقة في السوق أهم سلاح في التجارة. لم يدخل أحد إلى الرواق سواك. ولَمْ أَدْعِكَ للفرجة كي تزوِّدنا بالحبوب والأقمشة

وجـرود الصوف وبقيـة المنقوصـات فقط ولكن لكي تـرى بنفسـك أننـا أهـل للثقة.

قال الضيف وهو ما يزال يبتسم:

ـ لم أشك في ذلك أبداً.

ـ نتوقع وصول قوافل جديـدة في خلال أسـابيع. ستحصـل على المعـدن المخدوم بأبخس الأسعار وفي منتصف المسافة من أراضيه.

ـ لا أنكر أني محظوظ إذْ أكون أول مَنْ دلَّه الله إلى سوقكم.

ـ شرط أن تكتم الأمر.

رفع الضيف رأسه مستفهماً فأكمل «أناي»:

ـ أهل السهل لا يتعـاملون بالـذهـب ويعتقدون أنـه معدن منحـوس. لا أريد أن يعرفوا عملة التعامل بيننا.

هزَّ الشيخ رأسه علامة الفهم وأخفى الابتسامة.

(٥)

في سـاحة السـوق، في الجانب المـلاصق للأبنيـة، وقف الـزعيم يجـاوره الإمام في حين ذاب قـطيع الأشبـاح في زحمة السـوق. برز القـرص المتعجرف فوق قمة الجبل ثم عاد واختفى خلف سحب الغبار.

تصافحوا بكبرياء وبرود.

وقفوا لحظات يتفرَّجون على دهماء السوق ويمارسون طقوس التحيات. ثم رأى «أناي» أن يقدّم ضيفه للزعيم:

ـ هذا الحاج البكاي. كبير التجار.

التفت الإمام نحو الحاج وعدَّل لثامه الأبيض حول أنفه المدبب.

قال الزعيم وهو يراقب الناس كأنه يتابع السراب:

ـ يطيب لنا أن نرى غدامس ومرزق وتامنغست وطرابلس تحلّ في سهلنا. لا أحد غير التجار يستطيع أن يصنع هذه المعجزة.

عادت الابتسامة إلى الحاج وتقدّم خطوات نحو الزعيم ليردّ المجاملة:

ـ أهل السهل هم الذين صنعوا المعجزة هذه المرة. جئتمونا بتينبكتو من الأدغال. بعثتم «واو» الضائعة من المجهول. ها ـ ها. قالوا لي إنك سميتها «واو». ها ـ ها أوافقك على الاسم!

إقترح «أناي»:

ـ بيتي لم يتكامل بعد ولكن يشرّفني أن يباركه الزعيم بزيارته وتناول الشاي.

ولكن الزعيم أسدل طرف عمامته الزرقاء على عينيه واعتذر:

ـ لم يسبق لي أن دخلت داراً قط.

صمت وأضاف بعد لحظة:

ـ ولا أرى أني سأضطر لفعل ذلك حتى لو كانت دارك بيتاً في واو المفقودة.

ضحكت الجماعة وعلّق الحاج البكاي:

ـ هل تخشى إنهيار الأبنية إلى هذا الحد؟

ـ ليس الإنهيار وحده. إنها تذكّرني بسجونكم في الشمال. الناس في الصحراء يروون عنها الأساطير.

أخفى الحاج ابتسامته. قال بتسليم:

ـ معك الحق. لا يتوغّل الإنسان في الصحراء ويعيش في البرية بدون سبب.

تحرّك الزعيم نحو الجبل. تحرّكت وراءه الجماعة. بجواره مشى أناي وتبعه

الإمام والبكاي. اخترقوا طـرف السوق الشـمالي فاختلط زعيق الصبيـان وثغاء الماعز بصياح الباعة وهم يروِّجون لبضائعهم.

في الهواء احتدَّت الروائح: التيوس والزنوج والبهارات والشـاي الأخضر وبول الإبل. في العراء الممتدِّ خلف السوق طارد عدد من الرعاة الزنوج جِمالاً مقيدة السيقان وهشُّوها إلى المراعي في أودية الطلح. في الهواء لوَّحوا بالهراوات والسياط.

اقتعد الزعيم الأرض عند حذاء الجبل المغدور. تحلَّقوا حوله وتربَّعوا على الحجارة. جلس البكاي في مواجهة الزعيم. فتح الحوار من أحسن باب:

ـ لم تر الصحراء قِبْلي أعند من قِبْلي هذا العام. ألا تتوقعوا له نهاية؟

قال الزعيم وهو يعبث بعود من الحطب:

ـ الحق إننا كنا ننتظر أن تأتـونا أنتم، أصحـاب القوافـل، بالتعـاويذ من فقهاء الواحات. أم أنهم هناك شطّار في منع الماء من السماء فقط؟

ضحك كبير التجار. داعب لحيته قبل أن يقول:

ـ صدقت يا شيخنا. لم أر أشطن منهم في تحرير المكـاتيب والتعاويـذ ضد المطر. حتى أهل الشمال اشتكوا من فعالية تعاويذهم الشيطانية بعـد أن عانت الحمادة من الجفاف في العامين الماضيين.

التفت الزعيم إلى أناي:

ـ عن السحر الذي يقيّد القبلي إسأل أهل آير. كل سحر الصحراء جاء من هناك.

ابتسم أناي قبل أن يجيب على الدعابة:

ـ سحرنا قادر على تقييـد أعتى الجان ولكن القِبْـليّ هو العفـريت الوحيـد الذي غَلَبَنا.

القبلي وجد مَنْ يدافع عنه على لسان الإمام:

ـ من حق القِبْلي أن يأخذ حقه أيضاً. ولا أحد ينكر فوائده.

جاء أحد الخدم الزنوج بطبق من النحاس صُفَّت عليه كؤوس الشاي الأخضر المتوَّجة بطرابيش الرغوة. طاف عليهم بالطبق فواصل الإمام بعد أن رشف طربوش الرغوة:

ـ يطهِّر الأرض من الأمراض ويلقِّح نخيل الواحات ونبات الحمادة.

قال الزعيم وهو يمسك كوب الشاي بيد ويكشف عن فمه بيده الأخرى استعداداً كي يتناول رشفة:

ـ وله سيئة واحدة تفوق كل حسناته.

صمت فشدّ إنتباه الجماعة. أكمل بعد أن رشف:

ـ يغمر مصادر المياه ويطمر الآبار.

ولكن الإمام لم يستسلم في مرافعته:

ـ يُقال أيضاً أنه يحفر كل ما يُطْمَر.

قال الزعيم ببرود مستمراً في هجومه:

ـ يفعل ذلك حقاً ولكن بعد ألف عام. بعد هلاك الأجيال. كما حدث مع بئرنا في الماضي.

عمَّ صمت طويل. يخرقه طنين الذباب وهرج السوق البعيد.

واصل الشيخ:

ـ إذا لم نجد وسيلة لحماية البئر فلن أضمن استمرار واو على وجه الأرض.

ثم ضاحكاً:

ـ ربما تعمَّد أهل الخفاء تحميل القبلي مهمة استرداد مدينتهم.

أخفى أناي قلقه. قال:

ـ وماذا يرى الزعيم كي نحمي مدينتنا من الزوال؟

ـ جوابي جاهز. أن توقفوا إرواء الإبل على البئر. وتبعثوا بقافلة إلى وادي الآجـال لتساعـدوا السهل وتعـوِّضوا النقص في المـاء. كما يتـوجَّب أن تبعثوا بالرجـال للمساعـدة في إقامـة التحصينات وإزالـة تلال الرمل بدل أن تبقيهم يتطاولون في البنيان.

رشف أناي كوبه حتى النهاية وأعلن:

ـ لا أرى في اقتراح الشيخ مستحيل. كل الـترتيبات الـوقائيـة ستُتَخذ في الحال.

رفع الزعيم رأسه إلى السماء كأنه يقرأ أخبار الريح وقال بلغة غامضة:

ـ العبد يحاول والله يفعل. القبلي أحياناً رسول وأحياناً أخرى لعنة.

ثم وهو ينهض واقفاً:

ـ العرَّافة رفضت أن تكشف عن سرِّه هذا العام. جرِّبوا النذور.

(٦)

تساقط الغبار قبل أن تتنفَّس الريح.

تفرَّقت الجماعة وانفضّ السوق ومشى أنـاي ليشيِّع الـزعيم. سار بحـذاء الجبل شمالاً وعبرا سلسلة الروابي المـطلَّة على البئـر. هناك تـزاحمت القوافـل والنسـاء والأطفال. يقـاومون الـريح ويحـاولون أن يفـوزوا بنصيبهم من الماء. فـوق الرابيـة تعاون الـرجال في إزالـة التلة الرمليـة. يملأون الغـرائر وسـلال السعف والأكياس بالرمل ويغيبون خلف الرابية إلى الناحية الأخرى.

راقب الزعيم عملهم، عبر العاصفة، فلم يعرف عمّا إذا كانوا هم الذين يثـيرون الزوبعـة والغبار أم أن القبـلي هو الـذي يشاكسهم بعـد أن استـأنف رحلته.

كـان يهبُّ في دفعات جنـونية فيحـلّ عقـد العـمامـات وينفـخ في الثيـاب الفضفاضة ويملأها بالهواء كالقرب الملأى بالماء ليسهل عليه اختطاف ضحـاياه ودفعهم عبر العراء السمح .

قاوم الزعيم الغارات كما قاوم أناي .

رفع الزعيم صوته كي يكتم عواء الريح :

ـ انفردّتُ بك كي نتحدث في مشروعنا .

أمسك عمامته بكلتا يديه وواصل بنفس الصوت العالي :

ـ سنقـرأ الفاتحـة بمجرد أن يسمـح القبلي . أنت تـرى أن في إصراره هذا العام سرّ .

هبَّت مـوجـة جـديـدة فـدفعتهـا إلى الأمـام . صفَّقت أطـراف الثيــاب الفضفاضة فقاوما الهجوم بظهريهما . صاح أناي :

ـ وإذا لم تتوقف الريح ؟ أنت تعرف أن القبلي قدر الصحراء .

ـ صحيـح . ولكن في إصراره هذا العـام سرّ . الطبيعـة في الصحراء هي التي ترسم حسابات الناس وليس العكس . وأوخا مكلف بحماية البئر من أول يوم .

صمت حتى هدأت الموجة فأضاف :

ـ رأيت في عينيه اليوم حـزناً لـم أره في عينيـه أيام الكـرب سنوات حكم شيـخ الطريقـة . كما لم أره في عينيـه عنـدمـا مـات أبـوه في الغـزوات . حـزن اليأس .

ـ سأحاول أن أفعـل شيئاً للمسـاعدة . ولكن يُقـال إنه كـان من الأنصار واشترك مع شيخ الطريقة في غزو النهر .

ـ مَنْ مِنْ الشباب لم يشترك في غزوات شيخ الـطريقة إلى النهـر؟ ألم يكن

الفاروق عمر نفسه من أشرس زعماء الجاهلية قبل أن يعزَّ به الله الإسلام؟

ـ ولكني لا أرى سبباً للانتظار. القبلي قدر الصحراء منذ الأزل.

ـ وقدرنا أيضاً. الصحراء هي التي ترسم مصيرنا. إذا لم يمهلنا القبلي فإن في ذلك إرادة الصحراء.

تلاحقت أنفاسه وهو يجاهد الريح. تساءل:

ـ يُقال إن الأميرة تحضِّر للميعاد. كل الشباب ينتظرون ميعاد واو. الأغلبية رفضت الخروج لتفقد الإبل في الصحاري وآثروا الإنتظار، فمتى الميعاد؟

ـ قريباً. لن يطول الانتظار. لن نسمح بأن تفسد نوايا القبلي المناسبة.

إمتلأ فم الزعيم بالتراب فسكت.

(٧)

في السهل حلَّ وافد جديد.

جاء مع حلول المساء. يجرُّ ناقة عجفاء. تنفخ الريح جلبابه الأزرق الفضفاض كأنه يحاول أن ينتزعه من الأرض ويطير به في الهواء، فيتشبث المهاجر باللجام ويستعين بالناقة البائسة. نحيل، محروق، خرَّب الجدري بشرته وحفر يديه ووجهه.

اتجه إلى حذاء «ايدينان» المسكون. قيّد الناقة في السهل وصعد ليقيم في كهف بالجبل مما أثار فضول الأهالي. بعث له الزعيم برسول يحذِّره من الجنِّ فسخر منه وقال إنه من الباحثين عن الكنوز. وعندما رأى الدهشة في وجه الرسول طلب منه أن يبلغ الشيخ أن معشر الباحثين عن الذهب وأهل الخفاء ينحدرون من أصل واحد. وادّعى في وقاحة أنهم رضعوا الحليب من جنيّة واحدة وأعقب ذلك بضحكة طويلة.

وبرغم أن السهل تعوَّد أن يستقبل الوافدين والمهاجرين والعابرين كل يوم إلاَّ أن جسارة هذا الضيف هي التي أثارت الأهالي. كما أدهشهم أن يوجد في الصحراء مَنْ يجهل قصة الجنِّ واختيارهم السكنى الأبدية في ايدينان. ثم رأوه في الأيام التالية ينزل السفح ويفحص الشقوق والكهوف والقبور القديمة ساعياً كي يشارك الجنّ ثروتهم.

ولم يكتِف بالشهوة الآثمة ويسعى وراء المعدن المشؤوم ولكنه فاجأ الأهالي بعد أيام أُخر بالترويج للريح وإحصاء مآثر القبلي في الصحراء. ذهب إلى الجمهرة التي تقاوم وتحمي البئر وقال لـ «أوخا»: الوقوف في وجه القبلي وقوف في وجه القدر. فما هو إلاَّ رسول جاء بالبلاغ المبين. يطهِّر الصحراء من الأوبئة. يلقِّح النخيل والنبات ويحفر لكم الآبار المغمورة» فاعترض أوخا: «ولكنه لا يحفر هذه المرة وإنما يطمر». أجاب الزائر المجدور: «إذا طَمَر فتلك إرَادَةُ القَدَرِ. لنْ يُفْلِحَ مَنْ حَارَبَ القَدَر». سكت أوخا فقال الضيف: «هل نسيتم أن القبلي هو الذي كشف لكم عن البئر؟ كان مغموراً بالرمال منذ عهد العماليق. منذ آلاف السنين».

عجز في إقناع أوخا فأحكم قناعه الممزَّق الهزيل حول وجهه المجدور وردّد وهو يعود إلى كهفه في الجبل: «للطمر وقت وللحفر وقت، كما للموت وقت وللميلاد وقت. ويلٌ للمعاندين».

هذا ما رواه الدرويش وهو يطوف بين البيوت في المنتجع.

(٨)

جاء بعض الأتباع ببرادع الحمير أيضاً.

ملأوها بالرملة وثبَّتوها على ظهور المهاري بدل جرِّها بالحبال عبر المنحدر كما يفعل الزنوج مع الغرائر والأكياس. وقف «آخماد» فوق التلّة يشدُّ خصره الضامر بطوق القماش ويداعب الأتباع الأشقياء. تحدَّث عن النبل والعار فوجَّه كلامه لـ «أوخا»:

ـ إذا رأيت شيئاً مشيناً في الصحراء فابحثْ بين الصخور عن الأتباع. هم الرؤوس المدبِّرة لكل ما من شأنه أن يسفِّه التقاليد.

استجاب بعضهم للدعابة فضحكوا ولكنهم لم يتوقفوا عن تعبئة البرادع بالرمل. ابتسم أوخا واستمرَّ آخماد:

ـ برادع الحمير مثبتة على ظهور المهاري! سأخبر الدرويش لينشر الخبر وأسلِّط عليكم الشاعرة.

استمرَّ أوخا يبتسم وهو يحاول أن يتحاشى سياط الحصى التي يسلِّطها الريح على الوجوه كوابل الرصاص. ارتفعت ضحكات الأتباع.

تدخل أوخا:

ـ هذا من دواعي شرفهم. يروق لهم أن يكونوا موضوع هجاء الشاعرات.

ضجت التلة بالضحك. اقترب منها أحد الأتباع. طويل القامة. نحيل البنية. يتخذ من قطعة شاش خضراء لثاماً بائساً. بصق التبغ الممضوغ وقال مازحاً:

ـ حالنا ليس أسوأ من نبيل يستقبل القبلي بأفخر اللباس ويحاربه بالسيف كأنه يغزو قبائل الأدغال.

فازت الدعابة بالإعجاب فضحكوا جميعاً. التفت آخماد نحو أوخا وعلّق:

ـ الحق أنه على حق. أنا لن أستطيع أن أدافع عنك.

كان أوخا ما زال مصرّاً على مقاومة القبلي بأدوات الحرب. يرتدي أفخر الثياب. القميص الأبيض الفضفاض تعلوه «كورا» الزرقاء. عمامة مهيبة بيضاء تلتف على الرأس كثعابين الأدغال تعلوها «تجولموست» زرقاء. في قمة

العمامة، من الأمام، ثُبِتَت تعويذة مثنية في قطعة جلد. على الصدر استلقت قلادة جليلة من التمائم. أمّا السيف الممد في غمد منقوش بأنامل الحسان فقد تعلّق بالخصر وتدلّى حتى كاد أن يلامس الأرض.

قال وهو يسحب اللثام على عينيه ويداري الحياء:

ـ الغزو هو الغزو. ما الفرق بين القبلي وقبائل النهر؟

ولكن التابع الخبيث رمى الحجر إلى أبعد:

ـ مَنْ قال إنه ارتدى العدّة واللباس لردّ الغزوة؟ الصبايا يئسن منذ أُعْلِن الخبر، والأميرة لن تتنازل عنك حتى لو ارتديت أسمال الدراويش. لم يبق سبب للكبرياء!

هبّت موجة جديدة من الغبار فاحتمى بها أوخا ليخفي الخجل. ضحك آخماد في العاصفة حتى غمر التراب فمه. آلمته الأسنان واستولت على بدنه قشعريرة. بصق خلفه وعلّق يؤيد التابع المرح:

ـ لم يبق سبب للكبرياء. والشاعرة نظمت قصيدة أيضاً.

صاح بصوت عالٍ حتى يخنق عواء الريح.

ـ لم أسمع بذلك. هل هي هجاء؟

ضحك آخماد محاولاً أن يصطاد نظرة أوخا في الغبار:

ـ قالت ان الصيادين عجزوا وتركوا الغزال يدخل الرملة. ها ـ ها ـ ها.. من أجمل القصائد!

احتجّ أوخا:

ـ هذه من تشنيعات الدرويش.

ـ نعم الدرويش يحفظها عن ظهر قلب. ها ـ ها. من أجمل قصائدها.

عوى الريح في موجة جديدة فارتفعت أصوات الجمال بالشكوى.

توسَّل أوخا:

ـ أسمعني بعض أبياتها.

ـ ها ـ ها. . أنا لا أقول الشعر ولا أحفظ الأشعار.

الصيادون عجزوا فأفلت الغزال ودخل صحراء الرملة. ايماءة موفقة. الهجاء موجه ضدّ الصبايا. هيء ـ هيء...

وردت كوكبة من النساء يتلحَّفن بالأردية السوداء يرافقهن صبيان حاسري الرؤوس. علا الغبار وجوههم وشعورهم التي تمتد فوق رؤوسهم كأعراف الديكة. اصطحب آخماد فريقاً من الزنوج وهَرَعَ لمساعدتهن لإقتناء الماء من البئر.

ما زال يجاهد كي يكتم الضحك فصاح أوخا في أثره:

ـ نبلِي هو الذي أنقذك من مخالب بني آوى، ولولا الكبرياء لكنت بين الأموات.

حجبته الزوبعة في المنحدر وتلقّى أوخا لكمات التراب في الظهر، تلتها كومة من أشواك البرية اليابسة الطائرة في الفضاء. استدار يساراً فتحرَّرت الكومة وواصلت رحيلها في المدى.

صاح أوخا في عتمة الغبار:

ـ هل نسيت؟

ولكن السؤال أيضاً رحل في المدى.

٨ ـ بنو اوى

﴿وجعلنا من الماء كل شي حي﴾.

القرآن الكريم

(١)

العطش قدر آخماد منذ الميلاد. وتروي المربية الزنجية أنه رفض أن يرضع حليب أمّه عند الولادة وظلّ يلاكم الهواء ويرفس الأرض والفراغ وهو يصرخ حتى ظنّت النسوة الحكيمات أنه سيموت من البكاء، وككل مخلوقات الدينونة التي تُبعَث إلى الحياة مديونة للقدر بِنَذْرٍ أو وعد فإن خلاصها من البلوى لا يأتي إلاّ بطريق الصدفة. فتولّت الزنجية تدليك جسده الرقيق بمراهم الأعشاب البرية وقفزت القابلة الحكيمة إلى النار ورشّت الجمر بالبخور والشيح لطرد الجان، ولتفقأ عيون الحسّاد. علا الدخان في زاوية الخباء وكاد الوليد الشقي أن يختنق ولكنه رفض أن يتوقف عن الاحتجاج واستمرّ يعبّر بالصراخ الفاجع عن فزعه من الحياة.

فجاء دور الصدفة.

قامت الزنجية برش وجهه الأزرق بالماء كي تطفىء النار فسقطت قطرات على شفتيه. توقّف عن البكاء فجأة وشرع يلتقط قطرات الماء ويلعقها في شراهة جرو. وضعت على النار الوعاء لتسخين الماء ثم شرعت تسقيه الجرعات بالملعقة. وعندما فاقت أمه من غيبوبة الوضع وعرفت القصة من العجائز دُهِشَت ثم حزنت. لأن الشقاء سيُكتَب إلى الأبد على أولئك الذين يولدون وفي قلوبهم تقيم الصحراء.

ولم يصـدِّق «أوخا» هـذه الخرافـة إلاَّ عندمـا رافقه للمـرة الأولى في غزوة لقمع قبائل البحيرة.

(٢)

حول بحيرة «كوري» استطاع الـزنوج أن يـوحِّدوا قبـائلهم ويبنوا أقـوى دولة على تخـوم الصحراء. تـولَّت الإغارة عـلى جيرانها في أدغـال الجنوب كـما تجرَّأت لتأديب قبائل الملثمين في الشمال والغرب.

وورد في الأساطير القديمة أنهم أشرّ من الجن وينافسون وحـوش بني آوى في الغدر. ما أن يبلغ الولد العاشرة حتى يقيموا له طقوس الـرجولـة. ينفصل بعدها عن أمه وأبيه. يتعلَّم الشك ويتوقَّع الخيانـة من أقرب الأقـرباء. يهجـر البيت ويـذهـب إلى السهول والغـابات لتيـدرَّب على النـوم واقفـاً. يتـدرَّج في التمارين من الاستناد على سيقان الأشجار أو الاعتماد عـلى صخور الـبر إلى أن يقف على قدميه ويتمكَّن من أخذ كفايته من النوم دون مساعدة.

ويعتقـدون أن الإنسـان لن ينجـو من الشرّ والغـدر إذا لم يتمتـع بيقـظة يستغني فيها عن الرقاد والاسترخاء. ويقول أهل الصحراء أن ابن آوى يتحفَّز إذا التقى بآخر حتى ولو كان أخاً أو أباً ويستعـدُّ للعراك ولا يـوليه ظهـره مهما اضـطرته الأسبـاب. وهذه الـطبيعة الشكَّـاكة التي تـرى عدواً في كـل مخلوق شجَّعت أهل الصحراء فسمَّوهم بـ «بني آوى»، خاصـة بعد انقضـاضهم على قبائل الصحراء وعدوانهم الأخير على «آزجر».

(٣)

قبلهم لم تتجـاسر قبيلة في القـارة وتخـرج لتـأديب الفـرسـان الـزرق في صحرائهم. وتتناقـل الأجيال أن الاسـترخاء والاطمئنـان إلى امتلاك صحـراء أبدية لم يعرفوا لحدودها بداية ولا نهايـة هو مـا قهرهم ومكَّن منهم «بنـو آوى» الأشرار. فمنـذ آلاف السنين اعتنقـوا خطة واحـدة لم تتغـيَّر تقضي بـالإغـارة

ومباغتة الأعداء، فإنّ أشار رجال الاستطلاع بجلال قوات العدو قلبـوا الخطة وذابوا في الفلوات وقد تحوّلوا إلى سراب.

ولم يغفلوا يـوماً عن السرّ الـذي تعلّمـوه من الصحـراء نفسهـا مشروطـاً بالاستنفار الأبدي. ولكن الزمـان استدرجهم إلى الواحات، فـزرعوا الأرض وتـطاولـوا لتلقيـح النخيـل، أكلوا الخراف حتى شبعـوا فـاطمـأنـوا إلى المـاء واسترخوا في الأحراش.

خانوا العهد ففسخ لهم المجهول تعويذتهم القديمة.

(٤)

بدأ الشياطين هجومهم من الجنوب الشرقي. احتلّوا مرزق وزويلة ونزلوا إلى وادي الآجال. قتلوا الرجال والأطفال، اغتصبوا النساء وحرقوا الأكـواخ، نهبوا الممتلكات وأضرموا النيران في أشجـار النخيل. ثم تـدفقوا في الصحـراء كالوباء.

نزلوا «آدرار» وذهبوا حتى تاسيلي وغدامس. استولوا عـلى كل «آزجـر»، ولم يوقف تقدمهم إلاّ المهاجرين الذين توغّلوا في الصحراء وفرّوا إلى تامنغست فتحالفوا هناك مع قبائل آهجّار وعادوا بالغزو المعاكس.

منـذ ذلك اليـوم سـطّر الـدم مـع بني آوى العـداوة الأبـديـة، فحـرّمت الأمهات على الأولاد ذكـرهم في الصباح وضمّهم أهـل الصحراء إلى الأعـداء الخالدين: الذئاب والأفاعي وريح القبلي.

(٥)

. . . وبـرغم تـراجعهم إلى البحـيرة إلا أن غـاراتهم عـلى الصحـراء استمرت. إرتكبوا المذابح. قطعوا طرق التجارة. نهبوا القوافل. استولوا على إبـل الرعـاة ونافسـوا أهل «آزجـر» في اقتسام غنـائم التجار وجبـايـة الجـزيـة والأتاوات والعطايا من قوافل الشمال مقابل السلامة والمرور عبر الصحراء دون

اعـتراض. ولكنهم ارتكبـوا إثـماً خـطيــراً لم يغفـره القــدر لمخلوق في القـارة الصحراوية:

تسميم مياه الآبار!

ماتت المواشي في التخوم الرملية الجنوبية ولقي الرعـاة مصرعهم في أعداد جماعية. انتشرت الفاجعة فوصلت إلى الشمال البعيد.

توقّفت حركة القوافل وألغت رحلاتها عبر مـرزق وزويلة. وبقي الطريق البعيـد الذي يبـدأ من طـرابلس وغـدامس ويمـر عـبر آزجـر وآيـر وينتهي في «كانو».

وشاء القدر أن يعدَّ لهم القصاص على يدي شيخ الطريقة القادرية.

(٦)

وقع أوخا، مـع مجموعتـه، في كمين واضـطر للانسحـاب نحو الجبـل في سحابة من النبال المسمومة. ولكن الوصـول إلى الجبل لم يكن سهـلاً. عليهم أن يعبروا سهلاً ورابيتين وثلاثة وديان كي يبلغوا السفح.

استوى الجلّاد الأبدي على عرشه في قلب السماوات. نزفوا العرق وتمكَّن منهم العطش. فردد آخماد مراراً: «لم أدرِ أنهم جبنـاء. لا يتسلَّح بالسهـام إلاَّ الجبنـاء!». ولم يتوقَّف عن تـرديد التميمـة إلاَّ عندمـا نهره أخنوخن بخشـونـة وطلب منـه أن يسكت لأنه أفسـد عليه القـافية في أبيـات قصيدتـه العـاطفيـة الجديدة.

أخنوخن أشهر شعراء القبيلة. يخاف هجاءه الرجـال وتسعى لكسب ودِّه النساء. ولكنه غريب الأطوار ككل الشعراء، ولا يـروق له أن يؤلِّف أشعـاره العاطفية إلاَّ عندما تشتعـل المعركـة ويجد نفســه تحت ظلال السيـوف. وتشهد الشـاعرات المـوهوبـات لأشعاره التي ألَّفهـا في ظل الحـرب بالعبقـرية ولكنهن رفضن الاعتراف بقصائده الأخرى التي قـالها وهـو ينعم بالسلم في الخلوات،

ولم تخجل بعض المتطرفات من القول بأنه لا يليق بشاعر في موهبته أن يقرض الشعر خارج ساحة الحرب. والمدهش أنه أيّد هذا الرأي دائماً حتى أنه لم ينظم بيتاً واحداً عن الحرب نفسها. وعندما سُئل عن السبب ردَّ بجوابه الشهير: «الحرب خُلِقَت كي ينظم فيها الشعراء شعراً عن العذارى». والفضل في شعبيته وفوزه بعشق العذارى يرجع إلى هذا التعليق الجسور.

أثناء الانسحاب ركض آخماد بالمهري بينهما واشتكى من العطش في اللحظة التي توقَّف فيها عن الشكوى من نبال بني آوى. هذه الشكوى اقلقت أوخا، الذي يعرف صديق الطفولة، وأزعجته أكثر مما أزعج نقده للعدو الغادر قريحة أخنوخن الشعرية!

صعدوا أول رابية. على يمينهم إمتدت أودية جرداء مغطاة بطبقة من الحجارة السوداء التي حرقتها الشمس الخالدة. في قلب الوديان تناثر الطلح الصبور قاهراً الموت ليحتفظ بفروته خضراء على الرأس المرفوع. تحت هذه الأشجار أدرك العدو بعض الرفاق. وسقطوا بالسهام المسمومة. استمرَّ الانسحاب.

خلفهم تدافع بنو آوى. بعضهم يركب النوق. والبعض الآخر نافس الرفاق في العدو. بل إن المشاة تفوَّقوا على الفرسان.

ولم يفت أوخا، وهو يعدّ خطة المعركة، أن يستعيد في رأسه كل الأساطير عن بني آوى. وتذكَّر قصص العجائز التي تؤكد أنهم أسرع مخلوقات الأرض عدواً. ويُقال إنهم الوحيدون الذين يصطادون الغزلان دون حاجة إلى استعمال السلاح. شيخ الطريقة أيضاً حذَّره من تفوقهم في العدد عندما نصّبه على رأس الفرقة وكلَّفه بمهاجمة الجناح الأيسر لتجمعات العدو.

أمامهم على الربوة أُصيب جمل أحد الأتباع بسهم في الفخذ فتعثَّر المهري وارتطم بالصخرة. إنهار المهري وركع على ساقيه الأماميتين. رغى بوحشية

فتناثرت من فمه قطع كبيرة من الزبد الناصع. قفز الفارس إلى الأرض وركض ينزل المنحدر.

في هذه اللحظة فوجىء أوخا بآخماد يقفز من جمله ويتقدّمه راكضاً نحو المهري المنهار. ظنَّ أول الأمر أن آخماد ينوي مساعدة الحيوان البائس وانقاذه من يد العدو. ولكنه انقضَّ على القربة المُعَلَّقة في السرج وشرع يرضع فمها كالجدي. ولم ينتبه للسهم المسموم الذي سدّده أحد أبناء آوى للقربة المعلقة فنزف الماء من بطنها. وجد أوخا نفسه يقفز إلى الأرض ويبقر القربة بضربة السيف. تدفَّق الماء وغَمَرَ وجه آخماد وملابسه فيما ظلَّ يقاوم أوخا ويحاول أن يلتقط القطرات دون أن ينتبه إلى تسرب السم إلى الماء. أدركهما ابن آوى شرس، ناتىء الأسنان، أحمر العينين، وركع على ركبة واحدة وسدّد السهم. لم يعرف أحد يومها كيف استطاع أخنوخن أن يطير بجمله من مكانه في الجناح الأيمن ليدرك الخصم ويشطره نصفين بضربة سيف. صرخ مبتهجاً ثم وبَّخ آخماد: «تصرُّ اليوم أن تحرمني من نظم أجمل بيتين». ولكن آخماد كان لحظتها يلتحم مع أوخا حول القربة. صاح أوخا: «ساعدني. إنه لا يعرف أن الماء مسموم».

تحوَّل العراك إلى مصارعة. ولم يتوقَّف آخماد إلاَّ بعد أن تدخَّل أخنوخن أيضاً وتعاونا لحمله على المهري بالقوة قبل أن تدركهم أفواج المهاجمين.

وصلوا إلى الجبل.

انضمّ إليهم بقية الرفاق فحاصرهم بنو آوى في واد يشقُّ الجبل المهيب إلى نصفين. في الحاشية وجدوا بئراً قديماً ولكن أوخا حبس آخماد في الكهف خوفاً من أن يشرب ماء البئر. استمرّ يردد طوال الوقت: «عار. عار والله» في حين حزن أخنوخن وأخبر الرفاق أنّ آخماد أفسد القصيدة ولن يغفر له.

رابط الأعداء فوق المضيق فتحصَّنوا في الثغر بالكهوف العتماء. حاولوا مداهمتهم من الشمال حيث ينحدر المضيق ويتحوّل إلى شعب هزيلة تفضي إلى

الوديان والسهول فتولّى أخنوخن الدفاع وردّهم على أعقابهم. وكان سعيدا لأنه استطاع أن يستعمل سيفه للمرة الثانية منذ بداية الحرب. إذْ عليهم أن يدفعوا ثمن خطأ ارتكبه رجال الاستطلاع. غابوا أياماً وعادوا إلى المعسكر وأخبروا الشيخ أن العدو قسَّم جيشه إلى ثلاث فرق: رماة السهام، رماة الرماح، وفرقة مسلحة بالسيوف. وحددوا مواقع كل فرقة في الصحراء. قرأ شيخ الطريقة أوراده في الليل واستدعى أوخا في الصباح ونصَّبه على رأس الفرقة وأمره أن يتوجَّه شرقاً لكسر جناح العدو الأيمن والقضاء على فرقة الرماح بالسيوف. وعندما انقضوا على معسكرهم قبل الشروق فوجئوا ببني اوى الدهاة متأهبون ومتحفِّزون وينتظرون هجومهم. وقعوا في الكمين وأمطروهم بالنبال المسمومة. سقط عدد كبير منهم وفَّر الكثيرون غرباً للانضمام إلى جناح الشيخ الأوسط.

أوخا ورفاقه طلبوا النجاة في الجبل.

ولكن محاربة رجال السهام بالسيوف مستحيلة.

أوخا أيقن أن جنّ البحيرة تمكَّنوا من إخضاع الصحراء بفضل براعتهم في استعمال السهام، ولولا تروس الجلد لأبادوهم في ذلك المضيق.

ولكن النجاة لم تُكتَب لأخنوخن نفسه، لم يُكْتَب له أن يتمَّ أجمل قصائده.

(٧)

كلما اشتدَّ جنون آخماد وصعَّد من العدوان لمقاومة أوخا كي يشرب من البئر المشبوه صعَّد شياطين بني آوى هجومهم من المرتفعات يصرخون كالوحوش قبل أن يبدأوا الهجوم بالنبال المخيفة. ولولا هذه العادة لتمكَّنوا منهم. في أسفل المضيق احتمى ثلاثة رفاق من قبائل الأتباع بالصخور وانهمكوا يخترعون سلاحاً مضاداً للسهام المسمومة. صنعوا مقاليع وردّوا

عليهم بـالحجارة. ولكن أحـدهم سقط وهو يتهيـأ لتسديـد قذيفـة من ثـلاثـة أحجار في مرمى العدو.

أخنوخن تولّى حماية لسان المضيق الأسفل فتمكّن من استعمال سيفه أكـثر من مرة وهو يصدّ حملاتهم مستعيناً بالترس لإتقاء السهام.

اقترح أوخا أن ينسحبوا إلى أعلى عـبر الفجّ لـلابتعاد عن البئـر المسموم. قاوم آخماد فصرعه وقيَّد يديه بمعاونة أحد الأتباع. أمّـا أخنوخن فكـان منشغلاً بمشاكسة بني آوى كي يتمكَّن من قفل القصيدة بالقافيـة التي طيَّرهـا آخماد من رأسه عند السفح. كان يكمن وراء الصخور مترنِّمـاً باللحن الشعـري ثم يقفز كـالعفريت ليـطارد ابن آوى ملحاح يقف في رأس الجـرف، يـدحـرج عليهم الحجارة ليسحقهم بالصخور. يلوِّح بحربة في الهواء ويطقطق بـأسنانـه مهدداً فيجيبه أخنوخن بالسخرية والضحك والغناء.

ثم توقفوا عن مهاجمتهم. اختفوا.

تساءل أحد الأتباع:

ـ هل انسحبوا؟

قال أخنوخن:

ـ لن ينسحبوا قبل أن يعدّوا خطة للقضاء علينا.

أيَّده أوخا محترساً من أن يستغفله آخماد العطشان، الهائج:

ـ لماذا يتعبون أنفسهم؟ إنهم مقتنعون أننا سنموت في كل الأحوال. إنْ لم يكن بالعطش فبالماء المسموم.

قرأ أخنوخن أبيات الاستهلال في القصيدة ثم غنّاها بصوت عال ولكنه لم يستعد الأبيات الضائعة. عاد يصرّ أنها أنفس الأبيات.

في تلك اللحظة فكَّ أحـد الأتباع رمـوز «التيفيناغ» المحفـورة على سقف

الكهف وأزاح لوحاً من الحجارة في الزاوية المظلمة فرأى الضوء في نهاية النفق الطويل. صاح بلا وعي:

- النجاة! النجاة!

ردّدت جدران الكهف النداء وقفز أوخا ليغلق فمه بيده. ولكن النجاة لم تُكْتَب لأخنوخن.

أُصيب بسهم مسموم في الصدر في تلك اللحظة.

(٨)

تعاون التابعان لحمله وتفرَّغ أوخا لدفع آخماد لعبور السرداب المعتم الطويل. وعندما وصلوا إلى الفوهة الأخرى بدأ أخنوخن يحتضر. بعث أوخا بأحد الأتباع ليجيء بالنجدة من المعسكر وانحنى فوق السهم المشؤوم. عود صلب مقتطع من أشجار الأدغال طوله أقل من ذراع. مصقول بعناية وموسوم برموز سحرية. غاب طرفه المسموم وانغرس في جسد أخنوخن فلم يعرف ما إذا كان الطرف الآخر مسلحاً بحربة نحاس أم أن السم مطلي على الطرف المدبب من العود.

كشف عن الصدر فوجد أن المكان حيث استقرَّت الإصابة انتفخ. ثم استشرى السم وانتفخ الجسم كله. ورأى كيف تنتشر القروح.

لأول مرة يشاهد إنساناً يموت بالسم.

إرتبك وخَذَلَهُ العطش. تحت الصخرة ارتفع أنين آخماد وبدا كأنه يحتضر أيضاً. فوق رأسه وقف التابع الثاني يلوك قطعة من التبغ كي يستحضر في فمه اللعاب.

بدأ أخنوخن يهذي. يغني أحياناً ويتمتم أحياناً أخرى بكلام مبهم. في النهاية قال بلغة واضحة أنه لن يغفر.

مات قبل أن يقفل باب آخر قصيدة.

(٩)

جاءت النجدة لتأديب الهمج.

عادوا بالرفاق إلى المعسكر ولكن أوخا أصرَّ أن يرافقهم في غزوة الانتقام. أقنع قائد الحملة أن يشاركه في رسم الخطة. أبقوا حراساً على فوَّهة النفق وداهموا الزنوج من النواحي الثلاث. زجوا بهم في نفس الفخ.

استمرَّ الحصار عدة أيام. كان يسلِّطون عليهم رماة النبال كلما حاولوا أن يفكّوا الحصار فيضطروا للاختباء في الكهوف. حاولوا أن يعبروا السرداب إلى الضفة الأخرى فردَّهم العسس بقساوة وأصيب المارد ذو الأسنان الناتئة.

ثم...

شربوا من الماء المسموم.

(١٠)

جاء آخماد من المعسكر وشاهد مع أوخا جثثهم القبيحة التي شوَّهها السم كما شوَّه جسد أخنوخن.

مكتوب في «آنهي» الضائع أن الماء هو الشيء الوحيد، في الصحراء، الذي يستطيع أن يفعل هذا. مَنْ تجاسر وسمّمه أو أفسده إنقلب عليه الشرّ ووجد نفسه مضطراً أن ينهل من نفس النبع.

٩ ـ الميعاد

«هذا حدث في كل الديانات، مؤسسوها قادوا الإنسان إلى الصحراء.. بعيداً عن مصر. ولكن جاء قادة آخرون وعادوا فجرّوه إلى الوراء، نحو مصر جديدة، برغم أنهم أطلقوا على الأخيرة أرض الميعاد».

أريك فروم ـ «التحليل النفسي والدّين»

(١)

تنازلت العرافة وتعاونت مع فقهاء السهل لربط القبلي. ولم يطمع أحد في أن تتحلّى باللين وتتسامح مع خصومها القدامى لو لم تتدخل الأميرة بنفسها وتمارس تأثيرها على العجوز المكابرة.

وقبل إنجاز هذه المصالحة لم يكن أحد من أهالي السهل ليقتنع بأن هذه المهاجرة المجهولة التي تتمتع بالمال والجمال يمكن أن تتمتع بالعقل أيضاً. واعتمدوا في شكّهم على مأثورة منسوبة إلى «آنهي» تقول إن العقل والجمال لا يجتمعان في امرأة، ولكن «تينيري» احتكمت إلى نفس المنهل في وساطتها لمصالحة الفريقين فقالت إن دستور الصحراء الضائع هو الذي حثّ الفرقاء على الاتحاد وأوجب زوال الخصومة عندما يهددهما عدو واحد.

بدأ أهل السهل الطقوس وسفحوا دم القرابين قبل أن ينتصف الشهر بثلاثة أيام. جاءت العرّافة واستولت على عظمة الكتف في كل حيوان ذبيح لترى فيها خطط العدوّ. ثم أخذتها إلى بيتها ودفنتها تحت الركيزة بعد أن وشمتها بالتمائم الخفيّة. جاء دور الفقهاء فاستعانوا بالقرآن وسطّروا الأحجبة والتعاويذ ودسّوها في جلود الغزلان.

الإمام أقام عموداً من السدر أمام خيمته وعلّق فيه التعويذة.

هدأ الريح، فتهيأ الأهالي لبدء مراسم الميعاد.

(٢)

السهل مسَّه السحر وتغيَّرت طبيعته في شهور.

عند سفوح القرين المغرور بعث مردة آير مدينة من الحجر ورأتِ الريح أن تنافسهم فنفَّذت خطتها في تعديل وضع الصحراء. مسحت ألسنة رملية شرعت في بنائها فوق العراء الغربي، في غاراتها الماضية، وقامت بنقلها في هجومها الأخير إلى مواقع جديدة. رفعت مستوى تلتها على مشارف البئر، رغم مقاومة أوخا المستمرة، وزحفت على المرتفعات الشرقية التي تطوِّق البئر من الناحية الأخرى. حاصرت المخيم بسدود الرملة وبسطت نفوذها على الخلاء الفاصل بين المعسكرين في نيّة لئيمة وغامضة لعزلها بالتلال ومشاريع المرتفعات.

وعندما جاء الوقت وحلَّ موعد الميعاد هَرَع الخبراء لتحديد العَرَاء الملائم لاستعراض المهاري. ولكن الألسن الرملية شوَّهت الأرض بالتجاعيد وأفسدت بكارة الخلاء وخلقت العراقيل في السهل الفسيح.

أخيراً وقع الاختيار على الموقع. العراء المحرَّم المجاور للجبل الوحيد المحصَّن في الصحراء من غزو الرملة: ايدينان المسكون!

اعترض العقلاء ولكن رضخوا في النهاية بعد أن قامت العرَّافة بتقديم ضمانات توكِّد عدم المساس بالهدنة مع أهل الخفاء. أيَّدها الفقهاء أيضاً وطافوا في الموقع وهم يقرأون آية الكرسي ويتمتمون بالتعاويذ المستوحاة من كتبهم الصفراء.

انتقل السهل واصطحبوا ضيوفهم المهاجرين إلى الأرض الحرام، بدأ المهرجان برقص المهاري.

(٣)

تجمَّعت النساء في حلقة عند حذاء الجبل. يتلفحن بـ «تابركامت» الأرجوانية. جدائلهن مضفورة ومدهونة، يزين الخرز صدورهن السمراء.

وتلمع الأساور والأقراط والخواتم في المعاصم والآذان والأصابع.

خلفهن، بمسافة قصيرة، اصطفَّ الشباب المتوَّجون بالعمامات الزرقاء، منفوشون بقمصانهم الطويلة الفضفاضة، تربَّعوا على الأرض في جلال، ولزموا الصمت كأنهم يحصون أنفاس بعضهم. على يمينهم بمسافة أقصر وقف طابور الصبيان، بعضهم معممون بعمامات هزيلة بيضاء، وآخرون حاسرو الرؤوس. حلقوا شعورهم من جانب واحد وتركوا الجانب الآخر. فريق آخر حلق رأسه من كلا الجانبين وترك عرفاً من الشعر امتدَّ من الأمام إلى الخلف. فوق التلة الغربية تقرفص الشيوخ يتوسّطهم الزعيم مع ضيفه «أناي». بعضهم ارتدى ملابسه الزرقاء واكتفى البعض الآخر بشدِّ الأحزمة الجلدية على البطون وارتداء قلادات التمائم المخفية أيضاً في قطع الجلد.

تقابل فرسان المهاري من الجانبين: في أقصى العراء، غرباً، تأهب فريق فوق جمال ضامرة كالغزلان. قابلهما في أقصى الشرق، باتجاه القرين البائس، عدد مساوٍ من المهاري، مزينون بسروج أنيقة من الجلود المنقوشة بالرسوم والتمائم. من طرف كل سرج تدلَّت جعبة طويلة ملونة ومنقوشة أيضاً بأنامل الحسان المجهولة، ينتهي طرفها السفلي بفروة من السيور. الزمام مضفور بعناية وبخيوط متعددة الألوان. فوق السروج جلس فرسان كالطواويس، يتهيّأون للسباق والرقص حفاة الأقدام.

في عيون المهاري استنفار ووميض وحزن.

(٤)

الراقص الوحيد أفسد إنسجام الرقص.

نزل من كهفه المخيف في الجبل المسكون وغاب وراء التلال الشرقية. مضى زمن قصير ثم ظهر فجأة فوق ناقته البائسة، العجفاء، وقد ثبَّت فوق ظهرها سَرْجاً قديماً متآكلاً بهتت خطوطه وامتّصت الشمس ألوانه ونقوشه.

دخل حلبة الرقص من الجهة الشرقيـة وانضمَّ إلى ثلاثـة مهاري تجـاورت في انسجام بديع وركضت بهدوء وجلال لتتقابل مع نظيراتها الثـلاث المنطلقـة من الجهة المعاكسة. شكّل دخوله رقماً مزدوجاً فأصبح العدد أربعة بدل ثـلاثة فخرق الانسجام وأربك النساء فتوقفن عن العزف. فقـدت المهاري الحـماس بسبب تـوقف الموسيقى والغنـاء فطاف أحـدها حـول حلقة النسـاء معبِّراً عن احتجاج. حاول الفارس أن يردَّه فتمرَّد وجفل وخـرج من الحلبة المـرسومـة. اعترضه بعض الشباب فرفسهم بسيقانه وهاج وتساقط الزبد من شفتيه. لسعه صاحبه بالسوط فقفز في الهواء وأسقطه على الأرض.

هرع الرجال ولكن الفارس الدخيل الغامض لم يبال. مضى إلى الغرب، بهيئته البئيسة، يجلس فوق الناقة العجفاء. اجتـاز كوكبـة الفرسـان في الجانب الآخر من العراء ومضى إلى المجهول، كأنـه جني يريـد أن يجتاز الأفق ويعـبره إلى القرص المستحيل.

(٥)

في الليل تواصل المهرجان.

استمرَّ الغناء.

سبـح قرص القمـر في الفضاء ملفـوفاً بغـلالة من الغبـار. ولكن الضوء الشاحب تدفَّق في الخلوات.

لن يذوق طعم الحياة مَنْ لم يتنفس هواء الجبال.

تـأخَّر في النـزول إلى الحضيض. أخبره الـرعـاة بـالاستعـدادات ولكنهم استبعدوا الميعاد في الموعد القريب بسبب تواصـل القبلي. لم يتـوقعوا أيضـاً أن يتصالح الخصوم القدامى فتتحالف العرَّافة مع الفقهاء لمحاربة العدو الجديد. سكنتِ الريح. ظنّ أن القبلي هجع ليتزوّد بأنفاس قصيرة لمواصلة رحلته الطويلة إلى الشمال.

في العشية رأى الدمى من صرحه المعلّق. المهاري السامقة، الضامرة كالغزلان انكمشت كالفئران. على ظهورها استقرّ فرسان كدمى الأطفال. تحوّلت قامات الشباب المارد، المكابر، بأجسامهم المنفوشة باللباس الفضفاض إلى طابور من النمل. زحف الصبيان على الأرض كالديدان.

راقبهم من القمة عبر غلالة الغبار وضحك كالمجنون وهو يستلقي إلى الوراء. فكّر في قمته السماوية التي تستنكر العجرفة فتمسخ المكابرين والمغرورين وتحوّلهم إلى فئران وديدان وحشرات.

القمة لا تتمتع بالقدرة السحرية على المسخ فقط ولكنها تتمتع بروح السخرية أيضاً.

قرر أن ينزل إلى الحضيض. سيتقمّص النملة أو يحلّ في دودة أو فأر. لا. لا. الدودة مقززة والفأر نهم وشقي. النملة أشرف مخلوق في السهل. مكابرة ومثابرة ولا ينقصها العناد. دين أهل الصحراء دين النمل أيضاً. النمل أشبه مخلوق بالضائعين في الفلوات وروّاد الجبال. ها ـ ها... اجعليني نملة يا قمة السماوات. ها ـ ها...

(٦)

دبّت الحياة في البقعة الحرام.

جرّتِ النساء الثياب على الأرض وتنقّلت العذارى بين حلقات الغناء.

انقسم الشبان أيضاً إلى مجموعات وجرجروا القمصان الواسعة الأكمام بحثاً عن الألحان الجديدة. الشيوخ تجمهروا على الرابية المهجورة وأوقدوا نيران الشواء والشاي.

اخترق صفاً من الرجال: زنوج وأتباع وصبيان، ومشى بمحاذاة الجبل المسكون. بكى «أمزاد» بنغم حزين. لحن مميز انبعث من تجمع النسوة في الطرف الغربي. ألحان آير الأسطورية. أهل آير سحرة في الغناء أيضاً.

يـروق لبعض المتطرفـين من حكماء «آزجـر» أن يرجعـوا سرّ الفعاليـة في سحرهم إلى تفوقهم في الموسيقى والطرب والأشعار. ويُقال إن غنـاءهم يجعل الحجر الأخرس يجذب ويطرب ويقع في الوجد.

عـبرت غلالـة الغبار فحجبت القمـر. أبصر الدرويش في زحـام الأتبـاع فتجنبـه ومضى مهتديـاً بصوت ينـطق بأقـدم اللغات ويومىء بأنفس الأسرار. رقص القلب وسَرَت في أطـرافه رجفـة. عبرت الغلالة فتعـرّى البدر. عـرفـه الدرويش فجاءه يعدو. اعترض طريقه. وضع شاشاً أبيض على رأسـه تاركـاً وجهه عاريـاً. كشف عن أسنانـه البارزة فسـال اللعاب عـلى الأرض في خيط طويل لمع تحت ضوء البدر. التفت بجسمه إلى اليسار وتفحَّصه بعينـه الحولاء قبل أن يكشف عن العرض:

ـ هنـاك بدأت مبـارات الغناء. ليس في السهـل مخلوق يمكنه أن ينـافس شياطين آير غيرك.

اعترض أوداد:

ـ ولكني لا أنتسب إلى السهل!

ضحك الدوريش وسار بجواره:

ـ ولكنك إنسان، والإنسان لا بدَّ أن ينزل إلى السهل يوماً.

ـ لا أنزل إلَّا مجاملة لأمّي.

ـ أين ستـطير؟ حتى الصقـور تـنـزل إلى الحضيض. أعشـاشهـا في القمم ولكنها تموت في السهل.

ـ ها ـ ها..

ـ لا يموت في السماوات إلَّا الملائكة. هل أنت ملاك؟

ـ ها ـ ها...

اقـتربـا من الحلقــة فـرقص قلب «أوداد» في صــدره. فـاضت الحــرارة واشتدَّت الرعشة. كان محموماً ولكنه لم يسقط في الوجد.

تربَّع على بعد خطوات من الحلقة. على يمينه جلس طابور من الأشباح المعممة. في السهل تصاعدت الروائح. عطور وبخور ورائحة أجساد النساء. لا يعرف أن للمرأة أقوى وألذ رائحة إلا ودّان جبلي مثله. ما أشهى روائح العذارى. ما أطيب أصوات المغنيات. تصاعدت الحمّى أيضاً. في قلب الحلقة استطاع أن يكتشف وجهاً في ضوء البدر. وجه يعرفه قبل أن يولد ولم يره منذ أول لقاء. مدوّر. تزين «تيفتست» وجنتيه وشفتيه بلون القرمز. على الصدر تتدلّى جدائل كثيفة من الشعر الفاحم. تمرَّدت وأفلتت من حصار اللحاف الذي يغطي الرأس، وتقوّست، مشدودة إلى الخلف، وراء الحجاب. يا ربي! لا يعرف ما في هذا الفن من سحر وإغراء إلاَّ ودّان نزل من الجبل للتوِّ. التهب البدن بالحمّى ولكنه لم يغب في الوجد.

في المعصم الرشيق، كعود الأبنوس الحبشي، استقّر سوار فضي مضفور في التواءات متقنة على طريقة الجلود. لأول مرة يرى صناعة بهذه الدقة. حدادة آير أيضاً سحرة.

في حضنها رقد «امزاد». لم يتبين النقوش على الضوء الباهت بسبب غلالات الغبار العابرة ولكن الجلود كانت كثيفة، وربما مزدوجة، على قاعدته البيضاوية الصغيرة. حجمه أصغر من الأحجام العادية وصوته فريد في نغمه المنفرد الوحيد. احترق القلب وشمَّ الشياط. ترنَّح وسمع في الجنّات طائر الفردوس:

أدّران ويلني طيلمين د مناس
أدّران وونلي آر تيغرّاس
الرّزغن ديدغ أسوغدن دونفاس(*).

(*) أحياء أولئك الذين لا يملكون القطعان والإبل.
أحياء أولئك الذين لا يملكون سوى الأنفاس.
لأن الرزق سيسعى للإنسان طالما بقت روح في بدن.

(من قصيدة قديمة لشاعر مجهول).

شقَّ صوته السماوات فانتبه الجن في ادينان وأصغوا. زغردت الجنيات في كهوف تادرارت، رقصت الحوريات في فراديس المجهول.

انتقلت العدوى فاشتعلت أجساد النبلاء بالنار. عمّ الصمت وأنصت حتى الشيوخ فوق الرابية المهجورة. حتى الأطفال حبسوا أنفاسهم بجوار أُمهاتهم.

استمرّت أنامل الأميرة تنتقل برشاقة فوق الوتر الرباني، المتوتر، المشدود. يمزقه الانتشاء ويقطع قلبه الحنين الخفي إلى المجهول. في نغمه لهفة وإصرار على اكتشاف سرّ الصحراء والحياة.

رفع أوداد صوته مرة أُخرى محاكياً طائره المجهول:

الدونيان ـ تزيديرت ات كرّاس
وديسيقيم آر ايدينان غاس
وساس كور يرى آضو يغلاياس
اد كومبت سابده تكرّاس فولّاس(*).

تمايل أوخا. تبعه آخماد وثلاثة أتباع. ونفّسوا عن صدورهم بآهات مكتومة، فاجعة تشكو للسماوات الضياع الأبدي وقساوة الاغتراب في صحراء الله الواسعة. ولكن اوداد صعّد من شكوى أقسى وأعذب. صعد إلى قممه وتجاوزها فسبح في الفضاء.

لم يلحظ القطع النقية، الندية، التي برزت من عيني الأميرة. سقطت على الآلة العجيبة ولكنها لم تتوقف عن سحق الوتر الملهوف بأصابعها الظامئة. فارتفع النغم يجاري غناء الفردوس، يلتحمان في سورة إلهية أحياناً حتى تتمزق القلوب وتدمع العيون من فرط النشوة، ثم يتراجع أمزاد ويفسح المجال للصوت المبعوث من الجنة أحياناً أُخرى. وقد يحدث العكس:

(*) وردت ترجمة النص في قسم «القرين الضّال».

ينسحب الصوت ويترك المدى لقرينه الساحر. ولم يعرف أحد في الصحراء لماذا يستطيع الغناء وحده أن ينفرد بالمعجزات فيطيح بوقار النبلاء ويذيب خجل العذارى. ينقشع الكبرياء وتتبخّر الطقوس والمراسيم. يُجذَب المعاندون وتنتحب الصبايا والسيدات.

ثم... قفز واقفاً.

كان السهل كله يرتجف ويتمايل ويخفف عن الحريق بالآهات الفاجعة. تحرّك أوداد نحو الجبل فاعترضه الدرويش. وقف أمامه ببلاهة وقال وهو يمسح خيوط اللعاب بظاهر يده:

ـ وعدتني أن تأخذني إلى الجبال وكذبت عليَّ. علمني بالله الغناء. أنا أتنازل لك عن كل شيء مقابل أن تعلمني الغناء!.

هيهات أن يسمع ثرثرة الدراويش مَنْ دخل بوابة المجهول ونَهَلَ من ينبوع السرّ.

(٧)

ارتطم به في زحمة الخلق. ركع البدر وهدد السهل بالعتمة. وبرغم ذلك أحس «أناي» برجفة وهو يرى الوجنتين المحفورتين بالجدري. لم تكن ملامح الوجه المجدور وحدها سبب الرجفة ولكن عينيه لمعتا بنظرة جريئة، خفيّة، ساخرة. مشى خطوات ثم وقف والتفت. وجد نفسه يصيح:

ـ أنت!

ضحك الشبح الهزيل ورفع طرف اللثام السفلي ليحكم القناع حول أنفه:

ـ أنا.

انتفض أناي. قفز إلى جواره وتساءل مرة أخرى:

ـ أنت!
ـ أنا.

حبس الانفعال فأحسَّ بنار تصعد إلى الرأس. تتابعت الأنفاس وقال ببلاهة:

ـ كيف غاب عن بالي. كيف.. كيف فاتني أنك المخلوق الوحيد الذي يروِّج للريح؟ كيف غفلت عن إدعاء البحث عن الكنوز؟

اقترب منه الشبح وأمسك معصمه. همس بمرح:

ـ ومَنْ أخبرك أني لا أبحث عن الذهب؟

أزاح أناي يده كأنه يتخلّص من أفعى:

ـ متى كان الكنز همُّ العرَّاف؟
ـ هيء ـ هيء ـ هيء.. وما أدراك أني لم اغيّر طبعي ومهنتي أيضاً؟

ـ ومتى كان العرّاف يغير طبعه أو مهنته؟.
ـ هيء ـ هيء ـ هيء.. هنيئاً. أنت أيضاً لم تتغيّر. العناد وشراسة الطبع.
ـ تتجاسر في بلاد الأغراب. تدخل حلبة الرقص بناقة جرباء لتفسد الميعاد.
ـ عجفاء. الناقة عجفاء!.
ـ تستوي فيها الأوصاف عندما يكون العرَّاف صاحبها.
ـ ولكن كل شيء انتهى على خير وها أنت تتسكع وتتمتع بميعادك. هيء ـ هيء...

ـ صرعت أنبل رجاله وكدت تحطم ضلوعه.
ـ هيء ـ هيء.. ولكن ضلوعه لم تتكسر بفضل الله.

زفر أناي بوحشية وكتم الضيف ضحكة لئيمة. ثم استولى أناي على

معصم العرّاف وقاده جانباً في العراء. هَذَرَ غاضباً:
ـ يجدر بك أن تمضي حالاً.

ضحك العرّاف المجدور فأضاف المهاجر:

ـ إلى المجهول. إلى أي مكان. الصحراء واسعة.

قال العرَّاف ببرود:

ـ أخشى أني لن أستطيع.
ـ ستستطيع. السهل لن يحتملنا معاً.

حرّر العرّاف يده من قبضة أناي وقال ببراءة:
ـ أخشى أنك ستذهب إلى المجهول قبلي. هيء ـ هيء.. لا تعتبر هذا نبوءة مني.

هدّد أناي:
ـ سأكشف لهم عن الحقيقة. سأخبر الزعيم بحقيقتك.
ـ وحقيقتك؟.
ـ سأقول إنك عرّاف من بلاد المجوس.
ـ وسأقول عنك الحقيقة. أظن أنهم ملّوا الريح، وريح القبلي هذا العام تمادت على غير العادة دون أن يعرفوا لذلك سبباً.
ـ أنت لا تعرف كم يبغضون المجوس وعرَّافي «كانو».
ـ أنا أعرف كم يبغضون القبلي وعداوة الرملة. آه لو عرفوا أنك السبب.

فَقَدَ أناي صوابه:
ـ اسكت يا عدو الله!.

ـ ها ـ ها ـ ها.. الآلهة تعرف مَنْ منّا عدوّها الحقيقي فلا تجدِّف عليها!.

سكت أناي. دعا رفيقه إلى الجلوس في العراء. توغل البدر في رحلة الغروب. تنقل الرجال في مجموعات وبدأت الساحة تفرغ من النساء. في الشرق دقت بعض الصبايا على الطبول وحاولن إرواء المجذوبين.

قدّم أناي عرضه:

ـ ماذا تريد؟ ماذا يرضيك كي تدعني في حالي؟

رفع العرّاف طرف لثامه وغطى أنفه قبل أن يجيب:

ـ أنت تعرف ماذا أريد. «امناي» هو الذي يريد ولست أنا وواجبي أن أطلب رضاه.

ـ دعنا من «امناي».

ـ أنا لا أريد أي شيء. لقد اعترفت منذ قليل أن العرّاف لا يبحث عن الكنوز.

ـ لا تتدخل بيني وبين «امناي». كما لم أقدم عرضاً لشرائك بعد.

ـ لم أتدخل. كل ما في الأمر أني أحاول أن أوقف القبلي. أريد أن أنقذ أرضي من زحف الفناء. في الماضي عندما حنث أمثالك ولم يفوا بالنذور هاجم وادي النيل وكوّن بحر الرمال العظيم في الشرق، وأقام بحراً عظيماً من الرمال في الغرب، واليوم يريد أن يشق الصحراء نصفين ويمد بحراً عظيماً في الوسط بسببك.

ـ لا تريد أن تتنازل. سأشي بك.

ـ لن تفعل شيئاً. سأخبرهم بسرّك!

علت الفجيعة في صدور المجذوبين. حاولت حناجر المغنيات أن تخفف من آلامهم.

عاود العرّاف التحذير:

ـ لن تفعل شيئاً. سأخبرهم بسرّك!.

١٠ ـ الرؤيا

«وإلى جوار النسامونيين يقيم البسيلس. وهم قوم أهلكهم ريح الجنوب (القبلي) وغمر آبارهم. منذ ذلك الحين أصبحت كل البلاد الواقعة داخل سرت صحراء. تشاور القوم فيما بينهما وقرروا غزو الريح الجنوبية (وأنا أورد هنا ما يرويه الليبيون أنفسهم) حتى إذا بلغوا الرمال باغتهم القبلي وطمرهم جميعاً بعد هلاكهم جاء النساميون وملكوا بلادهم».

هيرودوت ـ «التاريخ»

(١)

أمناي، إلّه القبلي، حفره الريح في فجّ بين أعلى جبلين شمال «تينبكتـو».
رأسـه معمم بقناع حجـري موشّى بـطبقة من الحصى يغـطي العينين وينسـدل حتى الأنف المكابر المنصوب إلى أعلى، نحو السماوات. ورغم اختفـاء العينين وراء الحجاب إلّا أن هيئته ظلّت توحي بصرامة وكـبرياء. يتـربّع عـلى قاعـدة صخرية متحركة، ييمم شطر الجنوب، نحو المدينة، في حال السكينة. أمّا إذا جاع وأراد القرابين، أثار الـزوبعة، واستـدار بنصفه العلوي كله إلى الخلف، والتفت إلى الشمال، حيث تنحدر عند القاعدة، في الفجّ، هاوية لم يعـرف لها أحد قاعاً. ولن يتوقف القبلي ويعود الإلّه إلى وضعه الطبيعي إلّا عندمـا يهرع أهل الصحراء ويلقوا له، في الهاوية، بأجمل عذراء.

هكذا استمرّ منذ أجيال لا يعلم أحد للبداية تاريخاً.

(٢)

لم يكتفِ الزعيم بمعاشرة أولى الصبايا في تينبكتو وإنما اختار عذراء أُخرى لتقديمها قرباناً للإلّه. ولم تشفع توسلات العقلاء ولا تدخل الشيوخ في إقنـاعه بـالتراجـع عن طعن مشاعـر المسلمين بشعـائره المجـوسيـة، وأعـاد عـلى وفـد الإيمان، الذي جاء للشفاعة، رموزه القديمة التي استـوحاهـا من لغة السـحـرة وتترجم تقلّب الدينونة وغـدر الزمـان. أضاف إلى التعـويذة سـطراً جديـداً لم

يُدْهِشْ المطلعين على ناموس الجنّ: «مَنْ أراد أن يمتلك الذهب تنازل عن كل شيء. هذا أول الشروط».

عاد البؤساء إلى البيوت واستعادوا تعاليم النبع الحكيم، الدستور المفقود «آنهي» الذي تتناقل الأجيال قوله إن الذهب إذا برق في أرض، عميت روح أصحابها وفقد الناس الهداية والصواب. يسهل سفح الدم المحرّم ولن تقف نفس الآثم عند حدّ. فك الزعيم الحصار عن «امناي» وأحيا تقليداً قديماً جُبل عليه سكان الأدغال قبل الفتوحات: رقص الزنوج عند قدميه بوحشية. صعد الغبار فدفعوا بأجمل عذارى «تينبكتو» إلى الهاوية.

تحسَّر المؤمنون في زواياهم على عهد همّه وهم يرون نفوذ ابن أخيه يذوب. ولم يكن خافياً على أحد أن زعيم «بامبارا» هو السلطان الفعلي.

(٣)

عاد الزعيم بالسلطة إلى الأدغال وترك لـ «أورغ» بعض الصلاحيات البائسة في القصر. ولكن الإله القديم قرر الانتقام أيضاً بعد أن تحرَّر.

بعد عام عصف بتينبكتو إعصار مزج النهار والليل في قطعة واحدة من الظلمة استمرت أياماً. تألم الشيوخ وهم يشاهدون ما حلَّ بعاصمة الإيمان من خراب وعلَّقوا السبب في رقبة «أورغ» الذي رهنها للمجوس مقابل أن يتلقى المعدن المنحوس. ولم يكتفِ بالتنازل عن الأرض والعِرْض ولكنه تدخل في النفوس وسمح للهمج بممارسة شعائر الأوثان فارتدَّ عن دين الله. عانت الزاوية القادرية من الاضطهاد فهجرها المريدون وهاجروا إلى أغاديس وآزجر وآهجّار. ويشاء القدر أن يرتِّب لكبير الشيوخ موعداً مع ربِّه فمات في اليوم نفسه الذي أُفرج فيه عن «امناي». ولم يستبعد العقلاء أن يكون المسكين قد مات غمّاً.

انزوى أُولئك الذين بقوا على إيمانهم في بيوتهم وبحث الحكماء عن العزاء

في الصبر والانتظار. ولم يبقِ على صلته بـالسلطان إلا عدد ضئيـل من ضعاف النفوس.

بعد الإعصار استـدعاهم أورغ للقصر بقصـد التشاور. ولكنهم فـوجئوا بتدخل السحرة المجوس. تداولوا في الإشارة طويلاً، وأرجعوا سبب الإعصار إلى مزاج الإله. تحاوروا واختلفوا وأجمعوا أن يحتكموا إلى زعيمهم الروحي في الأدغال دون أن يتيحوا لشيوخ تينبكتو الإدلاء برأي.

بعد أيام جاء من الأدغال العرَّافُ المجدور رسولاً عن الزعيم.

(٤)

يرجع «ايدكران» بأصوله إلى تينبكتو، هاجر أجداده إلى «كانو» بعد توطّد الـدعوة في عـاصمة الـذهب. والعلماء بتاريـخ الفتوحـات يقولـون إنّ الجدّ لم يخرج من تينبكتو طائعاً ولكن ختامان هو الذي نفاه خوفـاً من نفوذه الـروحي على الأهالي. إذْ لم تـر الصحراء الجنـوبية كلهـا عرّافـاً يفوقـه في نفاذ البصـيرة والتنبؤ بمـا يجول في بـال المجهول. ويقـال إن مواهبـه بلغت حـدّاً جعله يتنبأ بعودته إلى الوطن مختبئاً في بدن حفيده «ايدكران» بعد مئات السنـين. وما زال الكسالى والعاطلون يتسلّون برواية ما جرى بينـه وبين ختـامان الحكيم عنـدما أصدر الأخير أمره بالإبعاد. فخرج بنفسه يشيعه في طريق المنفى تقديراً لنفوذه فاعترض الفقيه الذي رافق الموكب فذكّر المؤمنين بـالحديث الشريـف: «كـذب المنجمون ولو صدقوا» ثم مضى في الاستفزاز فأضاف: «أخيراً ستهنـأ جوهـرة الصحـراء وتنعم بـالخـلاص من شرّ آلاف السنـين. لا يـدوم حـال». ولكن العرَّاف الحكيم تجاهل استفزاز الفقيه برغم أنه التقط الإشارة الأخيرة واستأذن سلطان المسلمين في أن يسدي له نصيحة. يُقال إنه قال: «لن يستغفل القـدر مَنْ لم يغفـل عن غدر الـزمان. لا أملك يـا سيدي إلاّ أن أحيي فيـك التيقظ والاستنفـار برغم أن هـذا يحزنني من نـاحية أُخـرى لأنه سيؤخـر الردّة ويعيق عودة ذريتي إلى أصلها مئات السنين».

عودة الحفيد الظافر أحزنت التقاة ودفعتهم إلى هاوية اليأس.

(٥)

اجتمع بالسلطان. في الليلة التالية اختلى بالإلّه عند الجبلين. ولم يعلم أحد ما فعله هناك ولكنه فاجأ المجلس الهزيل بنبوءة جديدة جاءتهم بعار جديد. تربع في الرواق المفروش بالكليم التواتي وضحك ضحكته الكريهة وقال:

- إذا أردتم أن يرضى امناي وتأمنوا جنون القبلي فيجب أن ترضوا بتعديل القرابين.

عمَّ الصمت فرشف ايدكران من كأس الشاي ثم وضعه أمامه على الكليم. عدَّل من لثامه الهزيل وثنى الطرف السفلي على الفم. لم يعر اهتماماً لفضول المجلس وكشف السرّ بعد صمت طويل:

- منذ اليوم لن يرضى بغير سلالة النبلاء.

استفهم السلطان بإشارة استنكار وضحك أحد العرّافين القدامى في الزاوية العتماء بصوت مخنوق. أدركت الفئة الباقية، التي ارتضت لنفسها ذلَّ المجوس، من الشيوخ أنهم يُساقون إلى عار جديد أبشع من كل ما سبق.

ارتجفت أصابع السلطان النحيلة قبل أن يعترض:

- لم نسمع أن بين الدماء فرقاً قبل اليوم.

انطلق ايدكران لقمع الاعتراض:

- يوجد فرق بين الدماء كما يوجد فرق بين الآلهة. امناي ليس كبقية الآلهة. أنت أول مَنْ يعلم يا جناب السلطان.

حاول أورغ أن يداري الانفعال ولكن الكيل فاض أخيراً:

- يا سبحان الله. ألا يكفي أننا خالفنا ديننا وسمحنا للزعيم بالإفراج عن الصنم؟ ألا يكفي أننا سلّمنا بعدها في الشرف ورضينا بتقديم قربانٍ نهانا عنه الدين؟.

استمرَّ ايدكران في الدفاع:

ـ مَنْ تنازل عن شيء في سبيل كنوز الذهب تنازل عن كل شيء فيما بعد. هذا ما ورد في عرف العرَّافين منذ أقدم الزمان.

رفع رأسه وبدت آثار الجدري في وجنتيه البارزتين. حدَّق في السلطان بجسارة قبل أن يواصل:

ـ قَدَّمت تضحيات جسيمة لإنقاذ تينبكتو. أحيي فيك هذه الروح. أجمل مدينة في الصحراء تستحق ذلك. ولولاك لما استطعت أن أفوز بالعودة إلى أرض الأجداد.

التقط السلطان نغمة السخرية فعقَّب بيأس:

ـ ماذا يفيدنا إنقاذ تينبكتو إذا كنا نوشك أن نخسر أنفسنا؟

ضحك العرَّاف القديم في الزاوية وفجأة قفز أحد الشيوخ البؤساء الذين تناثروا في الرواق الكبير يصغون للحوار. وقف بينهم يرتعد ويتنقل بعينيه بينهم كالأبله، ثم صرخ بجنون.

ـ يا شفاعة يا رسول الله. يا شفاعة يا رسول الله. الردّة! إنها الردّة!.

ثم انطلق وخرج من القصر راكضاً.

في الزاوية العتماء همس العرّاف القديم في أُذن أقرب جليس:

ـ هل هو درويش؟ حتى الأطفال في تينبكتو يعرفون أن الردّة بدأت من زمان.

وأعقب تعليقه بضحكة شريرة.

(٦)

أقام ايدكران في مغارة برأس الجبل الذي يَحدُّ إلّه القبلي من جهة

الشرق. وشوهد وهو يحوم حول الصنم في الظلمات. يحرق العظام والبعر ويمارس عباداته السرية. وعندما توصَّل الأعيان إلى سَنِّ ميثاق حول القربان أشرف بنفسه على إنجاز القرعة.

وقع اختيار «امناي» على صبية في السابعة عشر وحيدة الأبوين. ولم يكن الأب سوى ذلك الشيخ البائس الذي تشفَّع من الردّة بالله والرسول.

(٧)

سارت الحسناء النبيلة بخطوات ثابتة ممدودة القامة، مرفوعة الرأس، حاسرة، تتدلى جدائلها الظلماء المضفورة، اللماعة بالدهون، على صدرها البكر، النافر. سارت، بين صفوف الأهالي، بجلال يليق بعذراء تُزَفُّ إلى مخدع الألهة. ولكن الأب المسكين، المهزوم في معركة القدر، غافل الأهالي وقفز وراءها في الهاوية.

(٨)

عاد اورغ إلى صباه في المراعي. أرسله جدّه لاقتفاء أثر جمل مفقود فتاه في الصحراء. عطش فطارد السراب. وبدل أن يستظلَّ بأشجار البرية ويحتفظ بالعمامة على رأسه، اقترف نفس الخطأ الخالد الذي كُتِب على كل عطشان أن يرتكبه عندما يفقد الصواب: نزع العمامة وتحرر من ثيابه. هام في الخلاء الأبدي حتى وقع وغاب عن الوعي. لا يعرف كم مضى من الزمان ولكنه وجد نفسه ينتصب عارياً على فم بئر قديم مُطوَّق برقبة مرمرية وينهمك في سحب الدلو بحبل الليف. ظلَّ يسحب الحبل الخشن حتى يئس وخار وهمَّ بأن يرخي قبضته عن الحبل. في تلك اللحظة برز رأس «تينيري» من البئر. كانت تبتسم. شعرها مضفور في جدائل رقيقة. وجهها طري مغسول بالماء. فمها يفترّ بتلك الابتسامة الغامضة. فزع وقفز إلى الوراء. تخلَّى عن الحبل فاختفت الفتاة في ظلمات الهاوية. سمعها تصرخ. صرخة استغاثة طويلة. أليمة. فاجعة.

. . . وحتى عندما استيقظ مفزوعاً كانت الاستغاثة تطنُّ في أُذنيه وتقرع رأسه بالحسرة والخوف والصداع.

(٩)

رُزِق بها بعد يأس. فلم ينجب من ثلاث زوجات حتى ظنَّ أنه عقيم. بل إن الزوجات روَّجن لهذه الشائعة عندما بعث لهن بأوراق الطلاق. تزوَّج من سبيته الحبشية فجاء الفرج على يديها. لم تحبل في السنة الأُولى ولا في الثانية ولكن القدر لم يرزقه بالذرية إلاَّ في العام الرابع. وكان من الطبيعي أن يجهل الأقاويل التي تتسكع في مدينة تعشق ترويج الشائعات مثل تينبكتو، كما جهل منذ ثلاث سنوات الزيارة السرية التي قامت بها الحبشية ليلاً إلى بيت أحد الفقهاء أثناء غيابه في غزوة خارج العاصمة.

حرص أن يغمرها بحنان مَنْ فقد الأمل في إنجاب ذرية. حنان أب يعلم جيداً أن الوليد ليس زينة الحياة الدنيا فحسب ولكنه المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ نسله من الانقطاع والزوال. وكثيراً ما ردَّد حكمة «آنهي» القاسية: لن يدَّعي مخلوق أنه عاش يوماً على الأرض ما لم تخلفه ذرية!.

(١٠)

عاودته الرؤيا مرتين بعد تلك الليلة ولكنه لم ير في المرتين الأخيرتين إلاَّ النصف الأخير من الحلم: قامته وهو ينحني فوق الطوق المصقول ورأس «تينيري» المغسول، ثم الخوف. و. . . الصرخة الطويلة، الفاجعة.

فكَّر أن يستشير العرَّافين ولكن الحدس هو الذي هداه أن يقلع عن النيّة وينتظر عودة «أناي» من رحلته التجارية إلى أغاديس. هناك دائماً الصوت الخفي الذي ينبهنا في تلك اللحظة عندما ينشطر الصراط ونقف أمام الاختيار.

(١١)

ختم أورغ الرواية:

ـ ابن آدم يهرع لصلة الرحم عند الضيق. لولا أنك أخي لما استشرتك.

تمشّى في البهو واقترب من الشبّاك. راقب الفناء من وراء القضبان ليستكشف العسس ويفضح الجواسيس. تساءل:

ـ هل تظن أنّ للرؤيا علاقة بالهاوية؟

توارى «أناي» وراء قناعه الرمادي وأسدل الطرف العلوي حتى غطّى عينيه. تسلّى بمتابعة مثلثات «تانيت» فوق الفرش. قال:

ـ هذا لا يحتاج إلى تفسير من عرّاف.

ـ هل تظنّ أنهم يجرؤون على المطالبة برأسها؟.

رفع رأسه عن الكليم وأجاب بقساوة:

ـ وهل تشكّ في ذلك؟

ـ قيل في «آنهي» قديماً: مَنْ لم يخلِّف ذرية لم يولد.

صمت. في الخارج عوّى الريح. قال السلطان بصوت مكسور:

ـ تعرف أني لن أطيق التسليم في وريثة وحيدة.

ـ الوريث هو الله.

ـ سلّمت في كل شيء. في الأرض والشرف و. . .

ـ والله. سلّمت في الله وهذا أكبر الكبائر.

ـ فعلت ذلك لإنقاذ تينبكتو.

ضحك «أناي» باستخفاف فواصل السلطان:

ـ ولكني لن أطيق التسليم في تينيري.

ـ ولكنك سلّمت حتى في نفسك!

ـ نعم. سلّمت في نفسي ولكني لست على استعداد أن أسلِّم في الصبية.
ـ لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.
ـ كذب. بل يضيرها ألَّا تترك جدياً يذكِّر الناس بها.
ـ هل ينفعك ذكر الناس إذا خسرت نفسك؟
ـ ينفع. في رأيي أنه ينفع. كل الكائنات تسعى لأن تترك أثراً بعد فنائها.

ـ . . . . .

ـ لم استدعك كي نتحاسب فيما مضى وانقضى. طلبتك للتدبير والتشاور.

عوّتِ الريح في قمم النخيل. قال أناي وهو ينهض:

ـ أنت أخي، من لحمي ودمي. وسأنصرك ظالماً أو مظلوماً.

صاح السلطان:

ـ هذا ما أردت أن أسمعه منك!.

تقدَّم نحوه خطوات. تعانقا.

علا الحفيف في أعراف النخيل ومدّ القبلي، عبر الشباك، لساناً من غبار.

(١٢)

الأب هو الذي استدعى الفتور القديم.

أنجبه من أم نبيلة من قبائل «أولمدن ناترام» وأنجب «أورغ» من الأثيرة التي ترجع بأصولها إلى آزجر. ويُقال إنها تمتّ بصلة قرابة لزعيم «أوراغن» نفسه. فأسمت الزوجة ابنها البكر تيمناً بهذه القبيلة الأزجرية العريقة. ولم يفتْ اللؤماء في تينبكتو أن يروِّجوا لشائعة تؤكِّد أنها أطلقت هذا الاسم الشهيّ على الوليد لا تيمناً بالقبيلة وإنما تمجيداً لتاريخ تعاملها مع الذهب(*).

(*) أورغ: الذهب. أوراغن: أهل الذهب (بلغة الطوارق).

ولمّا عجز الأب أن يعدل في توزيع عواطفه بين الزوجتين وآثر الأزجرية وأحاطها بشعائر الحبّ والحنان أكثر مما عامل بنت قبيلته المسكينة فقد انعكست هذه المشاعر على الوليدين - برغم جهود الأب ومحاولاته في إخفاء أول مبدأ في شريعة المسلمين الذي يجيز تعدد الزوجات بشرط العدل بينهن في المحبة. وطبيعي أن يرث الأطفال مشاعر الأب نحو الأمهات. ولم يستطع أناي أن ينسى شقاء أمه وهي تدسُّ رأسها في زاوية الخباء وتكتم البكاء في آخر الليل عندما تستولي الضرَّة على الزوج المشترك ثلاث ليالٍ متتاليات. وإذا كانت تستطيع أن تغفر وتتنازل عن هذا الحق كزوجة فإنها لم تغفر له كأُم إخلاله بمشاعر الأبوة وحرمان طفلها من العناية والحنان.

فورث الحرمان وجُبِل على الاضطهاد. كبرا وانتقل أورغ للحياة في تينبكتو وواصل هو التنقل مع القوافل بين اغاديس وآزجر. كتم سرّه واحترف التجارة. وحتى عندما أخبروه بتنازل همّه وفوز أورغ بالسلطنة لم ينفعل ولم يعلّق برغم كل محاولات القبيلة في شحنه ضد أخيه وإقناعه بأنه الأجدر بالزعامة. خبأ سرّه وراء قناعه ومشى في طريق القوافل والتجارة. عرف حتى في ذلك الوقت بعض الأسرار وابتسم له الحظ فاكتشف مفتاح الكنز. اكتشف أن الذهب هو الذي يحرِّك التجارةَ والتجارةُ هي التي تخلق العواصم والمدن. ولولا الذهب لما وجدت تينبكتو على وجه الصحراء.

ولكن الطعنة أصابت علاقتهما عندما سقط العمُّ مقتولاً. تسكَّعت الشائعات وكاد يصل الأمر بينهما إلى القطيعة.

ولكن أورغ هو الذي تنازل عن كبريائه أخيراً وأرسل في طلبه عندما قَرَعَ القدرُ أبوابه.

(١٣)

تربَّع الجلَّاد الخالد فوق العرش.

فوق شوارع تينبكتو المتربة سكن الهواء. يندفع الصهد الجنوبي في موجات متقطعة.

ولكن الحريق لم يمنع حركة القوافل ونشاط التّجار في الأسواق.

جلسا في البهو، تحت ظلال النخيل. فصلهما عن الشارع سور مسنن بالمثلثات.

جاء زنجي مارد بطبق الشاي.

قال أورغ:

ـ لا تظن أني أبعث بها إلى أرض آزجر إحياءً لرابطة الدم القديمة. ولا بسبب خبرة مزعومة لـ «أوراغن» في التعامل مع الذهب. لا تصدِّق الخرافات.

أشاح وجهه وأسدل لثامه على عينيه وأكمل:

ـ في آزجر قبائل لن تستطيع أن تستدرجها آلهة المجوس.

تنفَّس القبلي بموجة جديدة من نار فاستجابت قمم النخلات بالحفيف والشكوى. رشف أورغ الشاي بصوت مسموع. ثم بصوت مخنوق:

ـ أعتمدُ أيضاً على خبرتك بأرضهم. عَرفت طقوسهم وشربت من مياههم. آزجر أرحم من آهجّار هذه الأيام.

لم يفهم أناي سبب المقارنة ولكنه آثر الصمت.

واصل أورغ بلغة مختلفة:

ـ البارحة رأيت الرؤيا مقلوبة. عندما أخرجت رأسها من البئر دفعتها إلى الهاوية. أنا الذي دفعتها إلى القاع فما معنى هذا؟.

سكت أناي. علَّق بعد صمت:

ـ لا أنصح بطلب المشورة من عرّاف في تينبكتو.

ـ ايدكران. لا يعجبني في الأيام الأخيرة. يُخَيَّل لي أنه يقرأ الخطة في رأسي.

ـ المجوسي ابن المجوس!

ـ ومجلس الشورى يتهامس. كأنه يعرف.

ـ لا يليق بالسلطان أن يتوهَّم أكثر مما ينبغي.

ـ لا يعود السلطان سلطاناً عندما يصبح النسل مهدداً بالفناء.

زَفَرَ القِبْليُّ. ارتجف السعف في القمم. تسلّق السراب أسنان السور.

قال السلطان أخيراً:

ـ أعددت لكما القافلة والزّاد.

جاء المارد الزنجي وعاد بطبق الشاي. انتظر حتى غاب في ردهات القصر فاستمر:

ـ كلَ ما استطعت أن أحصل عليه من التِّبر في السنوات الأخيرة. حرصت أيضاً أن أعطيكما أمهر الحدّادين والصنّاع. سلاح الغريب هو التِّبر.

ردَّد أناي تلقائياً:

ـ سلاح الغريب هو التِّبر.

وفكَّر في مفتاح الكنز والحياة. صانع التجارة والمعجزات وباعث المدن من الفراغ.

بَرَقَ الأمل في السلطان لإنقاذ الذرية من الهاوية، ولكنه نسي أن النجاة لم تُكتب في الصحراء لمخلوق حاول أن يفلت من القدر.

اا ـ الدرويش

«كنت صبيّاً في يوم ما، وعذراء أيضـاً كنت. أنا كنت شجيرة، طيراً، سمكة لا تعرف نطقاً لنا».

امبيدوكل

(١)

التقى بها في عراء الرماد والفضلات، غرب المنتجع. أفرغت سلة القمامة والرمال على الأرض ورفعت إليه نظرة احتيار. حاولت أن تقوِّم قامتها القصيرة المقوَّسة وتستقيم في الوقفة. جمعت أصابعها الطويلة، النحيلة، في كوم ذكَّره بأكواخ الفلاحين في الواحات. هددته بكوم الأصابع ولوَّحت باليد في وجهه. قالت بحزن:

- ربيتك مثل ولدي فلماذا أسأت لي؟

كشف عن الأسنان الناتئة فأفلتت قطرات اللعاب. ضحك ومسح اللعاب بكفه. عادت العجوز تسأل:

- لماذا أخبرته؟.

- ها - ها...

- هل يرضيك أن يموت في رأس جبل؟.

- ها - ها... وهل تظنين أنه سيموت في السهل؟

- لا سمع الله منك.

- السهل كله يعرف أن الله قد أعدَّ له قبراً بجواره هناك، في السماوات. ها - ها...

- لا سمع الله منك...

ـ حتى العرّافة. صاحبتك العرّافة، تعرف ذلك. ها..

ـ تكذب.

ـ أنْ يموت فوق القمة أهون من أن يموت في السهل، كالعبيد.

ـ لا سمع الله منك. كم أكره الجبل!

ـ قلت له أن الصقور أيضاً تموت على الأرض مهما تطاولت في السماوات برغم أني لم أكن على يقين من أني لم أكذب عليه.

ـ ينصر دينك. وماذا قال؟.

ـ ها ـ ها. الشاة لا يهمها سلخها بعد ذبحها. ها ـ ها.. لا أظنّه يبالي بأن يدفن بدنه الوضيع في سهلكم الوضيع عندما تكون روحه في السماوات. ها...

ـ لا أُريد أن أسمع اجتهادات. أُريد أن أسمع جوابه.

ـ لم يعد يتخاطب بلغتنا. لأهل القمة لغتهم الخاصة. مثل السحرة والعرّافين وسكان ايدينان!.

ـ لا تسخر منّي. أنا أمّه وهو وحيدي.

ـ قلتِ منذ قليل أني ولدك أيضاً.

ـ لا تسخر منّي. أنت عاق. أفشيت سرّي.

ـ لو لم أفش السرّ لمات بين يديك.

ـ يا حفيظ!

ـ أعرفه. أعرف لغته. لن يعيش في السهل أبداً..

ولكن العجوز قاطعته في فزع:

ـ لا سمع الله منك.

ثم حشت يديها في الرملة حتى تدفن كلامه في التراب خشية أن تسمعه الآلهة.

واصل الدرويش:

ـ لو تركته بأكل سحر صاحبتك لمات من الغمّ لأنه سيُحْرَم من الجبل.

سحر الجن أقوى من سحر العَرّافة. ها ـ ها..

أحكمت لحافها على وجهها الموسوم بالغضون وسألت بشك:

ـ هل تظن أن سكان ايدينان هم الذين سكنوا رأسه؟

ـ ها ـ ها... لم أفلح في إقناعه بأن يعلمني ركوب الجبال.

ـ ...

ـ آخر مرة سحبت الرجاء واستبدلته بآخر. قلت له أن يعلِّمني سرّ الغناء إذا كان لا يريد أن يعلّمني سرّ الجبال. هل سمعتِ ماذا فعل بالنَجْع ليلة الميعاد؟

ـ سمعت.

ـ هل سمعته في حياتك يغنيَ؟.

ـ ..

ـ النَجْعُ كله وقع في الوجد. الأميرة بكت وأوخا جُذِب. لم أسمع في السهل مثل هذا الغناء. ترك الجميع يترنَّحون وعاد إلى شقوقه في تادرارت. ولكنه لم يخبرني بسرّه.

اختفى القرص الجلّاد وراء غلالة كثيفة من الغبار. تهيّأ القبلي لاستئناف رحلته.

أكمل الدرويش:

ـ لن يروم حياة السهل مَنْ تعلَّم مرة سرّ الغناء. ها ـ ها... الغناء المستعار من الجنّيات.

(٢)

تردد في القبيلة أن أصله، من أبيه، يرجع إلى المرابطين. ولمّا تعوّد أهل الصحراء، من قديم، أن ينسبوا الدراويش إمّا إلى المرابطين أو الصحابة أو الأسرة النبوية نفسها فلم يجسر أحد أن يشكِّك في الرواية أو يعرِّض الشائعة

للطعن برغم ما في الانتساب إلى تلك الأصول من وجاهة وامتياز، ففاز الدراويش بالحنان والرعاية ونما بين القبائل تقليد يغفر لهم الخطايا والزلّات والبطالة. يعيشون على العطايا مقابل أن يحصل منهم الناس في الدنيا على البركات ويوم القيامة على الرضى والشفاعة بجاه النبي والصحابة والمرابطين.

أمُّه ماتت بالوباء قبل أن يشقى بالعقل، وأبوه تركه في بطن أُمه وهاجر برفقة قافلة إلى غدامس. ويُقال إنه تزوج من فاتنة غدامسية فآثر الاستقرار تحت الجدران والسقوف. وقيل إن قافلته تعرَّضت لنهب قطّاع الطرق وقُتِل على يد الأوباش. انقطعت أخباره فتولَّت سبية زنجية، مملوكة لجدّ الطفل من ناحية الأُم، تربيته إخلاصاً لسيدها المرحوم وطمعاً في الشفاعة والجنّة.

ولكن اليتيم قدَّم الدليل على أصله المرابطي منذ السنوات الأولى، فورث عن أجداده العداوة للمنجِّمين وتسلّى برجم العرّافة بالحجارة. ثم ملَّ هذه الشقاوة وطوَّر في أُسلوب العداوة. انضمّ إلى الصبيان الذين يرعون الجديان في الأودية المنحدرة من «آكوكاس» وقرر أن يحترف هواية. تعلَّم صيد الأفاعي معتمداً على مواهبه الخاصة ودأب على إفزاع الصبيان والصبايا بجثث الحيات البشعة. ثم ابتكر حيلة أُخرى وبرع في رتق فك الزاحفة بالخيط والإبرة لتجد العرَّافة في حجرها حية تسعى. في اليوم الأول للتجربة أغمي عليها ولزمت الفراش وكادت تفتك بها الحمّى والفجيعة. ولكنها قررت فيما بعد أن تعتمد على نفسها وتنتقم من حفيد الأعداء الشقي. اعتصمت في خيمتها أياماً وخرجت بخطة استأجرت بها زنوجاً من أبناء جلدتها فاقوه في الشقاوة (المتطرفون قالوا إنها لم تستأجرهم وإنما سخَّرتهم بسلطان السحر. إذْ ماذا تفعل العرَّافة بخبرتها إنْ لم تسخِّرها في تسخير الآخرين؟) وكلَّفتهم بمطاردة الدرويش اليتيم في حملة صبورة قال عنها أُولئك الذين يروق لهم أن يستعيروا الأوصاف من معاجم الفقهاء ويبحثوا عن رمز سماوي وراء كل عمل أحمق، إنها: «اضطهاد للمرابط المسكين واستفزاز لناموس الصحراء». ولكن الإشارة لم تردع الشياطين الصغار فواصلوا حملتهم ضد الدرويش الصغير: نتفوا

الشعر من رأسه. غرغروا له سائل الفلفل في أنفه. قيَّدوه إلى وَتَـدٍ وتركـوه في جهنم الرمضاء عارياً. وتسلّوا أكثر من مرة فدلدلوه في البئر مقلوباً.

في إحدى الحملات استنجد المسكين بـ «أوخا» المنفوش. وكـان ذلك من سـوء حظ الدرويش أنْ يخـرج أوخا المكـابر ملفـوفاً في أفخـر اللباس قـاصداً المشاركة في عرس أقامه الأتباع في العراء البعيد وراء ايدينان المغدور.

انتصف النهار. استوى الجلاّد على العـرش السماوي. تـلألأت الصحـراء بألسنة اللهب واخترق الجحيم الرؤوس الملفوفة. في تلك اللحظة أدركه الولد يجـري حافياً شبه عار، حاسر الرأس، مشوّهاً بالغبـار والكدمـات والجروح. ينزف بالـدم والعرق واللعـاب. ارتمى بين رجليـه واحتضن ركبتيه طلبـاً للحمايـة. شوّه بيديه الملوثتين بالغبار وجسده الصغير العاري المعفَّر بـالتراب لبـاس أوخا الأزرق. ولم يكن تشويه الثوب الفاخـر السبب الوحيـد الذي استفـزَّ اوخا في ذلك اليوم ولكن النار الحامية المسلَّطة من السماء لعبت دوراً أسوأ. فوجد نفسه يهوي بصفعة على وجه الصبي ويـرميه بـاليد الأخـرى إلى مطارديـه الأشرار. تكأكأ عليه الخصوم وقيّدوه بحبل الليف وجرّوه على الرمضاء والحجـارة في نية لسحله وإلقائه في البئر. وكان من الممكن أن يستمرَّ هذا التنكيل لو لم تتـوقف العرّافة عن الحملة بعد أن لدغتها عقرب فرأت في ذلك إشارة سماوية.

ولكن المرابط الصبي الذي غفـر إساءة أقـرانه الصغـار هيهات أن يغفـر مظالم الكبار.

(٣)

الدرويش الوحيد الذي رفض أن يتلقى الصدقات.

في سنـوات الطفـولة ركض وراء الجـديـان الشقيـة في المـراعي المجـاورة وعندما استقام عوده ونـالـت «مساك ملّت» و«مسـاك صطفت» رحمة السماوات هـاجر مـع الفتيان القسـاة لا ليتمتع بـالـربيـع في الصحـاري التي استـأثـرت

بالسيول وإنما ليتطوَّع لترويض المهاري والتدرب على المبارزة بالسيوف.

لم يكن الدرويش الوحيد الذي لم يتلق الصدقات فقط ولكنه الدرويش الوحيد في الصحراء كلها الذي قدّر له الله أن يعيش من عرقه ويتصدّق على غير القادرين في السهل من حلاله. فبعد مجيء شيخ القادرية ونفي الزعيم إلى الحمادة ارتبكت حركةَ التجارة وبخلت السماوات بالمطر وعانت «آزجر» من المجاعة. أغار أنصار الشيخ على الأهالي في الواحات واضطرتهم الحاجة إلى نهب الفلاحين لإطعام الرَحْل. ولكن الدرويش قرر أن يأكل بيديه فاصطاد الأرانب في الوديان وتطاول في السفوح وجاء بالعظاءات.

ثم نزل الشُعبَ البرية الشرقية وجاء إلى النجع بالحطب. في ذلك الوقت كان الصبيان يتسابقون لأن يصبحوا جميعاً فرساناً ونبلاء وأكابر. وغدت حاجة الشيخ إلى جيش وأنصار سبباً غذّى شهوة هؤلاء المكابرين. فطمع في الفروسية حتى الأتباع والزنوج. تركوا تجارة الحطب وصناعة الفحم ووضعوا قلوبهم في الأدغال ممنين أنفسهم بالفوز بالعبيد والسبايا والخلاسيات الحبشيات. فعانى المخيم من صقيع البحري الذي يهبُّ من الشمال في مواسم هطول الأمطار في الحمادة. فبادر الدرويش بجلب الحطب. قايضه مقابل حبات التمر وحفنات الشعير والجبن والقديد وتصدّق على المحتاجين والجوعى وحتى على الكسالى المكابرين. ولا زال العقلاء يذكرون بكائياته وآلامه عندما يعود من الوديان حاملاً فوق رأسه أكوام الشوك وأعواد الطلح. ينزُّ العرق من صدغيه في خيوط كالجراح، في حين تنساب خيوط الدم من يديه الخشنتين المحروقتين بسياط الجلّاد الأبدي. ومن العينين... من العينين أيضاً تنزف خيوط أقسى من الدم وأكثر حرارة من العرق: دموع. دموع الدرويش.

دموع الدرويش في معجم أهل الصحراء أسوأ من عدوان القبائل الغادرة. دموع الدرويش تحرق القلب والبدن وتجرّ البلاوي والويلات. والفأل يزداد سوءاً عندما يكون الدرويش يتيماً. تهرع إليه المربية الزنجية قبل أن يبلغ الخباء. تركع تحت قدميه وتلفّ قدميه الحافيتين، المغبرتين،

المسلوختين بالحجارة، بخرقة مبلولة حتى تحمي القدمين من ألسنة الرمضاء. تسقط على وجهها دموعه فتبكي هي الأخرى.

تخبط على صدرها وتردد مفجوعة:

ـ لا تأت بالحطب إذا كنت ستبكي. ما حاجتك إلى الحطب إذا كنت لا تستطيع أن تكسر الطلح؟.

وكان دائماً يجيب:

ـ أكسر ضلوع الأشجار كي أطعم ناركم. أطفالكم يتدفأون بعظام موتاي. قتلت ثلاث طلحات اليوم.

يلقي الحزمة على الأرض ويدخل الخباء. تأتي النساء لتتقاسم الحطب فتشكو مربيته العجوز:

ـ يبكي. إنه يبكي. لا يحتمل أن يكسر أعواد الطلح حتى لو كانت يابسة. يظنُّ أنها ستموت لأنه نزع أطرافها. الدرويش. لا يعرف أن الطلح الصبور وجد في الوديان منذ وجدت الصحراء. وسيبقى ما بَقَتِ الصحراء. درويشي المسكين!.

تبكي النساء أيضاً فينثرن الماء البارد على قلوبهن للتخفيف من المصيبة. يرددن نفس التميمة:

ـ يا ربي أجرنا من آخرة دموع الدرويش!.

ينزعن أيديهن من الصدور ويغرسنها في التراب لدفن الشرّ قبل أن يقمن لتخاطف أعواد الغنيمة.

ولكن حتى القرابين لا تنفع في وقوع المكتوب إذا سطَّره القدر في لوحه المجهول: فما أن تمكّن الشيخ من الاستيلاء على الصحراء وأخضع القبائل وغزا الأدغال وأشاح بوجهه عن الغرض الذي جاء من أجله حتى دفع

السهل، بل الصحراء كلها، ثمناً قاسياً مقابلاً لدموع الدرويش.

(٤)

قضى جنود المجهول على شيخ الطريقة وعاد الزعيم من المنفى. كبر الدرويش ولكن علاقته بالأشجار البرية ازدادت غرابة. تجاوزت شفقته رؤى الطفولة وضمّ للطلح والأثل أصدقاءَ جدداً. توقف عن صيد الأرانب والعظاءات وحرّم تناول اللحوم. عشق الفضاء والقمم والطيور والحيوانات وطارد ابن الأتباع وصادق الودّان «اوداد».

جاء الفرج فجاء معه الندم.

رأى أن جهاده في إنقاذ السهل من ريح البحري كفّارة، وقطع أوصال الطلح والأثل، أيام المجاعة والكرب، إثم لن تغسله دموع الندامة. أقبل على الزعيم، بعد عودته بأيام، يجرُّ فرعاً كثيفاً من الطلح الأخضر. حاول الزعيم أن يجلسه بجواره في ظل العشية فرفض وقال:

ـ انظر ماذا فعلت جمالك بأولادي. هرست كل الطلح في الوادي.

ضحك الزعيم وجاراه الشيوخ في الضحك. كمموا أفواههم بالأقنعة وهم يستلقون على ظهورهم من الضحك. الإمام أيضاً أسدل لثامه الناصع على أنفه المعقوف وعلّق ساخراً:

ـ متى اتخذت من الطلح أولاداً يا «موسى»؟

مسح موسى العرق الذي حفر طبقة التراب في صدغيه قبل أن يجيب:

ـ الطلحات طول عمرها أولادي.

داعبه الزعيم:

ـ ولكن ألم تقتل أولادك في غيابي؟ الشيوخ أخبروني أنك كسرت الطلح وجلبت الحطب.

ـ فعلت ذلك إكراما لك. في غيابك التحق المعممون المكابرون بقوات الشيخ واشتركوا في الحملات إلى الأدغال. تركوا الأولاد في العراء والبرد وتخلوا عن النساء وقت المجاعة والضيق فضحيت بأولادي لإنقاذهم. قتلت الطلح لأحميهم من البحري. فعلت ذلك تبجيلاً لك وإكراماً لذكراك.

صاح الزعيم:

ـ أحسنت.

ثم لمعت عيناه بدموع فقال بلغة جادّة:

ـ لا تظن أني أغفل عن الإحسان. لا خير في راعٍ لا يجازي من أحسن عملاً.

أسدل لثامه على عينيه فتدخل الإمام:

ـ لا نستطيع أن نمنع الإبل من الرعي في الوديان. الله خلق الأنعام لتأكل الكلأ والشجر.

احتجّ الدرويش دون أن يتنازل للاشتراك في الجلسة:

ـ هل تموت إذا منعناها من أكل الطلح؟.

تضاحك الشيوخ مرة أُخرى ولكن الزعيم لم يجاريهم فقطعوا الضحك.

تساءل الدرويش:

ـ الله خلق الأنعام أيضاً طعاماً لبني آدم. ولكن الإنسان لا يموت إذا لم يأكل اللحوم. منذ متى لم أذق طعماً للحم؟ هل أصابني مكروه لأني لم آكل اللحم مثلكم؟ هكذا الحال بين الطلح والأنعام.

ضحك الجَمْعُ فتدخل الزعيم لحسم الخلاف:

ـ أعاهدك بإخراج كل الإبل من الوادي. سيتولّى الرعاة تطهيره إنقاذاً لأولادك.

ابتسم الدرويش لأول مرة. كشف عن الأسنان فسال اللعاب.

(٥)

وجد السهل موضوعاً للتندر: نسبوا للدرويش أنه عـاد بنسبه إلى النبـات فقال في ميعاد الطرب: «أذكر أني كنت طلحة في واد مهجور. فلماذا تدهشكم أبوتي للطلحات؟». تهكمـوا على الادّعـاء فعلّق الزعيم عنـدما بلغـه الكلام: «إذا نطق الدرويش فعلى المكابرين الجهّال أن ينصتوا ويتعلموا الحكمة».

لم يستهجنوا الدعم الذي ناله موسى لو لم يفاجئهم ببدعة جديدة: طـاف على البيوت وجمع ما استطاع الحصول عليه من الكتان والخرق وبقايا القماش. ذهب إلى وديانه فعاد الرعاة بالخرافة. قالوا إنـه كسا كـل الأشجار وصنـع لها اللبـاس ليحميها من نـار الشمس وصهـد القبـلي في الصيف، ويقيهـا شرّ البحري في الشتاء. ضحك الساخرون وصدّقوا، وشكّ العقلاء فبعثوا الرسل إلى الوديان ليأتوا باليقين. الرسل أكّدوا الخرافة فهبَّ الزعيم للدفاع. قيل إنه قال: «لن يكون الدرويش درويشاً إذا لم يفعل ذلك».

جـاءه موسى في الصباح فاستضـافـه بحبـات التمـر والـدور الأخـير من الشـاي. قرر أن يحاوره فسأل:

ـ قالوا لي أنك وضعت على رأس الطلح ثياباً.

ـ ها ـ ها. يقولون لـك كل شيء إلاّ مـا يجب أن يُقال. هـا.. نعم. صنعت القمصـان للطلحات البـائسات. ألا يكفيهـا شرّاً أنها تعـاني العـطش عشرات السنين؟

ـ معـك حق. قلبي يتقلص عنـدمـا أراهـا عــلى هـذا الحــال. كم هي صبورة.

ـ ها.. أنا لا أستطيع أن أنزل لها الماء من السماء ولكن أستطيع أن أقيها البرد والحر والقبلي.

ـ بارك الله فيك.

ـ أنت لا تستـطيع أن تتصـوّر يـا شيخنـا كم عـانيت من هؤلاء الأعـداء

عندما كنت طلحة وحيدة في صحراء مهجورة!.

ـ حقاً؟

ـ الله وهبني الصبر على العطش الأبدي ولكنه تركني لأواجه مصيري مع الأشرار.

ـ يا حفيظ!

ـ صدقني أن القبلي هو المسؤول عن امتصاص الدم من عروقي.

ـ أجارنا الله من شرّه.

ـ والبحري. أرجو ألَّا تظن مثل أهل السهل أن ريح البحري خير دائماً.

ـ أنا لا أظن شيئاً. أجبرت نفسي منذ زمن بعيد ألَّا أظن أي شيء.

ـ حالي كان مثل حال سكان الحمادة: يعانون من الجفاف حتى تموت ماشيتهم ويموتوا وراءها. وفجأة تنزل عليهم الأمطار حتى تجرفهم السيول وتقتل ماشيتهم. هم ميتون في كلا الحالين. ها ـ ها...

ـ صدقت. هذا حال أهل الحمادة حقاً!

ـ في الشتاء يقتلني البحري ويجمِّد الدم في عروقي، وفي الصيف يقتلني القبلي ويمص الدم من عروقي.

ـ صدقت. كتب الله على الإنسان الشقاء منذ حرمه من نعمة الاعتدال. تطرف الفصول لعنة على الصحراء.

ـ لم يرحمني الناس لأنهم لم يحسّوا بي، فكيف لا أرحم بدناً كانت روحي تحتمي بجوفه عمراً كاملاً.

نظر إليه الزعيم طويلاً. نظرة حزينة. رحيمة. قال:

ـ أعرف كم قاسيت حتى تقوم بجمع الحطب من الطلح سنوات المحنة.

ـ جمعت الأعضاء الميتة. فعلت ذلك إكراماً لك.

استدرك الزعيم صادقاً:

ـ سامحني. لقد نسيت.

ضحك الدرويش. كان سعيداً.

(٦)

أهدى له الزعيم جدعاً تعبيراً عن الصداقة. سخَر منه الحسّاد وهم يرون حنوه على الحيوان. يلتقط من جسمه الأشواك ويتمسح بوبره النَاعم ويخاطبه، متنقلاً بين الوديان. ولكن أوخا أراد أن يسخر أكثر فأهدى له حيواناً آخر. عاد من الصيد فقدّم له غزالة ساحرة تحدّق بعينين كبيرتين لم ير أجمل منهما. أخذها في حضنه وقبّلها ومسح بخدّه على رقبتها ظناً منه أنها حية. ثم رأى على الرقبة، في شريط من الزغب الذهبي، حبيبات رمل اقتفت أثر خيط النزيف. تفحص الشريط فاستلقى الرأس إلى الوراء في استرخاء.

اكتشف الخندق الذي حفرته المدية فجع وألقى بالضحية على الأرض. اندفع إلى العراء وبدأ يتقيأ، في حين تبادل أوخا وأصحابه التهاني بالضحكات العالية.

ذهب موسى إلى وادي الطلح ومكث بين أشجاره ثلاثة أيام. عاد إلى السهل يحمل في حجره كوماً من الحجارة.

كان أوخا هو المخلوق الثاني الذي رجمه الدرويش بعد العرّافة.

(٧)

رفرف السهل وارتجف.

واصل القبلي رحلته بعد استرخاء أمهل فيه النجع أياماً، فارتبك كل مَنْ تقاعس عن استغلال الهدنة ولم يتزود بحاجته من الحطب والماء والتمر المطمور في الروابي المجاورة التي تطوق البئر من الجنوب وتفصله عن مستوطنة الأغراب.

بذلت الريح جهدها وأنجزت تغييرات في مواقع السهل الكبير. مدّت ألسنة جديدة، وقضت على ألسنة قديمة. نقلت مرتفعات كاملة من ظهر «آكاكوس» و«ايدينان» المغدور ونزلت بها إلى السهل. حاصرت الأبنية في «واو»

في أكثر من مكان وأقامت مشاريعَ لتلال كاملة من التبر بين المعسكرين. عرَت بعض الروابي من الرمل البكر لتزوّد به الحزام العنيد الذي يطوق البئر في نيّة مدهشة لكسر مقاومة «أوخا» ورجاله.

أمام خيمة الزعيم فرش بساطاً ناعماً من الذهب المهور بغضون الطهر والبكارة، وكلما داسته أقدام الزوار والضيوف عاد المكابر ليخططه من جديد بالبراءة والتجاعيد.

جاء موسى لزيارة الزعيم.

وقف عند الأوتاد وأنصت. هدأ الريح فدسَّ رأسه في الخباء. زحف وكمن في الزاوية. تحدث الوجهاء طويلاً عن القوافل ومدينة «واو» وتقلّب الأحوال وعرس أوخا. لم ينسوا القبلي مع منتصف الليل. ختموا السهر بالحديث عن الفناء وتهيأوا للخروج. شيعهم الزعيم خطوات خارج الخباء. عاد وقعد بجوار الموقد الخابيء يتمتم بأوراد المساء. خرج من الزاوية وحيّا الشيخ بضحكة مكتومة. ردَّ عليهم الزعيم بدعابة:

ـ ها أنت تتشبّه بالمكابرين وتضع على رأسك أفخم عمامة!.

ـ ها ـ ها.. هل تسمّي هذا الشاش أفخم عمامة؟.

ـ لم أرك مزملاً من قبل.

ـ ها.. صبرت على القبلي ولكني يئست. رأيت أن أضع قناعاً يحميني من الغبار. الريح يطعمني ثلاث حفنات من الرمل كل يوم. هيء ـ هيء ـ هيء...

ـ هيء ـ هيء ـ هيء... هذا قصاص كي تفهم حكمة الملثمين.

ـ لم أجهلها في حياتي يا شيخنا ولكن أعترف أنهم يبالغون. لقد علمتنا أن الاعتدال إلّه السعادة.

ـ أنت الآن تتكلم كحكيم. أنت حكيم يا موسى.

ـ أنا درويش!.

ـ وهل في الصحراء مخلوق يمكنه أن يجاري الدراويش في الحكمة؟

تناول الزعيم وعاء الشاي من طبق بجوار الموقد. صبَّ كأساً وقدَّمه للضيف. قال الدرويش:

ـ سمعت أنك تنوي الرحيل.

ـ إلى أين؟.

ـ إلى الوراء. جنوب غرب المسكون.

ـ وهل تسمّي ذلك رحيلاً؟.

ـ كل تراجع في الصحراء رحيل. مَنْ سلَم في شبر أعطى الأرض كلها.

رشف موسى الشاي وابتسم الزعيم. علّق:

ـ لا أرى سبباً للقلق. صحراء الله واسعة.

ـ واسعة ولكنها تضيق أمام أهل «واو».

رمقه الشيخ بفضول. فيمم موسى وجهة أخرى:

ـ الحق أني جئت في استشارة أخرى.

ـ خير إن شاء الله.

نزع قناعه الهزيل ولواه حول رقبته. التفت إلى الظلمات في الخارج كي يسدد نظرة إلى الزعيم بالعين الحولاء. قال:

ـ أردت أن أستفسر عن الأميرة.

استفهم الشيخ بإيماءة فواصل الدرويش.

ـ يقال إنها رهن في ذمة أوخا.

ضحك الزعيم. رفع طرف لثامه السفلي وغطى فمه المتوَّج بالشوارب الفضية. قال:

ـ هذه لغة لا تصلح للتعبير عن الحال.

ـ لا أفهم.

ـ لم أفهم ما تعنيه كلمة رهن. عندما يتحدث الناس عن عمود الدين لا يتكلمون هذه اللغة.

ـ ما علاقة الدين بدخول رجل على امرأة؟.

ضحك الزعيم مرة أُخرى:

ـ كيف؟ أَلَمْ يكن الدين هو أول مَنْ حرَّض ابن آدم كي يلتحم بحواء؟

سكت موسى. هبَّ الريح فجأة. قرر موسى أن يلبس جبَّة فقيه:

ـ كنت أظن أن الله الذي فعل ذلك وليس الدين.

ـ صحيح. ولكن ما الفرق؟

ـ الإمام يرى فرقاً. كل الفقهاء يرون فرقاً.

سكت الزعيم فيمّم الدرويش إلى جهة أُخرى:

ـ لم آت كي أفتح حواراً في الدين. ولكن أدهشني أن أكون آخر مَنْ يعلم.

ـ لم نقرأ حتى الآن سوى الفاتحة.

عاد الدرويش للاستفزاز:

ـ وهل يقرُّ الدين مراسم أُخرى غير الفاتحة لإتمام هذا الرباط؟

ارتبك الزعيم. ألقى بأعواد الحطب إلى الموقد. قال:

ـ الحق أن الرباط يحتاج إلى طقوس أُخرى.

سكت ثم استدرك:

ـ أجمع عليها الناس ولم يقرها الدين.

هبَّت موجة جديدة. رفرف طرف الخيمة. راقب موسى ذرات الغبار في ضوء النار التي بدأت تأكل الحطب.

رشف موسى آخر نقطة من الشاي فسأل الزعيم بتخابث:

ـ ولكن ماذا حدث؟ لم أتعوّد منك الفضول.

حدّق موسى في الظلمات بعين، وراقب لسان النار، وهو يرقص ويتمايل حسب لطمات الريح المتسلل من زوايا الخباء، بالعين الأخرى.

تساءل الشيخ ببرود، ذلك البرود الذي يخفي فيه عقلاء الصحراء قلقهم الحقيقي:

ـ أنت لا تعجبني. هل حدث شيء؟.

موسى لم يجب. صمت حتى تضاءل لسان النار. رأى الزعيم في عينيه وميضاً قبل أن يحتضر اللسان. قال الدرويش:

ـ أنت لم تسمعها وهي تعزف على «امزاد». أنت لا تستطيع أن تفهم ما يفعله «امزاد» بعقول الرجال. هل جرَّبت هذه اللغة يوماً؟ قلْ لي بالله...

ابتسم الشيخ، ولكن موسى لم يلحظ الابتسامة بعد أن ماتت النار في الموقد. عوى الريح في الخلاء. قال الزعيم:

ـ وهل وجد في الصحراء رجل لم يجرب هذه اللغة؟ كلنا احترقنا بهذه النار يوماً.

ـ ولكن هذه الجنيّة فريدة في مهارتها. كل السهل يجمع على هذا. لا أستطيع أن أنسى.. ربما لأنها صاحبت الجنيّ «أوداد» بصوته المستعار من الجنّيات. هل سمعت «أوداد» يغني؟

ـ سمعت خرافة تقول إنه تعلّم الغناء من طيور القمم...

مضى موسى يفكر بصوت مسموع:

ـ هل تتمتع كل صبايا آير بهذه الموهبة؟

ـ أرى أنك تمتعت بالميعاد. لم أرك تبدي إعجاباً بشيء قبل اليوم.

ثم بدعابة لا تخلو من استفزاز:

ـ أم أنك بدأت تهتم بالنساء؟

رفع الدرويش نحوه عيناً حزينة. في العين رأى الشيخ ذلك الوميض المجهول. قال الدرويش ببلاهة:

ـ هل قلت لك شيئاً عن النساء؟ أنا لم أتحدث عن النساء. قلت إن صوت الأميرة...

سكت.

انتظر الشيخ أن يكمل ولكنه زحف على أربع نحو الزاوية. تابعه الزعيم حتى خرج من الخباء واختفى في العتمة والغبار.

(٨)

في اليوم التالي استمرّ الريح يخط رموزه على العراء. يزرع الحصى في السهل وينثر حبيبات الرملة في الفضاء.

حجب موسى وجهه حتى عجز عن الرؤية وأوهم الناس أنه ليس الدرويش. ضلل حتى مربيته العجوز عندما عاد في آخر الليل لينام. استيقظت وتفحصته في ضياء النار. قرأت تعويذة بلغة «الهوسا» وأتبعتها بآية الكرسي فضحك وأعلن: «هذا أنا». سحبت اللحاف على وجهها وأرجأت الاستنطاق حتى الصباح. راق له الوضع فقرر أن يتحصَّن باللثام نهائياً. في الصباح طلب من عجوزه أن تعلمه لف القناع على طريقة النبلاء. في البداية رفضت وسخرت منه. وما أن انتهت من مخض الحليب واستخلاص الزبدة حتى رقّ قلبها وقامت بالمحاولة الأولى. لم يشك في كفاءاتها ومواهبها. عوَّدته أن تنجز له كل الطلبات الصبيانية حتى تلك التي اعتبرها عرف الصحراء حكراً على الرجال وحدهم مثل التفنن في ربط القناع على الرأس. ولكنها خذلته في تلك المرة. لم يجتز البيت بخطوات حتى انتزع منه القبلي اللثام في نية

جدية للاستيلاء عليه فتشبث موسى بالطرف الآخر. تنازعه مع الريح طويلاً وعاد إلى العجوز غاضباً. ضحكت وأعادت على رأسه اللفة بطريقة الأتباع.

خرج.

على المرتفعات المطلّة على «واو» تفرّج على طوابير القوافل تختفي وتظهر في سحب التراب. مرقت «تافاوت» بجواره. تحكم حول رأسها لحافاً أسود تنفخه الريح فترنح وتتقهقر خطوات إلى الوراء. ثم يتراجع القبلي اللئيم فجأة فتندفع بجسمها الرشيق إلى الأمام. كتم ضحكة ومشى وراءها. غزت أنفه روائح الجسد والبخور. ما أشهى الإناث!.

أدركها في وادي الحطب.

داعبها فقرأ أبيات الأسطورة:

ـ يئست «تارات» من عودة المعشوق. ذهبت إلى رأس «أكاكوس» بعد أن انتظرت خمسين عاماً وألقت بنفسها من القمّة.

انتفضت وأحكمت اللحاف حول الوجه. ثم فطنت إلى الدعابة فضحكت وهتفت:

ـ هذا أنت!.

نزعت الريح المشاكس طرف اللحاف فرأى جديلة كبيرة مضفورة تستلقي على صدرها المتمرد. أنامل الريح حلّت الرأس المفتول فرفرف الشعر الفاحم ليكسو الصدر النافر.

عادت تهتف:

ـ لولا الصوت لما عرفتك. هل قررت أن تتشبه بالنبلاء؟.

ـ النبل في القلب وليس على الرأس!

أطلقت ضحكة سعيدة. علّقت:

ـ لا بـدَّ أن تجيب بلغة الـدراويش. العجائـز تقول إن شفـاه الـدراويش تتكلم لغة أُخرى غريبة.

انحنت على شجرة ميتة. نزعت أعواداً يابسة أكلها الـتراب. علَّقت على أبيات الأسطورة:

ـ «تارات» لم تنتظر خمسين عاماً. مَنْ قال إنها انتظرت خمسين عاماً؟.

ـ الزعيم.

ـ الزعيم؟

رفعت رأسها فعادت رائحة الأنوثة تغزو أنفه. تساءلت:

ـ هل يجد الزعيم وقتاً لسرد الأساطير؟

ـ طبعاً.

ـ هل سمعته يسرد أساطيراً؟.

ـ دائماً.

ـ أنت محظوظ!

ـ لماذا؟ بيته مفتوح حتى للدواب والزواحف.

ضحكت وانتزعت عوداً آخر:

ـ مفتوح للزواحف والدواب ولكن ليس للصبايا.

ـ ها...

ـ أنا الآن لا أنتظر المعشوق. لقد أخذت ما أُريد.

ـ ها. ماذا أخذت بالله؟.

قالت بشقاوة وهي تكوِّم الحطب:

ـ خمِّن!

ـ ها. لا أعرف. من أين لي أن أعرف؟

ـ هل أنت أبله؟ ماذا يمكن أن تأخذ المرأة من الرجل؟

أحكم لثامه حول فمه وفضحت عينه ابتسامة خبيثة. عادت تسأل:

ـ هل فهمت؟

قال ببرود:

ـ الولد الأخضر. أخذت منه الولد الأخضر. ها...

أخفت ابتسامة وهي تنحني فوق كوم الحطب. اقترب منها. انحنى على الأعواد المنخورة بالملح والتراب. بعثرها وقال:

ـ هذا أثل. متى كان الأثل يصلح حطباً في بيت حسناء؟

رمقته بفضول فاستمر:

ـ الأثل يفسد البخور ويخطف عطر الجسد.

تحوّل الفضول إلى إعجاب. هرع إلى شجرة يابسة مجاورة. اقترح:

ـ سأساعدك. الحطب حرفتي. سأحملك حزمة من الرسو الممتاز. فقط لا تقربي الطلح.

مشت بجواره، تقاوم الريح. تمسك أطراف اللحاف بأصابعها وتبتسم ابتسامة خفية. سبقته بخطوات فكشف الريح عن ساقها اليمنى. عاد عطر الجسد يغزوه فأحس بالدوار. توقف فجأة. سدد إليها نظرة غامضة وقال بخشوع:

ـ سامحيني.

لم تفهم، فضحكت بإغراء. تضاعف الدوار فألقى بالحطب. قالت:

ـ لم تفعل شيئاً. لماذا أسامحك؟

قال بخجل:

ـ لقد.. لقد فكرت فيك كامرأة.

ضحكت ضحكة شهية. قالت بشقاوة:

ـ وهل ترى في هذا عيباً؟

ـ أنت امرأة «اوداد». ألست في ذمة «اوداد»؟

ـ ها ـ ها.. اوداد هجرني من زمان.

هرع إلى اللثام كي يخفي ارتباكه. أدرك الآن لماذا يستعمل النبلاء قناعاً. إنهم يرتدون العمامات كي يخفوا فيها ربكتهم. اللؤماء!

قالت بغنج:

ـ هل تدري أن المرأة لا تغفر للرجل، لأي رجل، إذا لم يفكر فيها كامرأة؟.

ـ حقاً.

ـ هل أنت أبله؟

ـ أنا... أنا درويش!.

ضحكت حتى استلقت إلى الوراء. فكر موسى: «ما أجمل المرأة عندما تكون خفية. ما أشهى المرأة عندما تكون خفية».

قالت:

ـ ولكن العجائز تقول إن الدرويش ليس درويشاً!

فكّر موسى: «... والرجل غبي لأنه مكشوف. الرجل بشع لأنه مكشوف. يغطّي رأسه ويكشف قلبه. ما أغباه!».

نظر إليها فذاب قلبه المكشوف. ولكنه قرر أيضاً أن يضع حجاباً على قلبه. قرر أن يكتم سرّه.

ارتجف. قال ببلاهة:

ـ كنت أُريد أن أقول شيئاً...

ألقى بالرسو على الأرض. ارتفع بينهما ستار من غبار. اقتربت منه. قالت بغموض:

ـ أنا أيضاً أُريد أن أُخبرك بشيء. . .

رأى في عينيها وميض.

رأت في عينيه دموع و. . شقاء.

(٩)

حمل سرّه وذهب إلى «واو».

هدأ العجاج. تجهَّم السهل بالمساء. تصاعدت أعمدة الدخان. تمددت المدينة وامتدت إلى الجهات الأربع. بلغت سفوح «أكاكوس» في الجنوب، وطوقت «ايدينان» المغدور في الشرق. في الشمال تدفقت في الخلاء المؤدي إلى وديان الطلح واعتلت الروابي. أمّا في الغرب فعاق النَجّع تقدمها فتنازل الزعيم وقرر أن يتراجع بالمضارب في الخلاء ليفسح الطريق للبنيان.

في القلب المرصوص ارتفعت القباب الرصاصية ومآذن متوجة بالأهلّة. لُطِخَتْ جدران القلب بالجير الناصع فتشبهت أبنية تلك الرقعة بأضرحة الأولياء في الواحات. ولكن عدوى البياض لم تمتد إلى أبعد من دائرة القلب. ويقول التجار إن هذا الطراز مستعار حرفياً من «تينبكتو» الأم.

دخل المدينة من بوابة الشرق المفتوحة على «ايدينان» المغدور. وسار في ممر مظلم، طويل، مترب، مخترقاً حلقات من الزنوج والأتباع والتّجار. غزت أنفه الروائح: عرق الزنوج، والبخور، والتوابل، والدخان. وقف أمام باب ضخم صُنِع من جذوع النخيل، يحرص «أناي» دائماً أن يبقيه مغلقاً. وكثيراً ما مرّ من هنا وحاول الدخول فمنعه العسس بلباقة وقالوا إنه ردهات خصصت للحريم. ولم يشك في صدقهم. لأنه رأى، في قيلولة أحد الأيام، الأميرة «تينيري» تخرج من الباب السرّي تصحبها مجموعة من النساء عرف من بينهن العرّافة. سارت بجوار الأميرة بحيوية سبية زنجية جاءت من الأدغال للتوّ. تتلحف بلحاف أسود وتضع على رأسها قطعة زرقاء مصبوغة بالنيلة.

تنحني نحو تينيري الهيفاء وترطن معها بالهوسا. ورغم غمامة الغبار التي استمرت تعمم السماء في ذلك النهار، إلَّا أنه لاحظ بوضوح كيف لمع أُذنَ العرَّافة بقرط مدهش كأنه قطعة من الذهب.

كذَّب البصر الخدَّاع وحبس في قلبه السرّ والدهشة.

واصل المسير في الممر المتعرج، المترب. توغل فتحولت العتمة إلى ظلمات. ارتفع صوت المؤذن في المئذنة المعلقة في السماوات فسأل نفسه: هل يرفع الإمام صوته لصلاة المغرب أم العشاء؟ فالقِبْلي المستمر ساوى بين الليل والنهار وأفقد أهل الصحراء الإحساس بالوقت. حتى الإمام فقد فراسته الدينية وضلل المؤمنين أكثر من مرة. آخر ورطة حضرها موسى بنفسه. عاد الإمام من السوق يرفل في ثوب جديد ناصع، يضع على رأسه عمامة مخططة جديدة أيضاً ونادى الوجهاء المجتمعين في بيت الزعيم لتأدية صلاة المغرب. توضأ أغلب الحاضرين تيمماً بالرملة واصطفوا في طابو طويل ويمموا شطر القبلة. تقدَّمهم الإمام وكبّر للصلاة. لم يكد يؤدي الركعة الأُولى حتى قرر القدر أن يسخر منه. انقشعت غيمة الغبار وأطلَّ قرص الشمس مائلاً في رحلته إلى الغرب مؤذناً بحلول العصر. لم يستطع يومها أن يسيطر على نفسه فانفجر ضاحكاً. علت الهمهمات بين الوجهاء فالتفت إليه الزعيم ونهره باستنكار. عجز أن يسيطر على النوبة فاضطر الشيخ أن يطرده من الطابور. بعد تلك الحادثة ابتدع الإمام فتوى جديدة للدفاع قال إن بوسع المسلم أن يجمع الأوقات الخمسة ويؤدّيها في ساعة واحدة إذا فرضت الطبيعة ذلك وعجز عن تمييز الوقت. ولكن موسى ذكّره بما نهى عنه دائماً عندما كان يقسو على الرعاة ويحرِّم عليهم التأخر في تأدية الفريضة برغم تقديمهم لمبررات أقوى من القبلي. فأخفى الإمام أنفه المعقوف بطرف اللثام وكتم غيظه في حين نهره الزعيم مرة أُخرى. أمّا الإمام فتوقف عن مخالطة سكان السهل الذين رأوا في القبلي لعنة جاءت مع المهاجرين الوافدين ووطَّد صلاته بـ «أناي»، وزاره كثيراً في قصره الجديد وحضر الولائم التي حرص سلطان تينبكتو الجديدة على

إقامتها على شرف كبار التجار، وأُشيع في السهل أن أناي رأى أن يقرِّبه إليه ويودعه أسراره ويجود عليه بعطايا خفية. ولم يستغرب أحد أن يهرع الإمام ليدشِّن مئذنة «واو» ويرفع فيها الآذان بنفسه بمجرد أن انتهى زنوج الأميرة من بنائها في قلب المستوطنة.

العرَّافة أيضاً لم تتأخّر فاستولت على قلب الأميرة.

توقفت عن قراءة الغيب وأدارت ظهرها لأهل السهل وقطعت نفسها لـ «تينيري» وحدها، وتركتهم يواجهون ريحاً استمرَّت أكثر من عام دون أن يعرفوا لإصرارها سبباً.

أمام باب القصر وجد ثلاثة من العسس: زنجيين ماردين وتابعاً هزيلاً، طويل القامة، مزمَّلاً بلثام باهت، يضع سواراً جلدياً قانياً في معصمه الأيمن.

اعترضه باليد اليمنى:
ـ السلطان أمر بقفل باب الاستقبال.
ـ السلطان؟

لم يرد التابع فأوضح الزائر:
ـ أنا في طريقي إلى الأميرة وليس إلى السلطان.

اعترض العساس بنفس الجفاء:
ـ ومتى كانت الأميرة تستقبل الرجال؟

ضحك الدرويش. تفحَّص العساس وقال بمرح:
ـ أنا الدرويش.

اقترب الحارس من وجهه وسأل بخشونة:
ـ وهل الدرويش في بلادكم صبية؟

ضحك موسى مرة أُخرى. أحكم لف القناع حول رأسه وتمشَّى بينهما صامتاً. سأل بغتة:

ـ كانت امرأة حرّة عندما جاءت. كنت ألتقي بها دائماً في العراء. فلماذا أقفلتم عليها هذا الباب القبيح؟

رفع العساس رأسه إلى السماء الغاضبة وخاطب الملائكة:
ـ للسلطنة قوانينها. القوانين مستعارة من تينبكتو الأم.

هتف الدرويش:
ـ أنت سجّان؟

لم يرد العساس. عمّ الصمت. نزلت على الممرات الظلمة. خُيّل لموسى أن الجبل زحف واقترب حتى أطلّ على المدينة. نزلت السماء أيضاً من فراغها البعيد وتدلّت فوق رأس «واو». واو الآن محفورة في الجبل. قطعة من «ايدينان» الجنوبي، واو انشقت عن الفضاء، هي النصف السفلي من السماوات. «واو» تنتحل شخصية أخرى في الليل وتتسلل عبر الظلمات لتعود إلى وطنها الخفي.

هتفت الجارية الحبشية من كوّة فوق رأس السجّان:
ـ أطلق سراح الدرويش يا عبدون!

(١٠)

قادته عبر الممر الطويل، المظلم. الطريق المترب ابتلع وقع خطواتها فاهتدى إليها برائحة البخور. واو تتزحزح وتعود إلى المجهول في الليل. تصبح جزءاً من الجبل، قطعة من الظلمات، غلافاً أرضياً للسماوات الخفية. من أين تولد واو؟ إلى أين تذهب واو؟.

دخلت باباً مقوساً صنع من أشجار الأدغال. كان مواربأ فدفعته الوصيفة الحبشية قبل أن تفتحه الزنجية الفرعاء التي وقفت وراءه في الداخل.

دار الأميرة فسيحة. دائرية. مفروشة بالكليم التواتي. في الزوايا عُلقت المشاعل فسكبت ضياءً كئيباً على البيت. وقف ليشاهد خيمة كاملة صُنعت

من جلود الثعابين وعُلّقت لـتزين الجدار في نصف دائـرة. في قلب الدار وقف عمود حجري كركيزة الخيمة. تحت العمود تناثرت الوسائد الطويلة المصنـوعة من الجلود المرسومة بالرموز، محشوة بالقش والتعاويذ.

أحس بالجلال لأول مـرة. كأنـه انتقل في رمشـة، من دار الدنيـا إلى دار الآخرة. تتابعت في صدره الأنفاس. قلبه تململ وتقلّص وتهيأ للفرار.

دخلت الأمـيرة فجنّح القلب وأفلت من القفص. طـار إلى المجهـول وبقي، هو، الدرويش، صنـماً فارغـاً، مفتوح الفم، نـاتىء الأسنان، عـاجزاً عن الكلام، بلا قلب.

سبـقـها الطيب. خليط من البخـور والعطور ودهـان الأعشاب. الـطيب السحري طيّر رأسه أيضاً. قلبه قفص فارغ. كرة حنظل امتصت الشمس نـداها، ورأسـه قرعـة جوفـاء. سمع مـلاك السموات ينـزل الأرض السفـلى ويخاطب مخلوقات الطين:

ـ أنت درويش حقـاً. مـرابط. لـو لم تجيء لأرسلت في طلبـك. قـلْ يـا شقي: هل رفع أجدادك عنك الحجاب قبل أن تولد؟.

انشقّت شفتـاهـا عن ابتسـامـة. شفتـاهـا أُرجـوانيتـان، مـدلكتـان بـ «تـافتست». تافتست تجعـل الشفة حسـاسة، رقيقـة، أُرجوانيـة. الأسنـان ملمعة بالطين الأبيض وفحم السدر، فلم تعد ناصعة فقط، ولكنها تضـاءلت في الحجم، وازدادت صفـوفها تـلاصقاً وتراصّـاً. خُيّـل لـه الآن أنها ازدادت نحولاً وقامتها تضاعفت سمـوقاً وارتفـاعاً. مـا الذي يحـوّل المرأة من شيـطان أرضي إلى ملاك سماوي؟

تكلّم الملاك:

ـ هـل قرأت مـا نطق بـه قلبي؟ أنـا نفسي عجـزت أن أفهم نفسي. أنـا نفسي لم أقدر أن أفسّر اللغة السرّية. أنت ملاك بعثته السماء!.

في الزاوية لمح شبحاً. عرف العرّافة. في لحظة عاد للقرعة محتواهاونزلت في كرة الحنظل حبات البذار. مسح اللعاب وتكلم بلغة الدراويش:

ـ الراعي الأبله آوى أفعى رقطاء في كمّه وحماها من برد البرية. تدفأت الحية بدماء عروقه فلدغته في معصمه وهو نائم. ها ـ ها ـ ها..

ولكن لغة الدراويش لم تصعب على بنت آير. لا شيء يصعب على ملائكة السماوات:

ـ هل تكره العرّافة إلى هذا الحدّ؟

ـ عرّافة مزيفة!

ـ سأكون بينكما واسطة خير.

ـ لا أُريد بيني وبينها وساطة.

ـ سأكافئك إذا أبلغت وصيتي.

ـ وصية؟

ـ سرّ. أُريد أن أبوح لك بسرّ.

طارت حبات البذار في كرة الحنظل. اختفى المحتوى من القرعة. سال اللعاب. قال لاهثاً:

ـ أنا أيضاً أُريد أن أبوح لك بسرّ!.

ـ قيل لي أنك الوحيد في السهل الذي يقدر أن يَطولَ الودان الجبلي؛ طائر الفردوس!

ـ الودّان؟

ثم بخشية:

ـ تقصدين أوداد.

تدحرجت الكرة وسقطت في الهاوية. تحطّمت القرعة على [illegible]

[illegible] الموسيقى [illegible]

«تافاوت». الوميض الغامض الذي لا يخفى على الدراويش، ويسميه مجاذيب الزوايا عشقاً ويقولون إنه من صفات السماء. ولكنه يظهر على الأرض في مكان واحد: في عيني امرأة!.

ويقول المجاذيب إن هذا سرّ لا يعرفه سوى الدروايش والمرابطية.

تجمّد اللعاب بين أسنانه. جفَّ حلقه حتى أصبح يتشقق كما يتشقق طين الوديان تحت الشمس في مواسم السيول. تناثرت حبات البذار في الفضاء وخرجت أحشاء القرعة المكسورة على الحجر. توقفت حركة الأنفاس. قال بصوت كالفحيح:
ـ هل . . . تعشقين اوداد؟

راقب التحولات على وجهها. رأى كيف حفر السؤال وجوماً في جمالها الحزين. وكلما استمرَّ الصمت كلما توغّلت في صحراء الحزن. نفس الحزن المكابر، الغامض، الذي يحفره الزمان على وجوه الرسوم الحجرية في تاسيلي ومتخندوش.

مشت بضع خطوات نحو الجدار. رمقت جلد الثعبان بنظرة غائبة. تكسَّر ضوء المشعل الكئيب على وجنتها اليمنى فغلب الحزن وصار شقاءً:
ـ وهل يقسو الدرويش فيرمي بسؤال كهذا؟

هوى البدن من القمة السماوية وارتطم بالحجارة الصمّاء.

(١١)

انهار في الزاوية، وأسند ظهره على الجدار. جاءت الوصيفة الحبشية بالشاي. أمسك بالكأس الزجاجي فرجفت اليد. وضع الكأس على الكليم الأحمر المرسوم بالمثلثات البيضاء. تَرَبَّع. قال:
ـ السهل يعرف أنك في عصمة أوخا. الفاتحة في الشرع تربط بقيد من حديد.

لم تتحرك. تحركت الشفتان المرسومتان بلون «تافتست»؛ لون البكارة:

ـ ثمة ما هو أقوى من الحديد. مَنْ غير الدرويش يعرف ذلك؟

ابتسم بحزن. نظر إلى طربوش الرغوة الذي يتوج كأس الشاي. قال بشقاء:

ـ أحسست أن الميعاد لن ينتهي على خير. هل سمعتيه يغني أول مرّة؟

لم تجب. مضى زمن قبل أن تومىء بالإيجاب.

جمع أشلاءه وبعث الحياة في الحطام. قال ببلاهة:

ـ كما هزَّني عزفك على آلة الشياطين. أول مرة أعرف طعماً لهذا الإحساس المجهول.

ازدادت سموقاً وارتفاعاً، رجع الملاك إلى أصله وتحوّل إلى طيف. ارتدى غلالة بيضاء وسكن الضياء.

أفرغ الدرويش حجره من الحجارة وقال بتسليم:

ـ سأبلغه الرسالة.

(١٢)

منذ حلّت لعنة القبلي لم تتمتع الصحراء الجنوبية بهذا الصفاء.

خرج الجلّاد الأبدي من القمقم السماوي واستوى على عرشه في قلب الفضاء. أمر جنده فجلدوا بدن الصحراء العاري بسياط من نار، منفذين طقوس قصاص خالد كتبه القدر على جبين الصحراء منذ خمسين ألف عام.

مشى الدرويش فوق ألسنة السراب. تسللت الرمضاء في ثقوب نعله الجلدي القديم وحرقت لحمة القدم فركع على ركبتيه وزحف نحو جبل معزول نحته الريح وجرّده من النتوءات فبدا مثل قالب السكر الذي يجلبه

تجّار القوافل. جبل حزين مثل كل الجبال في «تـادرارت»، حفر عليـه الزمـان جمالاً غامضاً، حزيناً، ذكّره بالأميرة في وقفتها عندما نطقت عيناها بـالسرّ. لا يعرف لماذا يهزّه هذا الحزن في الجبال، والأشجار، والناس وبقية الأشياء. هل لأنـه يحس فيه سرّ الحيـاة؟ أم لأنه خفي؟ أم لأنـه يذكّـره بعزلتـه عندمـا كان طلحـة عطشى تقف وحيـدة، يائسـة في الوادي القـاسي؟ ولمـاذا يـطير العقـل ويحـرق القلب عندمـا يحلّ في مـلامح امـرأة جميلة مثل الأمـيرة؟ يعـرف شيئـاً واحداً: الأميرة لم تعد امرأة أرضية عندما نطقت عيناها بـالسرّ وامتزج الحـزن في وجهها بالكبرياء.

اشتعل اللهب. بلغ حذاء الجبل. دسّ رأسه في ظل صخرة رفعت رأساً أفقياً مدبباً. نزع نعليه البائسين ونثر على قدميه ماءً من الزمزميـة. ماء يغـلي. شرب من فم الزمزميـة مباشرة فنـزل في جوفـه سائـلاً فاتـراً. سكن النسيم. مات الهواء في الفضـاء. الحر حـرق حتى الهواء. تنـاول نعله ومروح بـه أمام وجهـه ليحرّك الهـواء الميت. فتح فمـه وشهق بصوت عـال كي يلتقط نفساً. هواء.

أوصله الـرعاة إلى «تـادرارت». قضى معهم أربعة أيـام مسيرة الـطريق. تركوه في الوادي وواصلوا رحلتهم إلى «مساك صطفت». قالـوا إنه إذا لم يجـد «اوداد» في هـذه الثغور فلن يجـده في أي مكان. ولكن الجـلاّد اعترضـه منـذ الأصيل؛ جرّد سيوفه من غمدها وسكب أنهار السراب في الصحـراء فتراكض موسى بين الوديان والجبال ولكن لم يعثر لـ «اوداد» عـلى أثر. راقب الصحـراء وهي تـستسلم في أحضان الجلاّد. في الغرب سبحت أشجار الـطلح في أمواج اللهب. وكلما ازداد الهواء موتاً وسكوناً ازداد اللهب تأججاً وجنوناً.

في الشرق والشـمال ارتفعت القمم الجبلية المكـابـرة في سلسلة مـدببـة الرؤوس، تسلم بالقدر في صبر، يرسم عليها السراب أعرافاً خـرافية تتمـوّج وتـرقص بخشوع. أمـا الجبال المعـزولة فسكنهـا الأجداد القـدامى وحفروا في قلبها الكهوف. ثم أحسوا بالوحشة وخاطرهم الحنين إلى المجهول فرسموا على

صدر صخورها الأشكال والألوان والخيالات. عانوا من الأرق في الليل فسلّوا أنفسهم بالخرافات. وما لبثوا أن أضافوا الرسم إلى الجدران. ولكن الحنين الغامض إلى المجهول، إلى الأصل، لم يهدأ فاستيقظوا ذات صباح ووجدوا أنفسهم يرسمون الآلهات والآلهة. اكتشفوا الكنز الذي بحثوا عنه طويلاً فأحسّوا بالسكينة واطمأنوا إلى أنهم قادرون على أن يمهروا لوحاتهم بالتوقيع، فكتبوا التعليقات بجوار الرسوم بأبجدية «التيفيناغ»، ودوّنوا مواقع الكنوز والآبار بالرموز والرسوم والحروف. راق لهم الأمر فوسعوا نشاطهم ووسموا كل صخرة في الصحراء الكبرى ببصماتهم. ولم يكن ليعتقد أحد اليوم أن كل شيء بدأ من مهاجر وحيد يعتزل في كهف ويحاول أن يعبر عن حزن غامض إلى الأصل.

ولم يعرف الدرويش أنه يبعث هذا الدور من الفناء بعد مرور ثمان آلاف سنة على بدء المسيرة.

كان يهجع تحت الصخرة ويحاول أن يلتقط الهواء، الذي قتله الجلّاد بسوطه الناري، عندما رأى المعجزة. حدّق في الصخرة بعينه الحولاء وقفزت الكرة الخاوية في صدره وخفقت. عادت الأحشاء للقرعة الجوفاء وتوقف عن محاولاته في اصطياد نسمات الهواء كما يفعل المصابون بالربو. نهض وأسند جسمه بمرفقيه مستلقياً إلى الوراء: أمامه وقفت الأميرة. نزلت طيفاً من السماوات واستقرّت ضيفاً على الحجر، في الحجر: رفيعة القامة، نحيلة، متكبرة، حزينة. تماماً كما رآها آخر مرة. على شفتيها نفس اللون المدهش، لون «تافتست» البكر، تعويذة العذارى وسرّ الغسق. زحف نحو الصخرة ووضع يده على الحجر. كان الرسم من النوع المجسّم. المحفور في صدر الصخر. تابع تقاسيمها المحفورة بأصابع مرتعشة. رسم العاشق الأول الربة في وضع جانبي، رافعة رأسها في شموخ، تنظر نحو العراء، نحو القمم المكابرة، البعيدة، الكئيبة.

وضع سبابته على الشفتين الملونتين بسرّ الأسلاف، ونزل، مرتجفاً،

بحذر، إلى الذقن المدوّر، ثم الجيد العاجي الطويل. تحسس الصدر النافر فجمد الدم في الإصبع. طارت الأحشاء من القرعة، قفزت الكرة من الصدر، و.. تدفقت من عينيه الحولاء الدموع. استمرّ يتحسس أطراف الربة المحفورة ويسكب الدموع حتى لم يبق عضو لم يتحسسه بيده. الدموع حارة كماء الزمزمية وجسد الربة مشتعل مثل النار.

قرر أن يطفىء لهيب الربة الحجرية بدموع العين الحولاء الحارة كالدم.

بلل سبابته بسائل العينين ومررها على جسد الربة الحجرية. همس بلا إرادة:

- تينيري.. تـ.. يـ.. نـ.. يـ.. ر.. ي.. ي..

(١٣)

«أوداد» أيضاً مسلوب.

كيف استطاع الميعاد أن يسلب الجميع؟ يسلبهم من أنفسهم ويأخذهم إلى المعشوق، وربما إلى المجهول؟ «تافاوت» مسلوبة. في عينيها رأى الاستلاب. والأميرة مسلوبة. نفسها تهفو إلى.. اوداد! وأوخا مسلوب بالأميرة، مأخوذ و.. آخر ما توقعه أن يرى «أوداد» المتوحش مأخوذاً، في عينيه نفس الوميض الذي رآه في عيون الآخرين. وهو؟ هو، الدوريش، أليس مخطوفاً أيضاً؟ تقلّصت الكرة في القفص وتذكّر أن ثمة مخلوقاً واحداً ليس مسلوباً بمخلوق: الربة الحجرية!.

مسح اللعاب وحدّث نفسه بصوت مسموع: «.. ولذلك هي لم تفقد شموخ الآلهة مثل الباقين، مثلنا نحن الذين تعلّقنا بمخلوقات الإنس فوهبناهم أنفسنا. كلنا مطفأون. مأخوذون. الأميرة وحدها ظلت مكابرة، مضيئة مثل الربة الحجرية برغم أنها نذرت نفسها لطائر الفردوس. هل لأن اوداد أيضاً ليس مخلوقاً أرضياً؟».

سحب الهواء الجبلي وصاح بالوحي جملة بعثها أجداده المرابطية فجأة في القرعة الجوفاء: «آخ. آخ. كل مَنْ تعلَّق بامرأة مسلوب. كل مَنْ تعلّق بالذهب مسلوب». كثيراً ما جاء شيوخ القادرية الجوّالون وحدَّثوا الناس عن قدرة هذين الغولين في الاستيلاء على نفوس الناس. وأكّدوا أن الجن تملك المسكون وتسلبه نفسه بالمرأة والذهب. ويروى في النجع أن شيخ الطريقة نفسه روَّج لهذه الدعوة وأنذر الناس وحذّر من هذين الشركين في بداية عهده. ولا أحد يعرف حتى الآن كيف غفل عن المبدأ وقبل ذلك الصندوق المشؤوم من أيدي التجار. ويتحدث أتباع القادرية العابرين عن كيفية التحوّل في النفس وحلولها في الآخر فيقول إنها لا تختلف عن تحوّل الصيّاد إلى ودان أو غزال عندما يحاول أن يصطاد ضحيته في الغسق.

الدرويش نفسه رأى صياداً من النجع انخطف وحلَّ في الودّان! عرف النجع أماسيس أمهر صيادي الودّان. لا يخرج إلى الجبل إلاّ ويعود مُحمِّلاً جَمالَه بشاتين أو ثلاث. وقبل حادثة التحوّل لاحظ الجميع تحوّلاً آخر في سلوك أماسيس: أفرط الشقي في الصيد وأباد القطعان في سفوح «أكاكوس». ولم يعد يكتفي بشاة أو شاتين يقتسمها بين بيته ويوزِّع منها على الجيران ولكنه أصبح يقضي هناك أياماً قد تتواصل إلى أسابيع ويعود مُحمِّلاً جِمَالَه بعشرات الشياه. يسلخها ويملِّحها ويعلِّقها في زاوية البيت لتجفَّ ثم يذهب ويبيعها لتجار القوافل في عراء السوق. توقف عن التصدّق على الجيران. ويقال إنه قتّر حتى على أولاده وبخل عليهم بحاجتهم من اللحم. وأفشت امرأته السرّ للجارات بعد شهور فقالت إن رجلها قرر أن يكون غنيّاً وسيتحقق الحلم قريباً!.

بعد أيام، عند الغسق، عاد إليها أماسيس من «أكاكوس» محشوراً في جلد ودّان أشعث حزين. وقد تدلّت قلادة تعاويذه الجلدية من قرنيه المعقوفين، فطاردته الكلاب فابتعد ولكنه ما لبث أن عاد في الليل. قالت امرأة أماسيس في الصباح إنه استطاع أن يغافل الكلاب ويتسلل عبر الظلمات إلى البيت.

أيقظها وهو يرفس الأواني والصحون ويلعق وجوه الأطفال الغرقى في النوم بلسانه اللزج. ثم اقترب منها وحدّثها بعينيه عن رحلته القاسية وقال لها أشياء كثيرة غامضة لم تستطع أن تتبينها بوضوح بسبب كثافة الظلام.

في الفجر سمعت الكلاب تنبح بشراسة وتطارده نحو «ايدينان» المسكون. فتحت عينيها في قبس الفجر فوجدت في حجرها أحجبة أماسيس!.

أمّا أماسيس نفسه فلم يعثروا عليه في «أكاكوس». تتبعوا الأثر فوجدوا آثار الدم حيث أصاب ضحيته بالسهم. ثم وجدوا ملابسه معلقة على شجرة برية في السفح. جاءوا للعرّافة بعينة من دم الضحية ممزوجاً بالرمل فقالت إنه حاول أن يصطاد أنثى الودّان وهي حامل.

انتظرت امرأة أماسيس رجلها في الودّان. قضت على الكلاب بالسمّ. طافت العراء والوديان، وتسلّقت آكوكاس وفتشت في الكهوف والشقوق والصخور. عادت وأخذت معها الأولاد كي تحرق قلبه وتستدرجه بهم. ولكن الودّان ترك لها التمائم في حجرها و.. اختفى.

قال الرعاة إنهم شاهدوه يعتلي «ايدينان» المسكون ويتسلل عبر الصخور الصعبة ويدخل في الألواح العمودية المنصوبة نحو السماء، فعقّبت العرافة على إفادتهم بالقول: لم يحدث في الصحراء أن دخل مخلوق إلى ذلك الحَرَم وعاد من جديد!

(١٤)

تزحزح قرص النار عن المركز وواصل سفره غرباً. سحب وراءه السياط المفتولة من نار الجحيم فتحرك الهواء والتقطت الصحراء الأنفاس. زحفت ظلال الصخور وتمددت حتى نزلت الوديان. ارتفع اللهب عن جسد الأرض وطار عبر الفضاء في غلالات شفافة كالبخار. خرجت العظاءة من شق في الحجر وركنت في الظل تلهث وتراقب غلالة النار في فزع. استمرت أشجار

الطلح تنحني نحو الأرض المحروقة في تصبر واكتئاب رافضة أن ترفع رأسها، لأنها لم تصدق أن أمر السماء قد صدر بتأجيل طقوس العذاب الخالد إلى الغد. هبَّت نسمة شمالية فحبستها في فروتها لتمتصَّ منها الرطوبة وتستعير منها الحياة. في الأحراش الذابلة الشهباء غرَّد أول طائر برّي بنداء البعث فأيقنت الكائنات في تادرارت أن حبل الحياة لم ينقطع فخرجت، تنادت، رددت البشارة في صلب الفناء لتبرهن أن الحياة حقّاً مستمرة.

(١٥)

جلسا متقابلين على صخرتين فوق القمة. كشف أوداد عن وجنتين بارزتين خاليتين من الدم. سافر بعينيه إلى الأفق البعيد، نحو أقصى الشرق، حيث تنتصب القمة الخفية الأخرى. قال:

- تغيرت كثيراً منذ لقائنا الأخير.
- خي - خي - خي....
- حتى صحتك تغيرت.
- خي - خي.. أنت أيضاً تغيرت. أنت أيضاً ممصوص و.. مسلوب!
- مسلوب!
- وهل يبقى الإنسان إنساناً إذا رهن قلبه عند إنسان آخر؟

هبَّت نسمة شمالية. سحب اوداد نفساً عميقاً كأنه ينوي أن يستولي وحده على الهواء. فتح موسى أيضاً صدره وتزوَّد بنصيبه. ستر اوداد فمه قبل أن يتابع حديثاً توقف منذ أن تلقى البلاغ:

- .. ولكن أوخا يقف بيني وبينها.

اعترض الدرويش:

- ولكنها اختارتك أنت.
- ....

ـ لا أعرف رأي الشرع حرفياً ولكن. .

ـ أنا لا يهمني الشرع. هناك ما هو أقوى من الشرع.

ـ . . . .

ـ هناك النبل. هل نسيت النبل يا موسى؟

نَكَسَ الدرويش رأسه. قال بحياء:

ـ دعِ النبلاء يتحدثون هذه اللغة. لماذا لا تتحدث لغة الأتباع؟ أرى أن هذا أيسر. . .

ـ النبل لغة القلب. الأميرة تفهم ذلك. وسوف تتلقى منّي إهانة إذا تصرفت مع أوخا بلغة غير النبل.

ضرب الدرويش كفّاً بكف. وثب من الصخرة. خاطب الفراغ:

ـ النبل. النبل. آخ. . آخ. . الكل يتستر بالنبل. يسترون عوراتهم بالنبل، يقيسون حتى الأنفاس بالنبل، رجالاً وشباباً، شيوخاً ونساءً، عجائز وأطفالاً. أصابني الصداع.

تناول حجراً ورماه في الهواء. صاح:

ـ سألت الزعيم مرة عمّا إذا كان دستورنا الضائع مكتوباً بلغة النبل فقال إن «آنهي» مكتوب بلغة الحياة التي لا يفهمها إلاّ الحكماء القدماء. لغة أخرى. . .

اقترب من أوداد. أمسك بمعصمه وسأل:

ـ هل تعرف ما هي هذه اللغة، التي سمّاها الشيخ لغة الحياة؟

مسح اللعاب بكمه. ارتجف قبل أن يجد ما حاول طويلاً أن يعبِّر عنه:

ـ لغة الحياة هي لغة الموسيقى. الأشعار. امزاد. لغتك التي تعلمتها من طائر الفردوس. من همهمة الريح في أفواه الكهوف، حفيف النسيم في الطلح

الصبور. خي ـ خي ـ خي . . هي، هي تلك المعزوفة الشجية التي استعارتها أصابع الأميرة من الجنّات. آخ. آخ. أصابني الصداع!.

بصق؛ طارت الأحشاء من القرعة. تقلص القلب في القفص وتحوّل مرة أخرى كرة حنظل. صاح:

ـ لماذا تقيّد نفسك بالنبل كما يفعل البلهاء؟

ـ ناموس الصحراء؟

ـ ليس ناموس الصحراء.

ـ ناموس. . الناس، في الصحراء.

ـ وما علاقتك بالناس في الصحراء؟ أنت ودان الجبل، غزال البرية. طائر الفردوس. لم أسمعك تتحدث عن ناموس الناس قبل اليوم.

ـ ما دمت قررت أن أنزل إلى سهلهم فيجب أن ألتزم بقانون السهل.

ـ هل تنوي أن تتحدّاه في مبارزة؟ خي ـ خي. . أنت لم تستفد من جيرانك الصقور.

ملأ صدره بالهواء. انتصب ونفخ شدقيه كما تفعل العظاءة لإفزاع الصغار ويمم شطر الأفق كأنه ينوي أن يطير أو يقفز من القمة. تمتم يحدث نفسه:

ـ الغناء ناموس الصحراء. والنبل. . لا. ليس النبل. كل أهل الصحراء يخلطون بين النبل والكبرياء. لماذا تسمّي كبرياء هؤلاء المغرورين نبلاً؟

ضرب عمامته الهزيلة، التي يتدلّى طرفها حتى يكاد يلامس الحجارة، بكلتا يديه واستمر في حواره مع نفسه:

ـ ينفخون صدورهم بالكبرياء كما ينفشون أجسامهم بالثياب ويدّعون أنهم يفعلون ذلك حسب شروط النبل الذي ورثوه عن الآباء والأجداد. افتراء. افتراء. هل تدري أنهم يفترون على الأموات؟

عدَّل طرف اللثام السفلي وقفز إلى جوار اوداد في وثبة واحدة:

ـ كذب.. ناموس الأجداد هو الغناء. الأجداد لم يتركوا سوى الغناء وامزاد. لأنهم تعلَّموا ذلك من الصحراء. آخ. آخ.. تتشبه بالمتكبر أوخا الذي يلفُّ رأسه بقطعة قماش طولها سبعون ذراعاً ويقف فوق فوهة البئر منفوشاً كجمل ميت.. خي ـ خي.. نبلكم غدر بناموس الصحراء. الناموس الذي تعلمته من طائر القمم والفردوس.

ـ قلت لك إنها ستحتقرني إذا لم أحتكم إلى الناموس. أنت لا تعرف المرأة.

ـ ومَنْ أخبرك أن ناموسهم مثل ناموسنا؟ هي من آير ونساؤنا من آزجر.

ـ الملثمون هم الملثمون. ناموسهم مستمد من نبع واحد: الصحراء!

ـ لم يستمدوه من الصحراء. حقاً إن عمامة أوخا المهيبة تشبه قمم تادرارت ولكني أرى فيها تطاولاً على القمم. الكبرياء تطاول على الصحراء!.

احترق قرص النار حتى كاد يقطر بالدم. اقترب من حافة الأفق مكسوراً. انطفأ الوهج وفقد الغطرسة وأصبح بائساً، ذليلاً، حزيناً. الصحراء لا تسمح بحال أبدي. حتى الجلّاد الخالد كسرت كبرياءه وجعلته يغرب مكسوراً، محطماً. شقيّاً.

غمغم موسى:

ـ النبل تمنحه الصحراء. والكبرياء يصنعها الناس بأنفسهم ليقيدوا بها أنفسهم. ما تتحدث عنه ليس نبلاً.

توارت الصحراء في غلالة الغسق. نطقت بالغموض.

(١٦)

صام الدرويش.

امتنع عن الطعام حتى برزت عظام وجنتيه. غارت عيناه وبدت العروق

في يـديه كعـروق الأشجار الصحـراوية. أصبـح هيكـلاً من العـظام المتنقلة. استولى الشحوب على البشرة وتخلّى عنهـا الدم. فـاز أيضاً بلون أخضر. نفس اللون المـدهش الذي عـيَّر به «اوداد» وتميـز بـه سكـان الكهـوف في تـادرارت ومتخندوش.

العجائز الفضوليات والمحـترفات قـرأن الإشارة في لـونه المـدهش وأجمعن على أن الدرويش في صيامه لم يخالف سلوك أجداده المرابطيـة (الذين يجـذبون ويضربون صدورهم بالسكاكين ويصومون عن الطعام شهوراً عند وقوعهم في العشق الإلهي)، ولا تقـاليد القبيلة التي يقتـل فيها الشبـاب أنفسهم بـالجـوع حـالما تخفق قلوبهم بعشق الصبـايـا. ولكن لم تستـطع أدهى تلك العجـائــز وأكثرهن خبرة بالحياة والعشق أن تدلَّ القبيلة على مـوضوع عشق الـدرويش: هل هو الله؟ أم مخلوقة أرضية بائسة؟ وتـوجّه الكثـيرون إلى الإمام بسؤال عن رأي الشرع في شرعيـة أن يتخـلّى الـدرويش عن السماوات ويخـالف سـلالـة الـدراويش المرابـطية وينـزل إلى الأرض ليقع في عشق فتـاة حمقاء من النَجْـع تفرح وتحزن، تبكي وتغني، تأكل وتذهب إلى العراء لقضاء الحاجة.

أجاب الإمام الفضوليين بلغة أتباع الـطريقة القـادرية الغـامضة وتحـدث طويلاً عن الحلول، فاتهمه الخصوم بأنـه تعمَّد أن يخـاطبهم باللغـة الخفية كي يخفي السر ويتهرَّب من المجاهرة برأي الحق والشرع خوفاً من أن تصيبـه لعنة المرابطية. الإمام تجنَّب دائماً الإساءة للأولياء والدراويش.

ويعتقـد أهل السهـل أن الدرويش لا يجـوع حتى إذا صام لأن المـلائكـة تتولاه وتطعمه. وما زالوا يذكرون ذلك المريد التيجاني الذي زار آزجـر وظنوا أنه من الباحثين عن الكنوز. تـطاول في آكوكـاس وسكن كهوف تادرارت بلا زاد ولا مـاء. جاء بخـبره الرعـاة فـاستضـافـه الـزعيم آده ونحـر عـلى شرفـه الـذبائـح. جاء الـزنوج بقصعـة خشبيـة مليئـة بـالكسكسي وقـطع كبـيرة من اللحـوم. تحلَّق الرجـال حول ضيفهم وكشفـوا عن الـطعـام ففـاحت روائـح

اللحم حتى أصيب الأطفال واالصبيان بالدوار وبكوا بأصوات مكتومة وهم يختبئون في زاوية الخباء عند الأوتاد وينتظرون أن يفوزوا بالعظام وبقايا الطعام بعد أن حرمهم الجدب من اللحم عاماً كاملاً.

ولكن المريد التيجاني لقّنهم درساً حيّاً في الصبر. نظر إلى الفراغ بعينيه الفارغتين اللتين تشبهان عيون العميان وقال ببرود لا يليق برجل جاع دهراً: «قطعت على نفسي عهداً ألَّا أذوق طعماً لطعام ما لم أعثر على واو. أنا زائر من زويلة. أبحث عن واو. أبحث عن واو». ولاحظ الجميع، بما في ذلك الإمام، أنه كرر «أبحث عن واو» مرتين. ولم يدر أحد يومها أن يوماً سيأتي وستُبعث فيه واو من الزوال والخرافة وتنهض مدينة من الأساطير تروي العطشان وتكسو العريان وتطعم الجائع وتنقذ التائه من الضياع. يومها أضاف الضيف عبارة لا تقل غموضاً عن بحثه وراء واو المجهولة. قال: «الوجد والشبع لا يلتقيان. وأنا اخترت الوجد».

وبرغم ذلك لم يجد. لم يجد واو ولم يجد الله. ربما لأنه أخطأ التوقيت وسبق الزمن الذي حدده القدر لبعث واو من المجهول في صحراء آزجر. فقد تدحرج من رأس الجبل في «مساك صطفت» وسقط بجوار موقد الرعاة عند السفح، ميتاً.

ولم يبق من ذكراه إلَّا تلك الأسطورة الشيقة التي قصّها على الزعيم وبث فيها حكمة الجوع. قال إن الذئب إذا شبع بكى بكاءً مرّاً واستولى عليه الشقاء، لأنه يعلم أن العاقبة هي الجوع. أما إذا جاع فيضحك ويملأ الوديان والسهول بالقهقهة، لأنه يعلم أن الجوع سيليه شبع يوماً ما! وعلّق المريد على نص الأسطورة فقال: «كلما توغلت في الجوع أحسست أني أقترب من يوم الميعاد في واو».

ولكن ثمة مَنْ طعن في موهبة المريد الفاضل وقال إن الأسطورة مستعارة حرفياً من «آنهي».

(١٧)

بعد أيام من الصفاء عادت السماء وتحجبت بالغبار.

جاء آخماد إلى خيمة الزعيم. وجده يتربَّع وحيداً في المدخل ويـراقب، في خشوع، الغمامة الرملية التي تحوم حول رأس «ايدينان» المسكون.

جلس بجواره وسكت طويلاً. أذن له الشيخ بإشارة من رأسه فتكلَّم:

ـ الدرويش سيموت.

استفهم الزعيم بالإيماء فأوضح آخماد:

ـ لا أحد يعرف متى ذاق طعاماً آخر مرة. قالت المربية الزنجيـة للعجائـز ان أصابع العرّافة وراء بلواه.

عوّى الريح بموجة وحشية. انتصب بينهما العجاج. واصل آخماد:

ـ قالت أيضاً إن مـوسى يهذي بـربة حجـرية ولا يـريد أن يغـادر الرابيـة المجاورة للبئر، من ناحية واو.

ـ . . . . .

ـ قالت أيضاً إنك الوحيد الذي يستطيع أن يقنعـه بأن يكسر صيـامه عن الطعام والكلام. إنه يرفض أن يردَّ عـلى توسـلات أهل السهـل. حتى الإمام فشل في أن يجبره . . .

قطع آخماد إيضاحه وأنصت للريح. رفرفت أطراف الخيمة وتوثبت لكسر القيـد والانطلاق في الخـلاء. نزلت غـلالة أرجـوانية ظلماء. عمَّتِ الصحـراء الكآبة.

نهض واقفـاً. أحكم زمالتـه السوداء حـول وجهه وتمهَّـل لحـظات. تمتم بالوداع ولكن الزعيم عاد إلى الخشوع وراقب الفراغ.

تحت الرابية، عند كوم الحجارة المصقولة بسيول الزمان القديم، جلس الدرويش. حوله حامت أشباح نساء وصبيان. بكى طفل وعبث الريح بثياب النساء، الواسعة الأكمام، فصفقت ببطء كأنها أجنحة الغرانيق العابرة، فأصبحت النساء منفوشات مثل القرب المليئة. عرفن الزعيم فتقاربن بالرؤوس وابتعدن عن الرابية.

وقف الشيخ فوق رأس الدرويش.

جلس أمامه على رؤوس أصابعه. تابع موجات الغبار وهي تصفع وجه موسى الذي انحسر عنه اللثام وتَلجُ فمه وتتيّبس حول شفتيه. قال الزعيم أخيراً:

- هل أنت شقي؟

لم يجب. أمسك الزعيم بمعصمه. أدخل يده تحت العمامة وتحسس جبينه. أنزل يده إلى الأرض وحساها في التراب ليمنع الداء من الانتقال. قال بلغة خفية:

- لن يفتح الجوع لك أسوار واو. أنت تعرف ذلك.

أقام الريح بينهما ستاراً. انتظر الزعيم حتى مرَّت الموجة فاستمر:

- مَنْ منّا لم يبحث عن واو؟ أنا أيضاً بحثت عنها يوماً ما. هذا سرّي..

ضرب صدره بقبضة يده وأعلن:

- وإذا لم تعثر عليها هنا فإنك لن تجدها في أي مكان حتى لو صُمْتَ ألف عام.

استمرَّ الدرويش يحدِّق في الفراغ والغبار.

قال الشيخ بحزن:

ـ لم تستطع امرأة في الصحراء أن تملأ الفراغ الذي يحاول الرجال الحقيقيون أن يملأوه بواو. حتى المريد التيجاني فشل وسقط ميتاً. أنت تعرف قصته.

بدأت الظلمات تحجبهما عن بعض.

صمت الزعيم.

ولكنه ما لبث أن اقترح:

ـ ستذهب معي الآن وسنتحدث عن واو. واو التي في صدر كل مخلوق و«واو» الأخرى التي نبحث عنها في الصحراء الأبدية.

لم ينطق الدرويش. ولكن الزعيم لاحظ، رغم كثافة العتمة، خيطاً شقياً يفلت من عين موسى ويخترق طبقة الغبار فوق الوجنتين.

(١٩)

قطّر الزعيم مراهم الأعشاب في فمه وسهر على رأسه حتى آخر الليل. وعندما اقترب الفجر وأسند الشيخ ظهره إلى الركيزة لينام زاره ملاك في القبس البكر ووخزه بسبابته الشفافة تحت السرّة وأخبره أين يرقد المرض.

سقاه الزعيم شاياً أخضر في الصباح ومكث في رعايته ثلاثة أيام أُخرى. بعدها سمح له بالخروج. هام مع المساء في الخلاء. أرخى القبلي قبضته على سماء السهل فتباعدت حملات الغبار وخفتت سرعة الريح. أنصت لغمغمات الجن في «ايدينان». تلا ذلك عواء فاجع بعيد لذئب جائع.

خرج «ايدكران» من ظلمات السفح الرهيب. عبثت الهبّات المتقطعة بأسماله البالية. استوقفه مواسياً:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ ه... ماذا فعلت واو المشؤومة بدرويش القبيلة؟ ماذا فعلت واو آير بقلب موسى الرحيم؟

ـ وهل واو في آير؟

ـ واو في كل مكان. في كل الصحراء.

ـ وهل تبحث في صحرائنا عن واو أيضاً؟

ـ ومَنْ منّا لا يبحث عن واو؟ واو... واو. تُبعَث مرة واحدة في ألف عام. وربما في عشرة آلاف. ولكني أحرص ألاَّ أخلط بين واو الحقيقية و«واو» المزيفة.

ـ أنت حكيم. أنت لا تشبه الباحثين عن الذهب.

ـ عندكم في آزجر أيضاً تقولون إن واو ثلاث. اثنتان معروفتان والثالثة هي الخفية.

ـ لا يتحدث الباحثون عن الكنوز بهذه اللغة. مَنْ أنت بالله؟

ـ ... وأنا أقول إن واو اثنتان فقط. واحدة تلك التي يعرفها الجميع. والثانية واو الفردوسية، الخفية، التي لن تستطيع أن تجدها في ضلوع امرأة! آ

ـ آ ـ ه.. نبحث عنها في أقاصي الصحراء وهي أقرب لنا من حبل الوريد.

ـ عجيب! ألست أنت الذي زرتني في بيت الزعيم في الفجر؟

ـ بين الضلوع يرقد فراغ سرّي لن تملأه امرأة يا موسى. ما أشقى الدرويش إذا عشق!

ـ عجيب..

هبَّ غبار كثيف فحجبهما بالعتمة. سأل موسى:

ـ ألا تخشى تنكيل الجن يا ضيفنا الجليل؟

ـ لا يخشى الجنّي الجان.

ـ عجيب..

نزل حجاب الظلمات. تراجع الزائر الغامض وصعد الكهف الرهيب. تابعه الدرويش حتى ابتلعه الحجاب الفاحم. سمع عواء الذئب الفاجع وعلت همهمة الأشباح في القمة.

(٢٠)

في نهار اليوم التالي ذهب إلى البئر. وجد أوخا ما يزال يناوب على الفوهة. لجأ إلى المجاز كي يستفزّه:

ـ انتصب مارد الجان بين السماء والأرض وانتظر أن تتخذ العرّافة التدبير وتقيّد الريح كي يهنأ بعروسه. خي ـ خي ـ خي ـ خي.... انتظر المارد الفرج طويلاً ولكن العرافة لم توفق.. قلب المارد يحترق. خي ـ خي..

مسّ الاستفزاز أوخا. رفع رأسه إلى السماء المتجهمة وتكلم بنفس اللغة:
ـ قلب الدرويش احترق قبله. أراهن أن هذه أول مرة تشهد فيه الصحراء درويشاً عاشقاً.

انزعج موسى. مسح اللعاب بكمه ووجّه نحو غريمه عيناً حولاء:

ـ مَنْ قال إن الدرويش عاشق؟ الدرويش لا يعشق. الدرويش لا يعشق سوى الله. هل سمعت؟

ولكن أوخا لَكَزَ آخماد بمرفقه وانطلق في ضحكة مكتومة.

كانا يقفان على مسافة قصيرة من الفوهة حيث تجمع الزنوج والأتباع لشدّ عنق البئر إلى أعلى صوناً له من غزوات الغبار.

أحسّ موسى بالصداع، وتقلصت الكرة في قفص الصدر. الوجع جعله يعاهد نفسه ويخاطبها قائلاً: «هذا يكفي. يكفي. انتهى...». تراجع. صعد المرتفع. سمع الجماعة يقهقهون بأصوات عالية، كريهة.

(٢١)

ذهب إلى آكوكاس. اعتكف في كهف ثلاثة أيام. ركع تحت الصخور وتوسّل للآلهة المحفورة في بصمات القدماء أن تطفىء الجمرة الوحشية في صدره. تمرّغ في التراب المقدس مثل الجذع وراقب الأشباح الجليلة، الغامضة

في سقوف الكهوف. هم أيضاً ينظرون إلى الفراغ، إلى الأفق البعيد، مثل الربة الحجرية في تادرارت. لا. ليس إلى الأفق البعيد. إلى أبعد من الأفق البعيد. إنهم يحدِّقون في المجهول. في السرّ الذي نقتل أنفسنا بحثاً عنه. إنهم يحدقون فينا. يروننا ونحن لا نستطيع أن نرى أنفسنا. في وجوههم حزن ورحمة. جلال وسخرية. تلك التعابير التي تنطق بها ملامح أب عرف الحقيقة وبخل بها على ابنه شفقة عليه. هم الآباء ونحن أطفالهم الأشقياء.

ساعديني يا آلهة الأجداد القدامى...
من هناك عاد الدرويش بالوحي...

(٢٢)

تربّص بالعرّافة.

حام حول بيتها المنصوب تحت الرابية شرق النَجْع. خيمتها مرقعة وملفقة من قطع نسيج مختلفة. شريحة منسوجة من وبر الإبل، شهباء، متآكلة نهشها الغبار والشمس، تخرق الخيمة وتشطرها نصفين. ثم تليها ثلاث قطع منسوجة من شعر الماعز الأسود، بادت أيضاً وبهتت وامتصّ شعاع الشمس لونها الداكن. ثم يمتد شريط من الجلد باهت، موسوم برموز وتعاويذ وخطوط غامضة لا يعرفها إلاَّ العرافون. أما من الجانبين، عند الركائز الجانبية، فألحقت بالخيمة قطع مختلفة من الخرق البالية والقماش الرثّ وبقايا الملبوسات البائدة.

هذا المزيج الغريب من الرقع صنع من خباء العرَّافة بيتاً فريداً ومميزاً يثير سخرية المكابرين المستهترين، ويزرع الخوف في قلوب المؤمنين الذين يخشون السحر ويتجنبون العرَّافين.

راقب «تيميط» وهي تحمل أطباق الرماد من الموقد وترميها في العراء المجاور. اقتفى أثرها عندما ذهبت لزيارة «تامغارت» في المساء. لم يدخل

الخبـاء في غيابهـا. انتظر أيـاماً، حتى ذهبت الـزنجية الفـظيعـة إلى واو لتؤدي زيارة إلى الأميرة.

مسح اللعاب. بصق التراب. ضرب جبينه بقبضته وضحك قائلاً لنفسه إن زيارتها ستـطول. تسلل في العتمة ودخـل الخباء المعـطر بالبخـور والجاوي والأعشاب البريـة و. . رائحة أخـرى، حادة، استفـزازية، غـامضة. رائحـة السحـر؟ أم رائحة الحليب السـماوي الذي تحلبـه العجـوز من ضرع النجـوم لتسقي بـه صغـار الجن كي يكشفـوا لهـا حجــاب المستقبـل ويخــبروهـا بسرّ المجهول؟

(٢٣)

وجـدها مـطمورة تحت الـركيزة. تيميط لا تختلف عن عجـائز القبيلة في هذه الحيلة. العجائز يدفنَّ أشياءهن الخفية تحت الركيزة حتى لا تصلهـا أيدي الصغـار. أخفت العرّافـة أيضاً أخـطر سلاح تحت الـركيزة كي لا يقـع في يد الأعداء. ها ـ ها. . وما الفرق بين صغـار العجائـز وأعداء العـرّافة الكبـار؟ كلهم أطفال. الرجال أيضاً أطفال كبار. ولكن الـدرويش ليس رجلاً. هـا ـ ها. . متى عاملت قبائل الصحـراء دراويشها عـلى أنهم ذكور ورجـال؟ ها. . سحب المقبض الجليل من الغمد الموسوم وتـابع خـروج الثعبان المتـوحش من جحـره. مديـة العرافـة. سـلاح الأسـاطـير. السمّ المجسَّم. تمـائم السَحَـرَةِ الخـرافيين في «كـانو». التعـويـذة السـريّـة التي تحيي وتميت. تحيي المجـاذيب وتعيد المصاب بالوجد إلى العقل والصواب. السلاح الشيـطاني الوحيـد الذي يقتـل غيباً ويصيب العـدو على مسـيرة أربعين يـوماً. السـلاح الوحيـد الـذي يتجاسر نصله المعتم في أن يدخل نحر العـرّافة. هـا. . العرافـة أخذت السرّ من شفاه النجوم والإيحـاء الخفي الذي يهمهم بـه الخلاء الممـدود. ويُقال إنها بعثت مع تجار القوافل هدايا سرية إلى العرّاف المجوسي في «كانـو» فأرسـل لها الحصن محفوراً في المدية وحذّرها بلغة الإشـارة والرمـوز أن يقع في يـد الإنـ...

الأعداء. لأن في المدية يكمن سرّ تيميط. حياتها رهينة بصون المدية والمحافظة عليها، ومماتها في فقدانها ووقوعها في يد العدو. الجنّية! ها.. وقد انكشف السرّ بمشيئة الصدفة. إذ اختلق لها القدر شجاراً حامياً مع امرأة شرسة من قبائل الأتباع، اتهمت العرّافة بأنها تآمرت مع ضرّتها وأطعمتها سحراً جعلها لا تتوقف عن تجشؤ رائحة كريهة كي ينفر الزوج المشترك ويفرّ إلى الضرّة. كن يتمتعن باحتساء الشاي الأخضر في ظل العشية ببيت «تامغارت» عندما فوجئت بهن المجتمعات تتبادلان الاتهامات وتتنابزان بالألقاب. لم تمض لحظات حتى تشابكتا بالأيدي. غرست العرّافة سوارها الفظيع، المصنوع من سن الفيل، في رقبة عدوتها وهي تشدُّ شعرها باليد الأخرى، فتجعل نحرها بارزاً وعينيها الجاحظتين تصعدان إلى السماء، وتواجهان أشعة الشمس الوحشية. الوضع لم يدم طويلاً. فوجئت العرّافة التي كانت حتى ذلك اليوم تجهل براعة الأتباع في فن العراك، بيد المرأة تتسلل تحت كمها الواسع وتصل إلى نهاية الذراع، حيث ثبتت المدية بسوار متين منقوش من جلد الأفعى. سحبت المقبض فخرج المارد من القمقم ورأسه المدبب الشره يتوق للدخول في غمد آخر أكثر دفئاً: لحم بني آدم!.

في هذه اللحظة فوجئت الحاضرات (اللاتي حاولن الفصل بين الغريمتين طوال الوقت) بالعرّافة تنهار وتتخلّى عن رقبة المرأة. قفزت برشاقة صبية واحتمت وراء عجوز معمِّرة تجاوزت المائة عام وقد شحب لونها الأسود وبهت وأصبح يميل إلى البياض. ظلّت ترتجف كالطفل وهي تهمهم بالتعاويذ. ولم تطمئن وتتخلّ عن لحاف المعمرة المقدس إلاّ بعد أن أعادت لها النساء مديتها الخفيَّة، وباشرن في الوساطة لمصالحتها مع الخصمة العنيدة.

توقفت تيميط عن حمل سلاحها تحت الكم الفضفاض وبحثت، منذ ذلك اليوم، عن مكان حصين يحمي المدية السرية من أيدي الأشرار.

سرق الزيت من زنجيته العجوز. انتظرها حتى خرجت لتحلب الأغنام في القبس البهيج فزحف إلى زاويتها وصبَّ السائل الجبلي الزكي في الزمزمية. زيت الزيتون. تقول الأساطير إنه يسقط من الأشجار الفرعونية الهرمة، الجليلة، المنتشرة على جبل نفوسة مثل نجوم سوداء. حبات داكنة في مسبحة الرسول. معصور بأنامل صبايا شهيات، يحمله تجار القوافل إلى الجنوب ليقايضوه في تينبكتو وكانو بوزنه من هباء التبر. عجوزه الزنجية قايضته بثلاثة أضعافه من السمن الصحراوي. من سمن الصحراء تفوح أزهار الرتم ومن الزيت الجبالي نجوم الفراعنة السوداء وحبات الصندل والمسك التي انفرطت من مسبحة الرسول.

حمل متاعاً وخرج إلى العراء مع المساء.

جمع حطب الرسو وأوقد النار. هدأ الريح. طوّقته الظلمات. جاء بثلاثة أحجار. نصبها بجوار الموقد على هيئة مثلث. وضع قدر الفخار فوق الحجار وصب الزيت من الزمزمية في القدر. سحب نفساً زكياً. عبق زيت الخرافات في الخلاء الميت، المظلم، الغامض. ذكرته رائحة الزيت بالختان. المدية أيضاً ذكرته بالختان. أنجبته أمّه معلولاً، نحيلاً، ذابلاً. كبرت معه العلّة ورافقته في السنوات الأولى فرفض الإمام إجراء العملية خوفاً عليه من النزيف. بلغ الحادية عشرة فقبل الإمام وأعطى الإشارة. أعدّوا العدّة وجهّزوا الخيمة. صنعوا له عرشاً من الرمال كالذي يبنونه للعرسان. غرسوا حول العرش المدي والسكاكين والسيوف كي يرهبوا الجن ويجبروهم على التراجع عن نيتهم في الاختطاف. جاءت النساء في زرافات سوداء وتجمهرن أمام الخيمة يقرعن الطبول ويملأن السهل بالزغاريد. اعتصم الصبيان بزاوية الخباء واقتربت من عرشه عجوز تباوية ترطن بالتعاويذ الوثنية بلغتي التبو والهوسا. ثم طوّقت معصمه بسوار من الجلد علّقت فيه صرّة من الشيح لإرهاب أهل الخفاء

أيضاً. خرج. فدخل الإمام وعلّق في رقبته قلادة من التمائم المدسوسة في جلود الغزلان. رفع يده اليمنى عالياً وقصّ الهواء بالمقص البشع المخصص لجزّ الماعز وخصلات شعور الصبيان المقبلين. دخلت امرأة حمقاء يراها لأول مرة تحمل عموداً من الطلح المصقول هزّته أمام وجهه فرأى في راس العمود ربطة من سيور الجلد وقطع النحاس والخرز الملوّن. أدخل الإمام يده الخشنة تحت سرّته وأمسك بالعضلة. صرخ. هزّت المرأة الحمقاء العمود أمام وجهه فبعث الخليط العجيب صوتاً كحشرجة المخنوق فضحك رغماً عنه. في تلك اللحظة تعانق شقا المقص حول رقبة العضلة وأحسّ بالوخز وسائل حار، لزج، يسيل على فخذيه.

صرخ فابتلعت الزغاريد صرخته. عزّته المرأة الحمقاء وصاحت بالبشارة:

- إبكِ. إبكِ يا درويش فأنت اليوم ملاك طاهر!

(٢٥)

ولكن الطهارة لم تتم. الغشاء المقطوع من عضلة الإثم، من عرق الشيطان، لم تكن كافية لتطهير البدن النجس بالشهوات. الجمرة المشتعلة بالرغبات تحرق الرأس وتحوّله قرعة جوفاء. تأكل شرايين القلب ليستحيل كرة خاوية من الحنظل. تطير بالعقل وتصنع واحة من الأوهام تنافس واو في الثراء والسخاء والجمال فتخلق من امرأة أرضية برونزية تتنفس وتأكل وتقضي حاجتها، ملاكاً سماوياً... ربّة جبارة تستقرّ بكبرياء في الحجارة.

عرق الشيطان...

عضلة الإثم...

لعبته مع النبلاء البلهاء أدهى. العرق الشيطاني هو الذي يلعب برؤوسهم ليلفّوا أنفسهم بقناعين مهيبين: قناع حول الرأس وقناع حول القلب. البلهاء يلفّون القلب المسكين أيضاً بقناع ليسمّوا ذلك نبلاً. خلقتهم

الصحـراء طلقـاء ففضلوا أن يخـترعـوا الأصفـاد لأنهم لم يجـدوا في خـلاء الله الواسع قيداً واحداً يكبِّلهم. لم يجدوا جداراً يستعبدهم فاكتشفوا شعائـر النبل ونسبوها إلى «آنهي» المفقـود. لم يكفهم هذا القيـد فعبدوا صنـماً آخر: ركعـوا للنساء وزحفوا على بطونهم عند أقدام الصبـايا. خـاضوا حـروباً قبليـة وشنوا غـارات ظالمـة على الجـيران وتنادوا في تحـالفات قبليـة واسعـة النـطاق ليغـزوا الأدغال ويعودوا بالسبايا الزنجيات والخلاسيـات الحبشيات. البلهـاء. أشعلوا في الصحراء ناراً بـدافع من عـرق الشيطان. ولكنهم لم يحققـوا النصر لأنهم لم يعـرفوا كيف يمـلأون الفراغ. حتى الحكـماء نسوا أن عضلة الإثم هـاويـة لن تشبـع بنساء القبيلة. لن تـرويها كـل نساء الصحـراء. لن تطفىء نهمهـا كل سبايا الأدغال. لأن النهم. . . لأن الخواء الأبدي في العرق نفسـه، ولن يفلح مخلوق ما لم يجد الشجاعة في نفسه ويستلّه من أصله كما يستلّ الرعـاة جرجـير الحمادة.

هذه هي الرجولة يا أوخا. هذا هو النبـل يا أوداد. هـذه هي الحقيقة يـا آخماد. .

النبلاء هم: الخصيان! ها ـ ها. . وحدهم الأطهار. النبـل في الطهارة. ها. .

(٢٦)

ابتلع الصحراء سكون ما قبل آدم. السكون البكر، المجهول الذي يـلي الفناء أو يسبق الخلق. في رأس الشعبـة الصاعدة نحو ايدينـان المغدور وقفت طلحة وحيدة، غامضة، حائرة، ضائعة في ظلمات الصحراء وسكون الزوال. تبدو فروة رأسها العتماء، في ضوء النار، مثل عمامة لزائر من أهل الخفاء. في جوارها أحس موسى بسكينة.

طقطقت النار وهي تأكل عظام الرتم وجرحت حرم السكون الأزلي.

في الجنوب، ناحية الجبل، ارتفع عواء [illegible] جائع.

سحب المقبض من الغمد فخرج الثعبان النهم من جحره السرّي. أطلّ كاهن الأدغال من معبده الوثني. رأى في لسان المدية المعتم، المبهم، سورة التمائم. تعاويذ ألف عام. صيحات قبائل الأدغال.

نزع السروال.

تضاعف السكون. سكون زمان لم تجف فيه الحجارة. زمان يعرفه بالإحساس ولا يعيه بالعقل. الزمان الضائع الذي بحث عنه دائماً. زمان لم تنفصل فيه حواء عن صدر آدم، ولم ينفصل فيه آدم عن صدر الأرض. الزمان الذي لن يعود إلاّ إذا قضى على عضلة الإثم واستلّ عرق الشيطان من جذره، تماماً كما يستلّ الرعاة جرجير الحمادة الحمراء.

ركع على الحصى. غاصت الركبتان في التراب الرحيم فشعر بعزاء. تشجّع. رفع رأساً حاسراً نحو السماوات الظلماء. قبض على المقبض السحري بقوة. قرّب لسان الثعبان الخرافي الشره إلى العرق الشيطاني الذي طيّر عقل بني آدم وصنع منه دمية بلهاء في يد ضلع طائش!

رأى النجوم. الزيتون الأبيض. جليس المعزولين. دليل الضائعين الأبديين في صحراء الأرض وصحراء السماء.

أغمض عينيه ونزف العرق. حبس أنفاسه وجرّ النصل الشره على رقبة الشيطان. زلزلت الأرض. رأى جمهرة النساء المتشحات بالسواد. هزّت المرأة الحمقاء جذعها المتوّج بالنحاس والخرز وصاحت بالبشارة: «ابكِ. ابكِ يا درويش فأنت اليوم طاهر!».

زغردت الجنيات في ايدينان المسكون. انحنت الطلحة الضائعة وأزالت الألم بلمسة سحرية. زحف. السائل اللزج يغمر فخذيه. أمسك قدر الزيت بكلتا يديه. اندلق. ولكن قوة ماردة مدّته بالشجاعة فصمد حتى غمر جرحه بالسائل الحارق.

انهار على قفاه

شمّ مزيجاً من الدم والزيت الزيتوني، الفرعوني.

سمع زغرودة الجنية الحسناء في ايدينان.

ارتفع عواء الذئب الفاجع.

غاب في الظلمات والسكون.



القسم الثاني

١ ـ حلمة الأرض

انطلق المهاجران في مسيرة العبور
قطعا مسافة. بدأت المتاهة
توجه الأول بطلب إلى السماء:
«ربِّ هبني جرّة مختومة من ذهب»
فتودّد الثاني وركع بدعاء:
«اللّهم هبني جرّة ماء».

* * *

امتدّت الصحراء
حرق قرص الشمس الأرض
اشعل النار في السماء
انهار الأول في منتصف الطريق
دسَّ رأسه في كنزه،
فعجز التِّبر أن ينقذ قلبه من الحريق

* * *

بلغ الثاني واحة المحال
يحمل في القلب جرعة الماء
وفي اليد الأخرى جرّة المال.

إبراهيم الكوني ـ «أسطورة»

(١)

نشب الخلاف حول البئر مع حلول الخريف.

عاود العجاج حملته فأمر الزعيم بإيقاف تقدم السور. حاول أوخا أن يقنع أتباع السلطان بالتوقف ولكنهم احتكموا إلى السلاح وتناوشوا مع رجاله بالسيوف. تدخل الزعيم وبعث الإمام رسولاً إلى سلطان واو. استدعى أوخا واختلى به في الخيمة. في المساء عاد الإمام من مهمته في واو فعقد الزعيم اجتماعاً للشيوخ.

جلس الزعيم بجوار الركيزة. تربَّع على يمينه الإمام. على الكليم تحلق الشيوخ. في الزاوية جلس الزنوج والأتباع وانهمكوا في إعداد الشاي.

في الخارج توقفت الريح عن العواء واكتفت بالغارة في أنفاس قصيرة، متقطعة، كأنها تريد أن تقول شيئاً، كأنها تريد أن تحاور العرَّافين وتخبرهم، بلغتها الخفية، عن سرّها، عن سبب إصرارها على غزو السهل في السنتين الأخيرتين. لأن لغة الريح يسهل فهمها حتى على الأطفال عندما تصبح ضيفاً مقيماً على أهل الصحراء.

رشف الإمام الرغوة من كأس الشاي. سحب لثامه الناصع على أنفه المعقوف كمنقار الصقر فعاد اللثام وانزلق إلى الفم. تكلّم:

ـ قال إن واو لن تبق بلا سور. الأسوار درع المدن. وإلاّ فلا يوجد فرق

بينها وبين واحات «تارجا». المدن منيعة بأسوارها، والواحات مفتوحة على الصحراء من جهاتها الأربع..

تبادل الشيوخ النظرات خلسة. واصل الزعيم رسم رموزه فوق الرمل بجوار الركيزة.

رشف الإمام الشاي وأحكم زمالته المهلهلة بطي الطرف المدلى خلف أذنه.

قال:

ـ قلت له إن البئر شريان حياتنا، فأجابني بأن السور لن يكون سوراً إذا بقي البئر خارجه. قطع على نفسه عهداً أن يتركنا نرتوي ونسقي إبلنا وأغنامنا في أي وقت، كما اقترح أن.. أن نتنازل عن كبريائنا وندخل المدينة..

هتف الزعيم

ـ ندخل المدينة؟

ـ نعم. يعرض علينا أن نستقر ونقيم في الديار والجدران.

ضحك الزعيم ضحكة عصبية، غامضة. تكلم شيخ نحيل بارز الوجنتين، متغضن الجفنين يجلس بين شيخين منكفئين نحو الأرض. قال بهدوء:

ـ لو كنا نريد أن نستقرَّ بأرض لفعلنا ذلك منذ سبعة آلاف عام. لو كنا ننوي أن نبرك بين الجدران الخرساء لبنينا مدناً أجمل من تينبكتو، مدناً حقيقية لن تنافسها سوى واو الحقيقية، لا واو المزيفة التي يريد أن يغرينا بها ليحبسنا كالعبيد. المجوسي. إنه مجوسي!

تشجَّع الشيخ الذي جلس بجواره فرفع رأسه المزمل بلثام أسود وتوعَّد بسبابته:

ـ لماذا لم تقطع رأسه؟ يأتي وافداً غريباً ونعطيه الأرض والماء ثم يتجاسر ويستولي علي القرية وعلى الوادي. أصبحنا غرباء في صحرائنا وأصبح اناي سلطاناً على السهل وعلى آزجر. بدأت أيضاً أشك في أنه مجوسي.

صاح الشيخ الآخر الذي جلس على يمين العجوز:

ـ قلت كلمتي منذ اليوم الأول. قلت إما أن نترك له السهل ونرحل إلى تادرارت، أو مساك، أو نشيعه هو إلى «تارجا» أو نحو الحمادة. والنحس الذي جلبه لصحرائنا لم يبدأ اليوم. جاءت معه ريح لم نعرفها من قبل. سوف تطمر البئر اليوم أو غداً. وسواء استولى على البئر أو لم يستول فإن ريحه ستستولي على ما عجز هو عن الاستيلاء عليه. لقد خالفنا تعاليم أجدادنا التي حدثنا بها «آنهي»: أهل آير سَحَرَة يسخِّرون كل شيء: الريح والمطر والحجارة والشجر.

رفع الزعيم يداً نافرة بالعروق، مرسومة بالغضون فسكت الشيوخ. وجد فرصة عندما جاء ذكر الدستور الضائع فقرر أن يتخذه مدخلاً كعادة الحكماء:

ـ لا أعرف عمّا إذا كان «آنهي» قد حذَّر حقاً من أهل آير بالذات أم أنه حذَّر من الغرباء إجمالاً. ولكن ما أعرفه يقيناً أن آنهي قال إن قلب الغريب يحمل سراً. نحن أذنّا له ولقومه بالإقامة لأننا لا نستطيع أن ندّعي لأنفسنا ملكية صحراء الله الواسعة. ومنحناه الماء لأن آنهي نفسه، الذي تقولون إنه حذَّر من الغرباء، سطّر في أولى الصفحات تحذيراً أقوى يقول: «إذا منعت جرعة الماء عن عابر سبيل منعتها الصحراء عنك».

تهدّل لثامه الأزرق فرفعه فوق الأنف. استمر:

ـ كثيراً ما وقع المتبرعون بالماء ضحايا لقطاع الطرق. يهرعون إليهم بالماء وهم يموتون عطشاً وعندما يرتوون وتدبّ في عروقهم الحياة يعود الشيطان يسري في نفوسهم مع الماء فيقتلون اليد الإلهية التي منحتهم الحياة. فهل

يضيرهم أنهم وقعوا ضحايا وشهداء؟ لا تفهموا أني أدعو للتسليم في البئر ولكن «آنهي» دعا في كل سطر من سطوره إلى لغة المحاورة والاحتكام إلى العقل . .

سكت ثم اقترح في النهاية :

ـ أمهلوني قليلاً . سوف أحاوره بالتي هي أحسن .

جاء تابع يوزِّع الدور الثالث من الشاي . في الزاوية خفتت جذوة النار . في الخارج سكت الريح كأنه يتصنت ويتجسس .

(٢)

بماذا تتمتم شفاه الريح؟

تتحاور مع الجان في تجاويف الصخور وبين ألواح ايدينان . تنفخ أشداق الثياب والأكمام وتملأها بسرّ الصحراء . تعوي في الخلاء بفجيعة الذئاب الجائعة لأنها أيضاً جائعة . تتحرَّق للنيل من ضحايا المجهول . تداعب الرملة اللعوب وتزرع على وجهها الموج والغضون والتجاعيد . تسطِّر الرموز على التراب وتحفر الرسوم لتنافس أنامل الأولين المبدعين الذين نقشوا الشِعْرَ مجسّماً على الحجر .

الريح . .

بأي سرّ تأتي الريح؟

تتحدث بلغة يفهمها الأطفال . تهمس في أذن الرضيع بسرّ الصحراء ، بسرّ الماء . تنقل أسفارها من بحر الرمال العظيم لتبني بحراً أعظم من الرمال . تطيح برابية ذهبية هنا . تنثرها . تذروها وتحوِّلها هباء في الفضاء . ثم تعود وتخلقها من الفناء لتصنع رابية أجمل في مكان أبعد . تطير باللقاح وتتوسَّط بين ذكر النخل وأنثاه وترتِّب اللقاء المستحيل للعاشقين . يتزاوجان عن بعد فتولد الحياة في عراجين كعنقود نجوم «بنات النيل» في الليلة الظلماء .

الريح . . .

رسول المجهول إلى نجوع أبادها الوباء. تغسل الصحراء من داء أنهك الشيوخ والأطفال. تعزّي هياكل العَجَزَة وتهرع لنجدة الرضيع. تقتل الغول وتعطي الأبرياء الشفاء والحياة.

الريح . . .

قدر الصحراء. تمحو الأثر وتحجب واحات النجاة. فيضيع المهاجر، ويموت بالعطش وهو يعوم في ماء السراب. ولكنها تلقيه أيضاً في أحضان واو المفقودة عندما تشاء.

الريح. رسول القدر إلى صحراء البشر، تختار منهم قرابين تقدمهم طعاماً للآلهة.

لماذا تقسو الريح فتطمر حلمة الأرض وتقتل المياه في الآبار؟

لأن يد الريح هي اليد الوحيدة التي تحفر اليوم ما طمرته في رحلة الأمس.

أمَّا لماذا تقتل نجوعاً اليوم لتحي قوماً في بطن المجهول غداً فذلك سرّ تعرفه الصحراء وتجيب عنه بسؤال: لماذا يموت اليوم إنسان؟ لماذا يولد في الغد إنسان؟ ولماذا يولد اليوم إذا كان سيموت غداً؟

(٣)

أرسل في طلب العرَّافة.

جاءت مع العشية، بعد خروج الشيوخ من البيت. جلست وراء الركيزة متلحفة بلحاف في سواد قطعة من الظلمات. بصقت تبغ المضغة وراءها وأهالت على البصقة حفنة من تراب. سأل الزعيم:

ـ كيف الغبار؟

رفعت يداً ضامرة، نافرة بالعروق، ونقرت رأسها بأصابعها الطويلة مشيرة إلى الويل. عاد الزعيم:

ـ لم نر أشرس ولا أعند.

وافقته بتنهيدة طويلة. احتجّ الخصم الخفي فصفع الخباء بضربة مفاجئة. ترنّح الخباء وصفقت أطرافه الجانبية كأنها أجنحة طائر خرافي ترفرف استعداداً لبدء الهجرة. علّق الزعيم:

ـ أهل واو أسعد حظاً. جدران الحجر أنفع في مقاومة الريح.

ـ عندما يقرر أن يمدد من ضيافته ويستوطن فإنه يصبح كالوباء لا تعصم منه الجدران حتى لو كانت من حديد.

ـ ولكن لن يعجز أهل المعرفة عن إيجاد حيلة.

انتظرت أن يفسِّر الإشارة فسكتت. أثنى على مواهبها:

ـ أنت عرّافة قديرة. آزجر كلها تشهد بذلك.

انتصب بينهما الصمت. زأر الخصم بموجة جديدةمن الغبار. طوَّقت رقبتها بطرف اللحاف الأسود قبل أن تتساءل:

ـ تقصد السلسلة؟

اعتدل الزعيم في جلسته. تربَّع. التقط عوداً ورسم على الرمل رموزاً غامضة. قال بنغمة خفية:

ـ . . مصنوعة من أقوى أنواع الحديد. طولها سبعون ذراعاً. هيّا. سوف أعطيك ناقة. هل تكفي ناقة؟

تمايلت الزنجية بيأس. أطلقت أنيناً طويلاً تعوّدت أن تهتف به عندما تقدم على فتح معركة مع الجن. قالت:

ـ أنت لا تعرف ما تقول يا شيخنا. أن لا تتخيّل شروط سلسلة أُعِدَت

لتقييد رسول القدر. الريح ليس جنّاً يا سيدنا الشيخ.

ـ هل الريح رسول القدر؟

أجابت بعد صمت طويل:

ـ نعم.

ـ كيف عَرَفتِ؟

ضحكت. كشفت عن أسنان مهدّمة خرّبها تبغ المضغة:

ـ هذا سرّي. كيف أكون عرّافة دون أسرار؟

ـ . . .

ـ الديمومة يا سيدنا، الديمومة إشارة القدر.

سكت. عاد يجسّ النبض:

ـ هل تكفي ناقة؟

قالت بغموض:

ـ لا معنى للعطية عندما يتعلّق الأمر برسل القدر، بإرادة الآلهة.

في واو وعدوني بقطيع من الإبل إذا قدرت أن أصنع السلسلة ولكنهم لم يستطيعوا أن يوفوا بالشرط الذي وضعه القدر.

ـ الشرط؟

ـ نعم هل تستطيع أن تفي به أنت يا شيخنا؟

ـ تكلّمي.

لم تتكلم. فتحت صرة في طرف لحافها وتناولت حفنة من التبغ المطحون، ألقت بها في فمها. قالت وهي تمضغ بجسارة:

ـ هل تستطيع أن تضحّي بصبية بكر من بنات القبيلة النبيلات؟

ردد الزعيم بدهشة:
- صبية بكر من البنات النبيلات.
- بجدائل مخضبة بالدم يبدأ حَبْكُ السلسلة.
- ألا تكفي ذبائح الأنعام؟
هزّت رأسها بالنفي.

اقترح الزعيم:

- لم يرد في القرآن ما يبيح التضحية بالصبايا.

- صنعُ السلسلة في القرآن تدخلٌ في إرادة الخالق. الريح رسوله.

- جرّبي الأنعام.
- لن تفيد.

صفّر الرسول في الخلاء. تحالف مع المساء وكثّف من ستار الظلمات.

سمع الزعيم العرّافة تعيد:
- الأنعام لن تفيد.

(٤)

جاءت فتاة خلاسية من الخباء المجاور. أوقدتِ النار في الزاوية وبدأت في تحضير الشاي.

استمرّ الزعيم يحرث الرمل بسبابته ويرسم رموزه بجوار الركيزة. رفع رأسه وسأل بعد صمت طويل:
- أحزنني قرار الأميرة.

صمتت العرّافة فأضاف:
- بلغني أنها تعلّقت بودّان الجبال.
- مبلغ علمي أنها لم تقرر شيئاً بعد.

ـ أوخا لا يستحق هذا المصير. سمعت كثيراً عن تقلب مزاج بنات آير ولكني لم أصدق عقلاء آزجر. ظننت أنهم يتحاملون على نساء هذا البرّ كما يتحاملون على رجاله ولكن الانقلاب في موقف الأميرة أكّد أنهم على حق.

ـ عوّدتنا ألّا نتعجل في إبداء الرأي يا سيدنا.

ـ لا أحتمل أن يتألم أوخا. لقد انتظر المسكين سنوات.

ـ أنت الذي رهنت إتمام المصاهرة في كف القبلي الذي يفوق مزاج بنات آير تقلباً، فماذا كانت النتيجة؟

ـ لم يكن لديّ خيار آخر. البئر حياتنا والقبيلة وضعت حمايته من الغبار في يد أوخا. مَنْ رضي أن يتولّى ردّ الغزوات لا يتسلل إلى مخادع الحِسَان. أنتِ تعرفين الحكمة القديمة. آنهي دليلنا.

ـ الزمان معلّم أيضاً، مثل آنهي. سيعرض اقتراحه قريباً. ما علينا إلّا أن نصبر وننتظر.

ـ بَلَغني أيضاً أن أهل واو ينوون أنْ يسرقوكِ منّا.

فهمت العرّافة الإشارة. ابتسمت. قالت بعد صمت قصير:

ـ جُبِلنا على رعاية الغرباء. أنت ربيت فينا هذا الحنان كما ربَّته فينا الصحراء.

ـ نحن الآن أصبحنا الغرباء. أناي يريد أن يسلبنا البئر.

ـ واو لن تُبْعَث من الزوال بدون بئر يا شيخنا.

تَرَنّح الزعيم يميناً ويساراً وردد في خشوع:

ـ واو. واو. لن تُبعث واو من مجهولها، يا تيميط، على يد بني آدم. الإنسان دَنِسٌ و«واو» فردوس مفقود. الخير خير ما ظلّ طليقاً فإنْ انتظم في قناة ومسّته يد الأثم الملعون فسد وتفسَّخ كما يتفسّخ ذهب الكنز الذي لم تُنْحَر عليه ذبيحة تفكّ الطلسم.

ـ ولكن أهل الصحراء لن ينعموا بفردوسها ما ظلت مطمورة في مجهولها. المهاجرون الصحراويون يريدون أن يشربوا ويرووا مواشيهم ويلاقي بعضهم بعضاً ليروِّجوا للتجارة ويتبادلوا البضائع. يريدون أن يفوزوا بهذا هنا على الأرض، اليوم قبل الغد، وليس في اليوم المجهول.

ـ ماذا نفعل إذا كان هذا هو سرّ الله الذي وضعه في واو. لا تُبعَث من ضياعها إلاَّ في اللحظة الأخيرة. ولا يفوز بنعيمها إلاَّ مَنْ كان مثلها ضائعاً، وحيداً. ولا أرى غرابة في ذلك. لقد جئنا وحيدين إلى الصحراء وسنعود إلى المجهول وحيدين.

قلْ لي يا شيخنا. اسمحْ لي بسؤال: ما حاجة الإنسان لـ «واو» وهو في صراط العودة إلى الأصل؟

رفع رأسه عن رموزه. في عينيه لمعت دموع تحت ضياء النار. جاءته الصبية الخلاسية بالشاي فأزاح الطبق بحركة خشنة فتراجعت الصبية مذعورة. تكلّم بصوت مخنوق فخُيل للعرَّافة أنه يأتي من بئر:

ـ لأن فيها العزاء. لو لم توجد «واو» في مكان ما، يوماً ما، لما.. لما كان للصحراء معنى. لما كان للحياة معنى. واو.. واو هي العزاء.

في الخارج سكت الريح، وعاد يتصنت.

(٥)

لم تستعر مدن الصحراء من واو الضائعة أسلوب بناء الأسوار فقط ولكنها استعارت، كما يؤكِّد شهود العيان الذين بقوا على قيد الحياة، أسلوب المعمار الصحراوي كلّه: الديار ذات البنيان المربع، المتوّج في الأطراف بمثلثات «تانيت» الهرمية. السقوف العالية المحبوكة من أعراف النخل المشطورة في الوسط بضلفتين أو ثلاث من جذع النخل أيضاً. أمَّا النوافذ فعالية، تجاور السقف، مثلثة الشكل أحياناً، ومقوسة تحاكي مداخل الأروقة أحياناً أخرى.

ويحرص البناءون أن يستروا أفواه النوافذ بأسنان دقيقة من أعراف النخيل ليحجبوا البيت عن عيون الفضوليين. وفي كل بيت تمّ بناء سلم داخلي يؤدّي إلى السطوح يقتصر استعماله على النساء، فيتزاورن ويتسامرن من هذا الطريق السماوي الخفي، المعزول عن حياة الرجال في أروقتهم السفلية الظلماء. ممرات المدينة معتمة، وأروقتها ظلماء، ويتخذ التجار من أفواه الجدران والممرات والأروقة دكاكين لهم، يجلسون في كسل على السدّة الحجرية المبنية بجوار الجدار، يهشّون أسراب الذباب، يحتسون الشاي الأخضر ويثرثرون. وفي العادة، فإن السوق الكبير يقوم بالقرب من السور، في مواجهة الباب الذي يؤدّي إلى طريق القوافل حتى يتبادلوا البضائع ويعقدوا الصفقات مع التجار الوافدين دون أن يضطروا لاستقبال الأغراب في الأروقة فيأمنوا الأسرار والحريم.

ففي مدينة صحراوية عريقة مثل غدامس يقع السوق في المدخل الجنوبي المؤدّي إلى طريق تينبكتو للقوافل. وفي مرزق يقوم في الشمال على طريق طرابلس الغرب، أمّا زويلة وتينبكتو وتامنغست، برغم المسافات الهائلة التي تفصل المدن الثلاث، فتميّزت بين مدن الصحراء بإقامة أكثر من سوق وذلك بسبب كثافة القوافل وزحام التجار.

وفي «واو» الجديدة خصص السلطان الرقعة الكبيرة الملاصقة لسفوح ايدينان المغرور كسوق للمدينة، فرفع البناءون رأس السور ليضموا الرقعة، وفتحوا باباً مهيباً إلى الجنوب يليق باستقبال أغنى التجار وأكثر القوافل ثراءً. وقد شاء السلطان أن يفتح باباً خلفياً نحو النجع في الغرب، لا تيمناً بتينبكتو الأم أو محاكاة لـ «واو» الخفية، ولكن تنفيذاً لنيته في ابتلاع البئر وضمّه إلى جوف المدينة.

ورغم المدة القصيرة التي استغرقها جيشه الزنجي في البناء إلا أنهم استطاعوا أن يمدوا حدودهم أفقياً حتى وصلوا إلى البئر وطردوا أهل السهل

الأصليين إلى الغرب، ومدّوا القباب والمآذن إلى السماء وتوّجوها بأهلّة منفرجة وأخرى مشدودة حتى تكاد تتلامس في قمتها لتعود أقماراً سماوية مستديرة. ولكن السور ارتفع عمودياً أيضاً فحجب الأبنية وبعض القباب، ولم يبق إلا الأهلّة الأعجمية المشدودة تسطع في السماوات.

أكّد «ايدكران» للزعيم أن السلطان دنّس رفات الأولين ومدّ يده المجوسية إلى القبور المتشبثة بالسفوح الجبلية ليشيّد بها قصور «واو» من الحجارة المقدسة.

جاء لزيارة الزعيم بعد انسحاب الشيوخ. وجده يتربّع في المدخل، يحصي حبات مسبحة في يده اليمنى. ينصت للصمت ويسبّح بحمد مَنْ وهب الريح السكينة. وقف الغريب في الخارج لحظات. كان مشهد الزعيم جليلاً وهو يغيب في ظلمات الخلاء المؤدّي لايدينان المسكون، ويراقب «اشيت أهظ»(*) ذلك العنقود الغامض من الضياء الذي يتدلّى من السماء الظلماء فوق ألواح الجبل الأسطورية التي تخفي عن السهل وطن الجن.

تقدّم. خلع نعليه. تقرفص بجواره دون أن يلقي بالتحية. تجاهله الزعيم طويلاً. ثم كوّم عقد المسبحة في قبضته وطفق يفركها بين يديه كأنه يريد أن يعصر من حبيباتها الخشبية سرّ السكون. ويسألها عن لغة النجوم وخفايا الخلوات وسرّ.. الريح.

بدأ الليل عدّه التنازلي. هبت نسمة شمالية محمولة بنداوة البحر البعيد. سَحَبَ نَفَسَاً عميقاً. وضع المسبحة في جيبه. التفت نحو ضيفه:

ـ نسينا آخر مرة تمتع فيه السهل بالهدوء والصفاء. نسينا أنسام الشمال. الريح لعنة.

ـ مهلة. كل الرسل المُسَخَّرة تعطي مهلة. عزرائيل نفسه يمهل المريض

(*) «أشيت أهظ»: بنات الليل (لغة تماهق).

ويشفيه تماماً قبل أن يقبض روحه ويعيد الأمانة إلى أصلها. والقبلي، مثل عزرائيل، رسول المجهول.

- رسول لم تشهد له سهولنا مثيلاً. لم يحدث أن استمرّت الريح سنوات في تاريخ الصحراء. لا بدّ أن ثمة سرّ.

سكت ثم سأل فجأة:

- هل اقترفنا إثماً؟.

- ....

- أنظر ماذا فعل بالسهل. حوّله إلى ايدهان(*) أمام عيوننا. أنجز في سنوات ما تعوّد أن ينجزه في دهور. فماذا فعلنا؟

- لكل رسول سرّه.

- حق. ولكن لم نسمع في أساطيرنا، كما لم يخبرنا «آنهي» الضائع، أن أمراً كهذا حدث في الماضي.

- حدث. صدقني إنه حدث. وإلاّ لما تحوّلت الأرض إلى صحراء بلا حدود.

- متى؟ قبل عشرة آلاف عام؟ قبل مائة ألف عام؟ أنا أتحدث عن الزمان الأقرب الذي عاشه أجدادنا.

- أجدادنا عاشوا هنا منذ وجدت الأرض، منذ وجدت الصحراء. ولكن الأجدر حقّاً يا شيخنا أن نبحث في نفوسنا عن السبب. عن سرّ الريح.

أنصت ايدكران للسكون أيضاً. تابع بريق النجوم في السماء الظلماء. قال:

- اعتدى على الأموات. نبش القبور وأقام بأحجارها السور.

(*) ايدهان: الصحراء الرملية (تماهق).

التفت نحوه الشيخ. تبينَّ وميضاً في عينيه تحت ضياء النجوم. علَّق بعد صمت.

- هل يفلح مَنْ بنى حصناً بأرواح الأولين؟ هل سمعت في آير أن أسوار واو مبنية بأرواح موتاها؟

- لم أسمع.

- هل تبقى واو فردوساً للناس وحلماً يتغنى به أهل الصحراء من مهدهم إلى لحدهم ولو أقيمت بأنقاض القدماء؟.

- لن تبقى...

- ويتشدّق السلطان المغرور بأنه يستطيع أن يبني واو بيد الإنسان النجس.

- ...

- نعم. السرّ في النجاسة قبل أن يكون في حجارة المقابر. أوافقك أن الروح تنتقل وتسكن الحجر ولكننا نقول في آزجر إنها لا تبقى طويلاً في الحجر. تنتقل وتحلُّ في رؤوس الجبال قبل أن تطير إلى السماوات أو تغوص في الأرض حتى تحلَّ في المياه الجوفية. ومن هناك تتسلل، عبر المنابع والآبار، لتحلَّ في النبات والشجر أو تتبخّر في الفضاء لتعود من قطرة المطر. ولكن السرّ أن يد الإنسان نجسة منذ أن عصى جدُّنا الأولُ سلطانَ واو وخدعه في أمر البستان.

سكت ثم سأل دون أن يلتفت:

- هل أُذكِّرك بالأسطورة؟

شقّ الظلماتِ نجمان. أحدهما اتجه شرقاً كأنه سقط في فم الألواح المربعة المفتوحة على السماء فوق ايدينان. الثاني انهار نحو الغرب، يجرُّ ذيلاً من الضياء، حتى اختفى في بحر الرمال. بشارة. هدية السماء إلى الأرض. حلمة الصحراء تفتقت عن بئر في الشرق وآخر في الغرب.

في الجوف تتحرك النداوة. يتململ الماء السلسبيل. يفلق الصخر المرمري ويعيد الحياة لقبائل من المهاجرين الذين رَكَّعهم العطش في القارة العارية.

رفع الشيخ يديه وقرأ تعويذة. تبعه الضيف فتمتم بتميمة بلغة «الهوسا».

عاد الزعيم إلى الأسطورة.

ـ التقط رجال السلطان جدنا بعد أن ضاع وعطش وفقد العقل والوعي. رووه وأدخلوه إلى واو. قدّموه إلى السلطان فأنقذه من جوع وآمنه من خوف. سلّم له قطعان الإبل ليرعاها في الصحاري المجاورة. ولم تمر أعوام قليلة حتى توالدت وتكاثرت وتضاعف القطيع. نال الراعي إعجاب السلطان فزوَّجه كبرى بناته السبع. ولمَّا كانت المرأة بطبيعتها ميالة إلى المجد والمفاخرة برفعة الشأن فقد آلم الفتاة أن تتزوج راعياً من دون أخواتها جميعاً. فظلَّت تغوي الراعي وتدفعه لأن يتخذ من البستان المُحَرَّمِ مَرْتَعاً لقطعانه. قاوم جدنا المسكين طويلاً ولكن الفاتنة هجرته في المخدع فركع ودخل بالإبل إلى البستان. غضب السلطان وطردهما خارج أسوار واو. ومنذ ذلك اليوم ضاع وضيّع نسله من بعده وحَرَمَنا من حياة السكينة في واو.

ـ ومنذ ذلك اليوم ونحن نتغنّى بالواحة المفقودة ونكابد بحثاً عنها.

ـ نعم. ومنذ ذلك اليوم أيضاً حلّت النجاسة محل البركة في يد جدنا المخدوع. فبدل أن كانت القطعان تتضاعف تحت يديه المباركتين أصابه ما أصابه فحلَّ وباء الجرب وانتشر في القطعان فهلكت. فهل يستطيع السلطان المبجَّل أناي أن يبني «واواً» حقيقية بهاتين اليدين؟.

ـ لا. لن يفلح.

ـ كما ترى فإن تدنيس القبور ليس سبباً وحيداً في خطيئته.

ـ لا. ليس سبباً وحيداً. ثمة أسباب أخرى.

انصت الصمت للصمت. الصحراء في الليل هاوية من السكون.

اشتكى الشيخ:
ـ أنت تعرف ماذا ينوي أن يفعله بالبئر.

ولكن ايدكران ردد بصوت غامض:
ـ . . ثمة أسباب أخرى.

شقَّ الفجرُ الظلمات وفلق الأُفقَ خيطُ القبس.

(٦)

نجوم الصحراء. دموع الليالي الشتوية الباردة. ضرع الساحرات. . يحلبن من ضيائه التعاويذ والرؤى. معجم العرّافين ومرآتهم، في صفحته يقرأون النبوءات. أقراط الحسناوات عندما يموت رجالهن في الغزوات.

النجوم. . .

دليل التائهين. نديم المهاجرين الذين كتبت عليهم الصحراء أن يعيشوا في المنفى إلى الأبد.

«اشيت اهظ». تتجمهر في الظلمات. تتهامس بسرّ الخلاء. تتكدّس كعرجون بلح في أعناق النخيل.

«ايدي». . مهاجر وحيد، معلَّق بين السماء والأرض، ينافس البدر في البريق، ولا يتزحزح عن المبدأ. مشدود بوتد كي يضيء الصراط للباحثين عن «واو».

«طالمت». . تبرك في قلب الليل كعجوز صحراوية حكيمة. تروي الأساطير للأجيال عن المنفى الأبدي و«وار» الضائعة و«آنهي» الذي فُقِدَ ففقدوا الحقيقة وأضاعوا الطريق.

قبيلة النجوم اجتمعت وتشاورت عندما رأت ما حلَّ بأرض تانس وقررت أن تهرع لنجدة أميرة الفلاة. أطلقت شهباً وهوت على صدر الأرض

بـالنجـوم. مــزّقت قلب الأرض المتغضن المتشقق عـطشــاً وحفـرت الآبــار والينابيع.

هذا ما حدث في أحد أيام الأزل البعيد.

وكلما رأى أهل الصحراء اليـوم نجماً يـبرق ويهوي سهـروا الليل يـرتّلون الصلوات. يقرأون تمائم الأسلاف. ويبكون عـلى روح سماويـة استشهدت في سبيـل أن يهتدي مهـاجر يشرف عـلى المـوت إلى «واو» النجـاة قبـل أن يغيب ويخلع ثيابه ليقدم نفسه قرباناً لقدر الصحراء.

ومنذ أن هرعت السماء لتفجير الحليب الأرضي من حلمات الصدر الرحيم والصحراء لم تكف عن النزيف بالحياة و. . . الماء.

قـد يهبّ الريـح بالغبـار ليدفن بئـراً هنا أو نبعـاً هناك، ولكن في شقـوق الجبال أو أخاديد المرتفعات أو كثبان الرملة توجد دائماً حلمة خفية تخبئهـا الأم المعطـاء لتمنحها لعابر شقي في الوقت المناسب.

(٧)

اكتشف البئر منذ ثلاثمائة عام.

ويقول الرواة إن مكتشفه هو رحّالة من آهجّار. جاء من تامنغست يحمل في سرّه خريطة شفوية عن كنز في آزجر ورثهـا عن جدّه. ويقـال إن الخريـطة الأصلية مكتوبة بالتيفيناغ على حجـر وجد مـدفونـاً في أحد الكهـوف، ثم قام أحد الفقهاء بنقل رموزهـا إلى جلد جامـوسة بـريّة حتى يسهـل التنقل بهـا في الصحراء. ولكن الفقيه لقي مصرعه بسبب هذه الجلدة نفسها واستولى عليها الجدّ الآهجاري بحدّ السيف. وبرغم وجاهة الجدّ ونسبه إلى زعامات آهجـار إلاّ أن الأصل النبيل لم ينقذه من الموت على يد مجموعات بـاحثة عن الكنـوز. ولكنه استطاع أن يشوي القطعة الجلدية النفيسـة ويأكلهـا قبل أن يقـع في يد العدو. ويبدو أنّ حكمته جعلته يتوقع هذا المصير. فترك وصيته للحفيـد لدى

عجوز معمِّرة تجاوزت المائة عامة يتهمها بسطاء القبيلة بتعاطي السحر. وقامت المعمِّرة بتسليم الوصية للحفيد بمجرد أن بلغ سن الرشد وستر رأسه بالقناع. واضطرت أن تسهر معه ثلاث ليال متتالية كي تجعله يحفظ الرموز بالدقة التي تشترطها خرائط الكنوز القديمة. وما أن تمَّ له ذلك حتى استأذن أمّه في الخروج. سافر إلى آزجر تنفيذاً للوصية وبحثاً عن الكنز الأسطوري، فماتت العجوز المعمِّرة عقب سفره بسبعة أيام بعد أن سددت الدين ولقنته سرّاً كتمته طويلاً. ولكن القضاء على الخرائط الأصلية (الحجرية ثم الجلدية) ونقلها إلى اللغة الشفوية لم ينقذ الحفيد من مطاردة الأعداء وكيد المحترفين الباحثين عن الذهب.

سافروا في أثره.

في جبال تاسيلي بدأ في تنفيذ التعاليم. سَلَكَ فِجاجاً وأخاديد جبلية واهتدى بالطريق بواسطة رموز تيفيناغ ورسوم الأولين المنقوشة على الصخور وجدران الكهوف. وكلما وجد صعوبة في تفسير الألفاظ القديمة أو اختلط عليه أمر بسبب حيل الأجداد اللغوية في تمويه أهل الجشع والنهم لجأ إلى عجائز تشبَّثوا بالسُكنى في كهوف تاسيلي منذ آلاف السنين، ليفكّوا له الرموز ويفسِّروا ما خفي عليه من مفردات. كانوا يترددون كثيراً في قراءة الطلاسم الصخرية ولكن كلمة سريّة استعارها من العجوز كانت تشجِّعهم على التجاوب وتفتح له الأبواب. وهي عبارة عن ثلاثة أبيات غامضة من الشعر لم يفهم معناها. ويبدو أنها كُتبت بلغة «تماهق» القديمة أيضاً. ولم يعرف الحفيد عمَّا إذا كانت الأبيات الثلاثة مستعارة من الوصية الأصلية التي تركها الجدّ أم أن العجوز الحكيمة هي التي اجتهدت وحصَّنت بها مهمته استناداً إلى تجربة طويلة في الاختلاط بالناس وفهم عميق لطبائع أهل تاسيلي المعروفين بانطوائهم وعزلتهم وريبتهم في غيرهم من سكان الصحراء. في «ايغهرملّن» انحرف شرقاً. انحدر مع الوادي حتى أفضى إلى «تانزوفت» بعد مسيرة يومين. قضى ليلة في رأس الوادي وأنصت لتمتمات الجن في أكاكوس الجنوبي

وهو يسهر الليل ويستعيد في ذاكرته النقطة التالية في الخريطة الشفوية.

واصل الرحلة عند الفجر. وعندما انتصف النهار بلغ الموقع. تماماً كما حدّد الجدّ الوصية. ترجّل وسار عبر السهل يجرّ المهري خلفه. أنصت للسكون المهيب وراقب الألواح السماوية الجليلة فوق رأس «ايدينان». رفع رأسه وراقب قرص الشمس الربيعي وهو يتربع على عرشه مهدداً بسياط النار.

بلغ الربوة الأولى.

أناخ المهري وتركه وراء الرابية. في البداية برك في استسلام وشَرَعَ يجترُّ رافعاً رقبته الهيفاء الطويلة نحو الشرق. ولكنه نهض فجأة. التفت حوله في قلق واستنفار. عاد إليه وأناخه مرة أخرى. ثم قيّد قائمتيه الأماميتين المثنيتين المغمورتين في التراب بحبل محبوك من شعر الماعز. مضى ولكن رفيقه لم يكفّ عن توتره وحركات رأسه العصبية.

بلغ الرابية الثانية.

اقترب القرص من جسد السهل العاري. سكب أمطاراً من الضوء الناصع. جرى السراب أنهاراً من لهب القيلولة.

وقف وقرأ تعويذة بلغة مجهولة. لغة الجن والأجداد والكنوز. سكن لحظات. غمره العرق. استدار يميناً. قطع الأخدود بخطوات واسعة. خطوة. خطوتان. ثلاث. أربع. خمس. ست. سبع. ثم ركع على كوم من رماد. تناول منه حفنة وذَرَّه فوق رأسه المعمم. بدأ يحفر. يحفر. يحفر...

حفر ليوم وليلة دون أن يغفل الأعداء عن مراقبته من التلال المجاورة. استراح وغفا ساعات ثم استيقظ في اليوم التالي مع حلول المساء وواصل الحفر. يزيح التراب بيديه ويحمل الرمل بعيداً في جراب من الجلد. استعان بالمهري فحمّله أثقالاً من التراب والرماد والحجارة والحصى. ولم يتوقف عن

العمل حتى خدشت أظافره لوحاً صخرياً صَلْداً. نهض ورفع يديه نحو السماء وقرأ الفاتحة ترحّماً على الجدّ الرحيم. جثا من جديد وأزاح اللوح المستدير بعناية. قلبه يتوثّب ويتقافز ووجهه يغسله عرق مدرار. كَشَفَتِ الهاوية عن فم معتم كئيب ولمعت الفوهة بطوق دقيق مرمري صقلته الحبال ووسمته بآثار آلاف السنين. دفع اللوح وأبعده عن الفوهة. انحنى فوق الفم المظلم. لمع بريق في القاع البعيد. تناول حجراً. قذفه في الهاوية. مضى زمن قبل أن يسمع الضجيج في الماء. حفر حول الطوق المصقول. برزت الحلمة الرائعة. حلمة الصحراء المرمرية النافرة في ثدي الأرض الضامر، الذابل، الصبور، المعطاء. امتصت منه الشمس النضارة والحياة. هوى نجم في الزمان البعيد وفجّر ينبوعاً.

فهم الباحثون عن الذهب وعادوا على أعقابهم. أمَّا الحفيد فاستمرّ يحفر الأرض المجاورة ويحرث المنخفض المحاصر بين الرابيتين حتى نزل شبح أحد العابرين ضيفاً عليه. جرَّد جمله من الأثقال وقيّد قائمتيه الأماميتين. حلّ المساء فطلع قمر غامض. انشغل الحفيد في إعداد الشاي فقال المهاجر الوحيد:

ـ لا تتعب نفسك يا ولدي. آن لك أن تتوقف وتحمد ربك.

حدّق فيه الحفيد طويلاً. حاول أن يصطاد التعبير الخفي في عيني الزائر. عينان تنظران في الفراغ وتشبهان عيون العميان. سأل:

ـ هل أنت عرّاف؟

ـ كل مَنْ طاف الصحراء مهاجراً فهو عرّاف. كل مَنْ تعلّق قلبه بالصحراء فهو عرّاف.

ـ سأتوقف عندما أعثر على الإرث. جدّي رجل جاد. لم يمزح في حياته. صيته يتردد في كل آهجّار.

ـ جاد. جاد أكثر مما يجب.

ـ هَزَأ بي. بدل الكنز عثرت على بئر. ما معنى هذا إنْ لم يكن سخرية؟
ـ بل أنت الذي لم يفهم الإشارة؟
ـ الإشارة؟!.

تعلّق المهاجر بالقمر. في هيئته خشوع. في عينيه الزجاجيتين فراغ وغموض. قال:

ـ أورثك أعظم كنز. وهبك الحياة وأنت تريد كنز الشرور.

ابتلعت الصحراء هاوية السكون. اجترَّ الجملان فعادا من الهاوية إلى الحياة. تساءل الحفيد:

ـ هل يمكن أن يضحي جدّي بحياته في سبيل أن يبقى بئر في سهول آزجر سرّه الخفي؟ أنا لا أصدق.

ـ وهل جدّك هو الذي وضع الخريطة؟ وعلى كل حال...

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ فإنْ كان فاضلاً فهو بالسرّ عليم. وإنْ كان شرهاً فقد مات بجهله. ولكن هذا لا يغير من الأمر. لقد أهداك أنفس عطية في الصحراء. فاحمد ربك!

تململت جمرة في صدر الحفيد. صعدت وسدّت حلقه. استأذن الضيف. حمّل أمتعته الهزيلة على الجمل. قربتان من الماء هما كل زاده في المشوار الطويل. شيّعه حتى اجتاز به الرابية. ودّعه ثم وقف وتابعه حتى اختفى وراء التلال المؤدية إلى «ايدينان» المسكون. شبح جاء من المجهول وغاب في طريقه إلى المجهول أيضاً. عاد إلى كنزه واستلقى بجوار المهري. تابع البدر الجليل وذكّرته خيبته بالمعشوقة الحسناء.

كان يهيم في البرية الشمالية بحثاً عن الكلأ والمراعي عندما أرسلت في طلبه مع أحد الرعاة الأتباع. نزل في واد يجاور منتجع عشيرتها وتسلل إلى

بيتها في الليل. استقبلته وراء الخباء وجلسا في العراء الرملي تحت ضوء قمر شحيح، شاحب، أخبرته بمصرع الجدّ ولكنها لم تأت على ذكر الوصية. اكتفت بالتلميح. قالت «يُحسَن أن تمر على معمِّرتكم العجوز فقد ترك لك عندها وصيته الأخيرة».

سافر إلى عشيرته وتقبّل هناك العزاء. وعندما بلغ سن الرشد وأخبرته العجوز الحكيمة بتفاصيل الوصية تذكر إيماءتها الذكية فازداد إعجاباً بها. جميل أن تفوز بامرأة حسناء، ولكن الأجمل أن تفوز بحسناء ذكية. لأن الحسن والذكاء معجزتان يستحيل أن تجتمعا في امرأة واحدة. ولم يصدِّق أن هاتين المعجزتين مصيدتان للرجل إلا اليوم بعد أن قبض في رحلته الماء بدل هباء التبر. حسن المرأة وسيلة لامتلاك الذهب والفضة، وذكاؤها مصيدة لاستعباد الرجل. لا يدري الآن عمّا إذا سبق له أن سمع هذه الحكمة الفظيعة من أساطير العجائز أم أن خيبته القاسية هي التي أوحت له بها.

رآها أول مرة في المرعى. نزلت سهلاً معشوشباً عقب شتاء ممطر. ترافق جمعاً من الصبايا. تهش قطيع الأغنام. تطوق خصرها الضامر بلحافها الوردي. صدرها البكر نافر بارز برغم الثوب الفضفاض. شعرها الفاحم مضفور في جدائل دقيقة مشدودة ببعضها في الأسفل عند انسدالها على الكتفين. قامتها طويلة كمهرة إبل برغم أنها لم تكمل الثالثة عشرة. وعودها يميل إلى النحول كغزلان الرملة. في عينيها السوداوين الواسعتين فرح وبهجة. أقسم في نفسه: «ستكون لي»، وذهب إلى أُمّه وفاتحها. ابتسمت وقالت قبل أن تطلبها: «إنها لك». ثم ذهبت إلى أهلها وطلبتها وقالوا لها: «هي له. ما أسعد الصبية إذا فازت بإعجاب الفتيان وهي في سن الثالثة عشر. هي له». فوجىء بها في المرعى تقتحم عليه خلوته وتقول له بجسارة: «أنا لك». ضحك ببلاهة ولكنها أعادت: «أعد العدّة. هل تظن أن طلب بنات الناس أمر سهل؟ يجب أن تعدّ العدّة منذ اليوم». تابعها بدهشة وهي تحصي تجهيزات صبية حسناء من بنات النبلاء: أربعون ناقة أصيلة. عشرة جمال.

هـودج مصنوع في «كـانـو»، ثـلاثون رداء من الحـريـر، خمسـة عشر لحافـاً من الصوف الجبلي الملوّن. ثـلاث خِيَم جلدية، وثـلاث أُخرى من وبـر الجمال أو شعـر الماعـز. و. . . مصوغـات الذهب والفضـة. أساور. أقـراط. خواتم. قلادات. . .

انتهت فضحك ببلاهة مرة أُخرى. قال: «لم أعـثر على كنـوز الذهب ولم أذهب في غزوة إلى بلاد الأدغال» ولكنها تـركته وعـادت إلى جمع الصبـايا دون أن تعلق عـلى شكواه. و. . أدرك أنـه ارتكب أول خـطأ في عـلاقتـه بقـرينـة المستقبل. عقله اليافـع لم يقل لـه حتى ذلك الـوقت أن جنس حواء لا يـطيق عجزاً في الرجل. العجائز تقول إن على الرجل أن يظل أمـام المرأة في مـوقف القادر. وحتى إذ لم يقدر فعليه أن يدّعي المقدرة ويكذب. المرأة تغفر الكـذب ولكنها لا تغفر العجز.

وكان عليه أن يتوسَّل ويستعطف ويبعث لها الرسل كي تتنازل مرة أُخرى وتلتقي به في المراعي بعد إهانته الغاشمة في ذلك اليوم. وكان عليـه أيضاً أن يتعلم الكذب والكلام الحلو فيهمس لها في أذنها بالـوعود. قـال إنه سيـأتي لها بالصحراء كلها زاحفة على ركبتيها، بكنوزها وثرواتها وإبلها ونبلائها وأتباعهـا وزنوجها وقوافلها. نفس القوافل التي تعود من تينبكتو وكانو وأغادس بالذهب والحرير والحلى.

ظـلَّ يعيـد عليهـا هـذه الأُسـطورة سنـوات. وعنـدمـا غـدر اللصـوص بالعجوز، ولقنته العجوز المعمِّرة الوصية بعدها بعامين شلّته الـدهشة. خـرج من خبائها وذهب إلى العراء البعيد وتمرَّغ في التراب وضحـك في ظلمات الليل كجنِي. ولم يجد غير الضحك يعبر به عن دهشته. فصدَّق ما يُقال في عشيرتهم من أن الأُسطـورة إذا تكـررت طـويـلاً تصبح حقيقـة. والآن. . . الآن لا يستطيع أن يطفىء قطعة الجمر في قلبـه بعدمـا اكتشف أن تلك الحقيقة، التي ظنَّ أن الله كافأه بها تتويجاً لصبره الطويل، هي حقيقة مزيفة. والكنز المطمور

في جوف الأرض ليس ذهبا وإنما مجرد ماء! ماذا سيقول للمعشوقة التي صبرت أيضاً وانتظرت هذا اليوم سنوات؟.

لم ينم حتى الصباح.

شقَّ قَبَسَ الفجر البتول خطُ الأفق. نهض ووضع متاعه فوق المهري. وقف فوق الفوهة طويلاً. وكلما تأمل العنق المرمري المصقول الذي حفره بأظافره وأزاح عنه ركام الرمل والحجارة والحصى والرماد ازداد في قلبه الحريق.. و.. فجأة، في لحظة وحي أم طيش لا يدري، تقدّم من الفوهة المجروحة بالحبال واستغلال آلاف السنين. لامس الطوق الحجري الأملس. صعد الفوهة وأقعى فوقها. تدلّى ثوبه الواسع وغطى العنق المرمري الذي صنعته يد سماوية. في محاولة آثمة لإذابة الغيظ وإطفاء الجمرة، ضغط.. وضغط، فانهال الغائط في القاع حتى استقرَّ في الماء. تراجع القبس واسودَّ الأفق. تعالى نحيب الجنيات في «ايدينان»، وألغت الشمس رحلتها في ذلك النهار. أقام السهل مأتماً وسقطت دموع كبيرة من مقلتي المهري المسكين.

لم يلحظ الحفيد البائس العبارة المحفورة بالتيفيناغ أسفل العنق المرمري الإلهي، لأن امرأة آهجارية من النبلاء زرعت في رأسه أن الذهب هو الكنز الحقيقي وليس الماء فصدَّقها.

عاد إلى آهجار.

وصل المنتجع بعد المغيب. مضى إلى خبائها فوجدها تتقرفص في المدخل. ترك المهري بعيداً وتقدّم نحوها. لم تنهض لاستقباله. كأنها تعلم بخيبته. كأن أخباره سبقته إليها. ولكن أهل الصحراء يقولون إن الريح هي التي تنقل الأخبار في الصحراء. أحسَّ بغصة. تحرك كوم الجمر وعاد يحرقه من جديد. رشق رمحه بجوارها فندَّت عنها شهقة لم ينتبه لها. جلس في الظلمة بجوارها. لم ترحب. لم تسأل. يقيناً أنها تعرف كل شيء. استمرَّ الصمت طويلاً. في النهاية قال:

ـ لقد عدت.

ارتفع ثغاء الجديان في العراء المجاور. قالت:

ـ أعرف.

خُيّل له أنه التقط نغمة السخرية في اللفظة. غرست في قلبه مدية. أحسَّ بالنصل يتسلل في صدره ويلامس رأسه القلب المحروق. قال:

ـ يا ليتني لم أعد.

لم ترد. كتمت آهة أليمة. أحسَّت بالسائل اللزج يتدفق من العجيزة ويغمر فخذيها.

قال:

ـ لا أُصدّق أن الجدّ سخر مني.

استمر النزيف الحار. تحسست حجرها فوجدته مبتلاً. الثوب في حجرها كله مبلول.

قال:

ـ أم أنه القدر؟ ماذا فعلت حتى يسخر منّي القدر؟

عمَّ الصمت. استمر الدم يغمر رجليها ثم قدميها و.. يسيل على التراب فيمتّصه الرمل العطشان. حاولت أن تنزع الرمح ولكن الألم ضربها بمس في الرأس. كتمت صرخة وتنحنحت في كبرياء.

قال:

ـ أراكِ ساكتة، فمتى تتكلمين؟

رأت في العتمة خيط الدم يسير نحوه عبر مسام الرمل العطشان. حاصرته بسرعة وأهالت عليه التراب.

قال:

ـ أعرف أني هُزِمت ولكن لا تبخلي عليَّ بالرأي.

أحسَّت بالدوار. ترنَّحت مرتين ولكنها عادت واستعادت توازنها. رفعت رأسها في شموخ.

أحسّ الحفيد أن نصل المدية يغوص. وجهه غسله العرق. ظهره أيضاً. قال بيأس:

ـ كنت أظن أن هزيمتي هزيمتنا معاً ولكن يبدو أني أخطأت...

غالبت الدوار فنهض الحفيد. قال مودِّعاً:

ـ إذا رأيت رأياً آخر فسوف تجدينني في الوادي المجاور.

قضى ليلته في الوادي.

في الصباح زاره والدها وقال له إنها نزفت حتى ماتت.

لقد ماتت.

مضت شهور قبل أن يصدّق الحفيد أن ما حدث يمكن أن يحدث. قتلها بيده. برمحه. ونزفت بجواره وهو يحاورها عن خيبته ويحاول أن ينتزع من فمها الأمل الذي قتله الكنز المفقود. ولكن الكبرياء أخذتها منه. الكبرياء أقدم مقبرة لأهل الصحراء.

خاب مرة أخرى فهام في البرية. هجر الرعاة واعتزل في الصحراء الشرقية البعيدة. غاب شهوراً فبحثوا عنه. وجدوه هيكلاً عظمياً ينكفىء داخل حفرة في وادٍ عار. فقأت الديدان عينيه وأكلت اللحم على وجهه فبدا بشعاً ومشوهاً.

مات عطشاً بعد أن حاول أن يحفر بيديه بئراً بدل ذلك البئر القديم الذي ورثه في وصية جدّه وأهانه بالبراز. لأن تفكيره في معشوقته ألهاه أن يقرأ التحذير المنقوش بالتيفيناغ على العنق الضيق المصقول بالحبال، أسفل الفوهة:

⁞⁝ 〉 | · [· | · | ⁖ ⁝

ⵉ ⵅ ⵉ ⵜ ∴ | ⵜ 〉 ⁝ (*)

(٨)

استلقى الحاج البكاي إلى الوراء وقال بيأس:

ـ ازدهرت التجارة وازدهر اللصوص.

هشَّ السلطان ذبابة بمروحة سعف تتدلّى بسيور جلدية ملوّنة. قال:

ـ لا ينبغي أن نغفل عن الناموس. ناموس الصحراء. تجفُّ السماء وتموت المراعي ويعمّ الجفاف والمجاعة سنوات وسنوات، نهرع إلى صلوات الاستسقاء ونتوسّل إلى السماء. ننحر القرابين وننعم على السَحَرَة والعرّافين كي يفكّوا الطلسم. ثم.. فجأة، تتدفق مآقي السماوات وتنهمر بالمطر. تسيل السيول فتجرف البيوت والأنعام وحتى البشر. إنها تختار قرابينها من بني آدم دائماً. كأنها ترفض أن تتنازل عن الدين القديم الذي دفناه مع ماضي الظلمات منذ اعتنقت الصحراء دين المسلمين. كأنها تريد أن تقول أيضاً إن الإنسان يموت في كلا الحالين: في الجفاف والمجاعة يموت بالعطش والجوع وفي مواسم الأمطار والحياة يموت بالسيول.

استمرَّ الحاج البكاي يستند بمرفقه على الوسادة الجلدية الحمراء، بصره معلَّق في السقف المحبوك بالجريد والسعف. فمه مفتوح وأسنانه بارزة. انحسر لثامه الأبيض الباهت عن لحية فضية كثيفة. برزت وجنتاه فبدت عيناه غائرتين، غائبتين في المحجرين البارزين. قال بصوت واهن كأنه يحدّث نفسه. كأنه لم ينصت لحديث السلطان أناي:

ـ لو لم يغدر بي سلطان آهجّار لما حدث ما حدث. نقض الاتفاق وسحب رجاله في آخر يوم. لقد استولى الأوباش على القافلة كلها.

(*) ايغهدن آمان ويغ، ايديني تكونت ديغ (مَنْ أفسد هذا الماء، ناله قصاص الصحراء) [لغة تماهق].

ولكن السلطان أيضاً تجاهل شكوى الضيف وواصل تعليقه بشأن الموت والحياة:

ـ أردت أن أقول إن الشرّ قد يأتي في الخير، والخير يولد في الشرّ. هل تفهمني؟

اعتدل الحاج في جلسته. ثنى ركبتيه تحت جسده البدين وقال بشقاء:

ـ دعني أفسِّر لك بعض ما حدث يا سيدنا السلطان. منذ سنة ونصف قضى أشقياء بني آوى على قافلة لي عائدة من مرزق. لم أُحدثك بذلك في الحين لأنني وضعت كل ثروتي في الصفقة الأخيرة. رهنت حتى بيت أولادي في غدامس ووضعت الثمن في صفقة العمر. لا أعرف ما الذي جعل التجار اليهود في طرابلس يرفعون أسعار التِّبر المستورد من تينبكتو في ذلك العام. ويُشاع أن الإقبال عليه من قبل التجار في بلاد النصارى هو السبب. جازفت أول مرة في حياتي وخالفت نصيحة ناحوم الذهبية التي كان يروق له أن يرددها أمامي: «لا تضعْ بيضك كله في سلّة واحدة حتى إذا وقعت السلة لم يتكسَّر كله». كان يقول إن هذه تعويذة المهنة وسرّ نجاح اليهود في التجارة. ولكنّي لم أتحصن بالتعويذة فتمكَّن منّي الخصوم والمنافسون القدماء في غدامس. أسأت التقدير فظننت أنهم نسوا العداوات القديمة. نسيت أن الإساءة لا تُنسى، والوحش المجروح يسكن العرين ويتحين الفرصة للانتقام. ما أقوى ذاكرة الإنسان عندما يقرر الانتقام!

ضرب البساط التواتي بكلتا يديه وقال بوحشية:

ـ الله نفسه ينسى الإساءة ويغفر، ولكن الإنسان لا ينسى ولا يغفر!

تمتم السلطان:

ـ استغفر الله!

ولكن التاجر الشقي لم ينتبه ولم يستغفر. استمرَّ يقصُّ تفاصيل المكيدة:

ـ أول ما فعلوه أنهم اتحدوا. ثم بعثوا برسول محمل بالهدايا إلى الزعيم «ايتيسي» في آهجّار وحاولوا إغراءه بالتراجع عن الحماية ورفع اليد عن قوافلي. ولكنه كان نبيلاً فأعاد لهم الهدايا مع الرسول وأجابهم أن الموت أهون من الغدر، والوفاء للعهد لا يشترى بالمال. وما أن مات الزعيم الجليل في العام الماضي حتى أعادوا الرسول محملاً بقافلة من الهدايا مستغلين حداثة عهد ابن أخت «ايتيسي» بالزعامة وبالحياة وجهله بالمواثيق ونواميس الصحراء فعاهدهم وسحب المقاتلين ليترك القافلة غنيمة للصوص...

رفع نحو السلطان وجهاً شاحباً موسوماً بالتجاعيد والغضون. بدا أنه شاخ في لحظة. قال بصوت فاجع:

ـ ضربوا ضربتهم. غاصتِ الطعنة في قلبي حتى النصل. حجز المرابي على البيت وطرد أولادي. امرأتي وأولادي في الشارع. أبناء الحاج البكاي، أثرى تجار الصحراء، يتسوّلون في أسواق غدامس. هل تتصوّر يا سيدي السلطان أن أمراً كهذا يمكن أن يحدث في أقل من شهر؟

هزَّ أناي عمامته السوداء مواسياً فواصل الضيف:

ـ أنا الآن مطوّق بالديون. لن أستطيع أن أزور حتى أولادي لأن الوالي العثماني يريد أن يزجَّ بي في الحبس تنفيذاً لحكم القاضي. لن أستطيع أن أعود إلى غدامس لأن في ذلك نهايتي. إذا حبسوني فلن يطلقوا سراحي. سيشهر القاضي إفلاسي ويشمت بي الخصوم الأوباش. دعنا الآن من الكبرياء. لأن التجار وحدهم يتنازلون عن هذه الخرافة عندما يصل النزاع إلى برزخ الحياة والموت. عندما يهدد التسوّل الأطفال فلا يبقى للكبرياء معنى. ولكن لم يبق لي ما يمكن أن أتنازل عنه أصلاً. هل تفهمني يا سيدي؟

ارتجفت أصابعه وانهار إلى الوراء مرة أُخرى في حين ظلَّت ركبتاه مثنيتين تحت بدنه البدين. حدَّق في الفراغ ودارت عيناه في محجريهما كأنه يحتضر.

تابعه السلطان بدهشة دون أن يكفّ عن مطاردة الذباب بالمروحة المطرزة بالجلد والسيور. وفي لحظة أغمض عيناه وغاب، وعندما فتحهما رأى «أناي» فيهما بريقاً مدهشاً يتلألأ تحت ضوء النافذة العالية المثلثة الأضلاع التي تجاور السقف. انسابت الدموع في خيطين كسولين فاضا من المحجرين الغائرين وتسللا وغابا خلف طرفي اللثام الملتف حول الرأس بإهمال.

لأول مرة يرى «أناي» رجلاً يبكي.

(٩)

المساء...

انطفأ خيط الضوء في الأُفق فتشجعت السماء وتحررت من الحياء. زحفت في الظلمات والتحمت بالصحراء في طقوس العناق المحموم. ولا يحلو للسماء العاشقة أن تغازل الصحراء إلاَّ بعد أن تجلدها في النهار بسياط النار. كأنهما رجل وامرأة لا يطيب لهما الحب إلاَّ بعد تبادل صنوف العذاب. وكلما كان عراكهما بالنهار قاسياً طاب لهما الالتحام في فراش الليل. فيلفح أحدهما الآخر بالأنفاس الحارة، يتدفق من جسديهما الصهد والعرق. يتوقف الغبار ويركع القبلي. يسود الصمت كأن الفناء قد حلّ. تتوجّع النجوم وتنحني فوق صدر الأرض. تقترب من أثداء الصحراء وتلثم الحلمات القديمة التي حفرتها إنقاذاً للتائهين الذين ضاعوا منذ خرجوا من واو المفقودة وأصبحوا منفيين أبديين. ولا ينتبه للطقوس المعقدة سوى العرّافين السَحَرة؛ فيهرعون لقراءة الرموز في معاجمهم المعلقة في الجسد السماوي الخفي، فيعرفون سرّ الأجنة قبل أن يهجروا مستقرهم في بطون الأُمهات.

ولا يتوقف اللهاث الصيفي إلاَّ عندما يشق القبس الأُفق إيذاناً بانفصال الجسدين وإعلاناً عن بداية جديدة لطقوس العذاب الأبدي. تشهد الصحراء

ميلاد خيط الفجر البكر، ويبقى خيط المطر الحلم الوحيد الضائع في مخدع العاشقين.

(١٠)

اجتاز ممراً معتماً يعزل جناح الأميرة عن قصر السلطان.

وجدها تقبع في الزاوية. تضع على رأسها وشاحاً أزرق مشبعاً بالنيلة. تدلّى الوشاح على الوجنتين فصبغهما بزرقة خفيفة. غطت منكبيها بلحاف أسود مشبوك من الأمام، فوق الصدر، بمشبك ذهبي سباعي الزوايا.

نهضت لتحيته. جلس بجوار الجدار وسط وسائد الجلد الملوّن ومساند الوبر المحشوة بالتبن وخرق القماش.

أسدل طرف لثامه العلوي على عينيه وصمت. سكتت الأميرة أيضاً وانكفأت فوق الرموز الغامضة التي نقشها صناع النسيج على الفرشة التواتية.

اخترق خيط الضوء البكر فتحة النافذة العالية المثلثة الأضلاع مبشّراً بشروق الشمس. بدأت واو تصحو وتبدأ في ممارسة يوم آخر من الحياة والزوال. علا صوت مطارق الحدادين في رواق الذهب واستقبلت الأسطح النساء والخدم، ودبّ العبيد والأتباع في الممرات والشوارع والأسواق.

جاءت الجارية بصينية نحاسية دائرية صُفَّت فيها كؤوس الشاي. وضعتها على مسند خشبي مثبت في الجدار، وصبَّت السائل في الكأسين ففاحت الدار برائحة الأعشاب البرية. قدمت لهما شاي الأعشاب ولكن السلطان لم يرشف من كأسه. وضعه على الفراش الأحمر المنقوش برسوم بارزة بيضاء وسوداء وقال أخيراً:

ـ ذلك كان سيحدث. هو نفسه كان يتوقع ذلك. صدقيني.

الأميرة أيضاً لم ترشف. وضعت الكأس على الفراش قبل أن تتمتم:

ـ ليس عجيباً أن يموت الإنسان، ولكن المؤلم هو أن يموت ميتة فاجعة.

شدّت الوشاح حول رأسها وأضافت:

ـ السمّ!

ـ أنا أخالفك. إذا كان عليه أن يموت فلا معنى للكيفية التي يموت بها، بالسمّ أم بالسيف!

انكفأ فوق الرموز وأضاف بحزن:

ـ قلت لك إنه يعرف أن هذا سيحدث. فمنذ أن قدّم أول التنازلات انقاذاً للمملكة الصحراوية العظيمة من الزوال، بدأ العدّ التنازلي لسلطانه. لم يقل لي ذلك حرفياً ولكنه أومأ مراراً. قال لي أيضاً إن الرجل النبيل لا ينبغي أن يتراجع أبداً. الرجل الحقيقي إذا فعل ذلك مرة سار في هذا الطريق إلى الأبد، حتى يجد نفسه قد تراجع عن كل شيء. وإذا تراجع عن كل شيء فقد خسر نفسه وخسر بذلك العالم.

صمت مرة أخرى. ثم استمر:

ـ الرجل النبيل لا يعرف المناورة. وهي حكمة مستعارة من آنهي ولكن المرحوم في ذلك اليوم دعمها بأساطير كثيرة سمعها من المشايخ والمعمّرين الحكماء. وعزاؤنا أنه لم يهادن زعماء الأدغال حبّاً في اكتناز الذهب..

ـ ولكن هذا ما يجري على ألسنة الناس.

ـ لا تصدّقي ما يجري على ألسنة الناس. لقد تنازل وضحّى بنبل السلاطين وكبرياء الملثمين في سبيل المملكة الصحراوية الفريدة. في سبيل تينبكتو. في سبيل واو الضائعة التي نُفينا منها يوماً ونحلم جميعاً في أن نعود إليها يوماً.

ـ ولكن الحلم لم يتحقق. وتينبكتو لم تزدهر ولم تتحوّل إلى واو برغم التنازلات. لقد استولى عليها زعماء بامبارا بالذهب أيضاً. بنفس المعدن

المسوس الذي رأى المرحوم أنه سيكفل لتينبكتو الازدهار لتصبح واو الموعودة.

- الباقي على الله. أمّا واجب المؤمن فهو الإخلاص في العمل. ولا أظن أن ثمة مَنْ يجسر على الطعن في عمله البطولي.

- طعنوا وما زالوا يطعنون. هل نسيت شيوخ القادرية في تينبكتو الذين جاهروا له بالعداء؟

- لو لم يكن متسامحاً حليماً لما تجرَّأوا. هذه تهمة تُحسب له لا عليه. الحلم مزية ندر مَنْ تمتع بها من سلاطين تينبكتو.

- الناس يتغنون بالسلطان همّه.

- الناس يتغنون بالدراويش لا بالسلاطين. همّه درويش. مرابط ولم يكن سلطاناً في يوم من الأيام.

رفعت نحوه وجهاً شاحباً وعينين حزينتين. قال بجسارة. :

- يُقال إن خلافك مع المرحوم كان بسبب العم همّه. سامحني ولكن يُقال إنك اتهمته باغتيال العم المهاجر في البرية.

- لا تصدّقي ما يُقال.

- أعرف أنك تكره نبش المكائد.

- أكره نبش الماضي.

رشف من الأعشاب وأعاد الكأس إلى الكليمة.

- لا أُفكر إلاّ فيما من شأنه أن يساعد في بناء واو. سنبني مملكة أُخرى أعظم وأقوى في آزجر. وسيعرف المجوس أنهم لم يحققوا نصراً باستيلائهم من جديد على تينبكتو. لأن تينبكتو هي «واو». و«واو» لا تموت، ولا يمكن الاستيلاء عليها، لأن لها ألف روح. ولأنها خالدة ونحن زائلون.

تهدّجت نبرته فجأة وأخفى عينيه بطرف اللثام كما يحدث مع شهود العيان عندما يأتون على ذكر الواحة الموعودة. بل إن هذه الرجفة المقدسة تعتري كل

الحالمين بالعثور على المدينة المفقودة.

ولكن السلطان كان يتابع وميضاً آخر في عينيها. الحزن. ليس الحزن الذي يولد بين يوم ويوم. حزن آخر. قديم. طويل. جليل. والزمن هو الذي وهبه القداسة وحوّله إلى شقاء. على المجبولين على الحزن يخيّم شقاء وضيء. فكيف استطاع الولد الجبلي التائه أن يستلبها؟.

ولكن السلطان يعرف أيضاً أنه لن يستطيع أن يعزيها حتى لو طلبت ذلك. لأن الإنسان إذا تعلّق بإنسان آخر عجز العالم كله عن التدخل للعزاء.

شقّت الشمس البتول قلب الدار برسول من نور، فاخترق العتمة وشقها إلى نصفين. عند حذاء الجدار المقابل سلّط مثلث الضوء فانكسر إلى شقّين: السفلي سقط بزاويتيه الأفقيتين على الأرض، فوق الفرش، في حين تسلقت الزاوية العمودية من المثلث الجدار في شقاوة وكبرياء. تابع السلطان بفضول حبل النور وهو ينهمر بذرات غبار، تتلامع بإغراء، فوق رأس «تينيري»، فتخيّل هباء التبر اللعوب، وهو يتراقص، عندما يهب النسيم.

(١١)

لم يُشاهَد الماء في البئر منذ نزل الوافدون السهل وبدأوا في استنزافه لبناء مدينتهم. وأجمع العقلاء، يؤيدهم الرعاة الحكماء، منذ البداية أن التراجع سيستمر إذا استمر البئر في استقبال قوافل التجار وإبل الرعاة وامداد بناة «واو» بحاجتهم من الماء بشكل سوف يهدّد السهل بالعطش. وعندما أفشى الزعيم لـ «أناي» بمخاوفه في الشهور الأولى لتأسيس المدينة تنازل السلطان وحوّل قوافل كثيرة إلى بئري سردلس و«العطشان» لإرواء القوافل والتزوّد بالماء اللازم لمواصلة رحلاتها. كما خصص فريقاً من زنوجه لجلب المياه من البئرين دعماً للبئر في محنته التي لم يكن البنيان سببها الوحيد، ولكن غبار القبلي هو الذي ضاعف الاستنزاف، فبدتِ التحصينات التي بناها «أوخا» على الفوهة بائسة ودخيلة على الطراز المعماري القديم. أكل الماء الطين

المخلوط بالحصى والسبخة الحمراء فتداعت الحجارة وترنّح الحصن المستدير الذي يشبه عمامة كثيفة على رأس مكابر!

وإذا كان صقل الفوهة يعود إلى أنواع الحبال الثلاثة، المفتولة من الليف والحلفاء وشعر الماعز، فإن صقل الجابية الصخرية الملساء يعود إلى الماء ويكشف عن العمر الطويل في الاستعمال، ويؤكد حكمة وردت في آنهي يروق للرعاة أن يرددوها كلما وردوا إلى البئر لإرواء إبلهم: «الحجر أقوى ما في الصحراء ولكنه يتفتت بالماء. الماء، إذن، أقوى من الحجر، وهو أقوى ما في الصحراء». وفي رواية أخرى أن النص الوارد في آنهى قد خصّ الريح بالذكر بدل الماء، ولكن شاع شبه اتفاق يميل لإيثار الماء على الريح.

يَرِدُه الرعاة بالإبل في قطعان جماعية من جهات الصحراء الأربع. يتعارفون، يتسامرون، ويسخرون الليلة للقرعة وأغاني «أساهغ» ومواويل المهاجرين الحزينة التي تتحسّر دائماً على منفيّ شقيّ عاش في الصحراء طلباً لـ «واو» ولكنه مات دون أن تفتح له أبوابها. وفي الفجر يبدأ من ابتسم له الحظ ووقعت عليه القرعة بإرواء قطيعه. ويُقال إن بئر السهل هو الوحيد في آزجر الذي ترده الإبل المفقودة. ويؤكّد الزعيم ذلك فيروي كيف طاف الصحراء كلها بحثاً عن ثلاثة جمال ضاعت له في شبابه، حتى اضطر أن يلجأ لأحد الفقهاء المشهورين في واحة «آدرار» فكتب له حجاباً في ورقة صفراء متآكلة الأطراف دسّها في قطعة قماش ملوثة بالدهون بعد أن استولى منه على قطعتين فضيتين، ونصحه أن يتوجّه حالاً إلى سهل آكوكاس لأن ملك الجن أخبره أنه سيَعْقِلُ له جماله هناك. وعندما عثر على الجمال في مراعي الطّلح المجاورة وقع في الوجد وأُصيب بالدهشة تعجباً لمواهب الفقيه إلى أن التقى براع عجوز كشف له السرّ. حدثه بالمعجزة بجلال لائق عندما جلسا تحت ضوء القمر لتحضير شاي العشاء فضحك الراعي الحكيم حتى استلقى على قفاه ودمعت عيناه. ثم مسح دموعه وقصّ عليه قائلاً إن جميع الرعاة في آزجر يردون البئر عندما تضيع جمالهم. وربط هذه الأعجوبة بقصة اكتشاف البئر

وكيف عاقبت الصحراء الحفيد الأبله عندما أهان الماء ليشفي الغليل المجنون الذي لا يستولي إلاَّ على الممسوسين الباحثين عن كنوز الذهب. وانتهى إلى أن الفقيه المزيّف استغلّ جهله بكرامات «البئر المرابط» وسلب منه القطعتين الفضيتين بالمجان.

(١٢)

في العراء المحاصر بين الرابيتين، حول الفوهة، ينتشر الجلّ والبعر ويزحف حتى يعتلي السفوح، ينزل الروابي ليستقرّ في المنخفضات الأخرى حيث تعوّد الرعاة أن يرابطوا بقطعان الإبل عبر أجيال. يتغنون بالمواويل الحزينة عن واو الضائعة وينتظرون، في صبر، دوراً ألزمتهم به «القرعة المقدسة». ويتناقلون في السهل قصصاً قاسية حدثت في الماضي أثناء الانتظار.

في أعوام الجدب يزدحم السهل بالقطعان حتى يفيض بالإبل والمواشي والقوافل التجارية العابرة. ويرجع اختراع القرعة إلى تلك السنوات القاسية. وهي تقليد حكيم سنّته تجارب طويلة من الفوضى شهدها البئر عراكاً على الماء قبل أن يهتدي العقلاء في الصحراء إلى المبدأ النبيل. وكما يحدث دائماً فإن التجربة لا تستحيل إلى تقليد إلاَّ إذا دخلت الكتاب الحكيم ونُسبت إلى «آنهي» الضائع، فلكي يقتنع العوام والمتوحشون من الرعاة بفضائل القرعة روّج العقلاء خرافة تقول إن تعاليم «آنهي» هي التي تشجع على اللجوء إلى هذا المبدأ. وقالوا أيضاً إن إرادة القرعة هي إرادة القدر، وإرادة القدر هي مشيئة المجهول. واختلقوا الخرافات وابتدعوا الأساطير لتأييد دعواهم، وما لبث العقلاء أن صدَّقوا هذا الادعاء كما صدقوا، من قبل، ادعاءات كثيرة اختلقوها بأنفسهم ونسبوها إلى «آنهي» دون أن يقدر أحد أن يميّز بين ما هو أصيل من حِكَم الكتاب وبين المأثورات المزعومة والدخيلة التي نسبها إليه أهل الصحراء فيما بعد.

ففي ذلك العام البعيد شهد البئر موسماً مشهوداً من مواسم الجدب.

تزاحمت القوافل فوق الفوهة واحتكم الرعاة إلى القدر وحكموا القرعة. كانوا يسحبون حاجتهم من الماء طوال النهار، ويستنزفون الحلمة المسكينة، اليتيمة، المعطاءة، حتى آخر قطرة لإرواء الإبل البائسة التي كُتب عليها أن تعاني، إلى جانب غياب الغيث، لعنة أخرى: ماتت الحشائش وجفّ الندى من النبات البري ولم يبق سوى شجيرات صحراوية شاحبة في بعض الوديان. هذا ساهم في إضعاف مقاومة الحيوان الوحيد، الصبور، القادر على أن يقاوم العطش ويصوم عن الماء شهوراً كاملة. وكان الرعاة يخفون حزنهم على جمالهم العجفاء بأغاني «أساهغ» محاولة منهم في التعبير عن التعاطف مع الأصدقاء، وشكوى مكتومة ترتفع مع النغم الشجي، الشقي، إلى المجهول علّه يتدخّل ليخفف اللعنة ويتوسّط لدى السماء.

ولكن حلمة الحياة كانت تجفّ قبل أن ينتصف النهار فيضطر الرعاة أن يتركوها ويصبروا، وينتظروا، حتى صباح اليوم التالي كي يمنحوها الفرصة في الليل لتسترجع عافيتها وتستدرّ حليب الحياة من جديد.

استمر تدفق القوافل واستمر تراجع الماء في باطن الأرض، واضطر حكماء الرعاة إلى تمديد مهلة الاستنزاف من ليلة إلى ليلتين متتاليتين، ومن ليلتين، إلى ثلاث ليال كاملة، ولم يلحظ أحد كم مضى من الزمن على رباط ذلك المهاجر الوحيد، النحيل، الذي يرافق مهرياً أصيلاً، ضامراً، أبلق، حفر الجدب في جسده أخاديد عميقة، فاختفى سنامه وبرزت عظام صدره النحيل. كما لم يعرف أحد ما إذا كان من أولئك الرعاة الذين دفنوا قطعانهم في الصحاري المجاورة بعد أن قضت عليها المجاعة والجفاف، أم أنه عابر سبيل. وقال الرواة إن بنيته النحيلة وقامته الغامضة تشبه عفاريت «ايدينان» وبشرته الشاحبة، الخضراء التي تشبه لون الأموات، من الدلائل التي تشير إلى أنه من سكان كهوف تاسيلي أو «تادرارت»، فهم وحدهم في الصحراء ينفردون بهاتين الميزتين: نحول الجن وغموضهم، وبشرة الموتى وخضرتهم. ويؤكّد أحد الرعاة الشيوخ أن المهاجر وصل في نفس ذلك اليوم المشؤوم الذي

شحّت فيه آخر قطرة ماء وبدأ حكماء الرعاة في إنقاذ الوافدين الجدد باستنباط الثرى من قاع البئر. وقف يتفرَّج على الجَمْع، ولم يتقدّم لنيل نصيبه من حفنة التراب إلاّ عندما استدعاه شيخ الرعاة. وضع له الحفنة في وعاء السرج المخصص للماء وعرّفه براعٍ زنجي مارد وقال له إن القرعة حكمت بأن دوره سوف يليه في الطابور الطويل. وقف طويلاً أمام الشيخ يتفرَّج على الصينية النحاسية المطلية، في الباطن، بالقصدير الأبيض، كأنه يؤدّي طقساً سحرياً مستجدياً شفاعة السماوات. قال العجوز في نفسه: «آه. إنه الكبرياء القديم»، ثم تقدَّم من المهاجر وابتعد به عن الجمع وقال له:

ـ لا معنى لذلك اليوم. انس كل ما تعلمته في القبيلة وامضغ التراب قبل أن تسرق الشمس ماءه. الشمس تمدّ أصابعها وتلاحق حتى القطرات المدسوسة في الثرى.

ولكن المهاجر لم يلعق التراب الندي. ذهب إلى العراء المشرف وانتظر دوره. ويُقال إنه قدّم طبق التراب إلى مهريه الأبلق، كما دأب على ذلك طوال أيام الانتظار.

ساء حال الحلمة ولم تنزف في ليلتين متتاليتين سوى قطرات بائسة. يئس الرعاة وغامر الكثيرون بالبحث عن الحياة في أقرب الآبار. سافروا إلى بئر العطشان الذي يقع على مسافة ثلاثة أسابيع شمال غرب «سردلس». ولم يستغرب أحد فشل المجازفة. إذ بلغ السهل نبأهم فيها بعد مفيداً بهلاك أغلبهم.

مكث المهاجر في السهل.

يهجع تحت الطلح الميت في الوديان الشرقية حتى الزوال. ثم يقود جمله من رسن بائد مفتول من شعر الماعز، ويطوف تجمعات الرعاة. ولا أحد يعرف لماذا يفعل ذلك. وقد قام إليه شيخ الرعاة واستوقفه ثلاث مرات، ليحثّه على الصبر ومجاهدة شيطان الكبرياء، ولكن الطيف الأخضر لم يلتفت إليه في

المرات الثلاث، واستمرّ يشقُّ طريقه في زحام الإبل وقطعان الماعز حتى يبلغ الروابي المطلّة على الوديان. يفكّ زمام المهري ويطلق سراحه ليرعى في الطلح اليابس ويستلقي في العراء، متوسِّداً السرج. يراقب الفضاء كأنه ينتظر تألق النجوم ليناجيها بتعاويذ العرّافين السرية كي تدرَّ الماء في البئر. سخر منه بعضهم، ولكن صمته وغموضه وبشرته لم تشجعهم على التمادي فانصرفوا عنه وتجنّبوه.

اشتّدت المحنة وبدأت القطعان تهلك عطشاً. شحّ البئر ولم تعد القطرات التي يدرّها في الليالي تكفي للشرب، فأوقفوا إرواء الدواب وبدأوا في توزيع الجرعات على ثلاث فترات: واحدة في الأصيل، ثم عند حلول القيلولة، والأخيرة مع العشية. استمر الصهد والقبلي واستمر تقاطر القوافل على البئر فاضطر الحكماء إلى اختصار حصص الماء إلى فترتين، ثم اقتضى الأمر إلى الاقتصار على مرة وحيدة في الأيام التالية.

هلكت القطعان.

رفض الفرسان نحر مهاريهم فتعفّنت الجثث وسعت في السهل الديدان. سكن النسيم فخيمت العفونة والروائح الكريهة فدارت برؤوس الرعاة وأُصيب الكثيرون بنوبات قيء وإغماء. قام العقلاء فنحروا قرابين سخيّة ولكن ذلك لم يخفف من قساوة الشمس، فازدادت تسلطاً وشراسة مع سكون الهواء، واستمرت تلهب الجسد الصحراوي البتول بسياط النار. تتوقف أنفاس الصهد في القيلولة لتواصل صهر الكائنات في العشيات. في إحدى تلك العشيات شاهد الرعاة المهاجر المكابر يجرّ المهري ويتجوّل بين الروابي. يجمع بعر الإبل في الغرائر. لم يستطع الفضوليون أن يمنعوا أنفسهم من ملاحقته. حتى العطش، حتى الموت نفسه، يعجز أمام فضول بعض الناس. ولا يُستبعد أن يوجد عدد منهم على أبواب الجحيم في يوم الحَشْر. تابعوه خفية إلى الرابية فوجدوه يطرح كرات الجلّ على بساط السرج ويفركها ليستخرج منها حبيبات الشعير. ولم يخفوا دهشتهم كيف استطاع هذا

الشيطان، الغامض، المقنَّع بمسوح الأشباح، أن يهتدي إلى هـذه الحيلة. وما أدهشهم ليس مـواهب المهاجـر، ولكن حصوله على طعـام نفيس لمهـريـه في الفضـلات هو مـا أثـارهم وأيقظ في نفـوسهم الحسـد. فلم يتـوقـع أحـد أن فضـلات سنوات الـرخاء يمكن أن تخفي جـواهر تكفي لإطعـام الـدواب من جوع سنوات الجدب. وكلما فرغ من غـرارة تسكع في السهـل وملأ أخـرى. يـطرحها عـلى البسـاط ويلتقط منهـا الحبيبـات النفيسـة. يفـركهـا بـين يـديـه الشاحبتين، الميتتين ويقدمها لصديقه الضامر. جاءه رفـاق السهل ليستضيفـوه بالشاي الأخضر، ولكنه رفض بكبرياء وقال إنـه لا يشرب الشاي. زاد ذلـك من فضـول بعضهم وأثار غيـظاً في نفوس البعض الآخـر، وأكَّـد آخـرون أن الضيف الغريب جني حقيقي نزل من «ايديـنان»، أو أقبل من كهوف تاسيلي. فلم يحـدث أن سمع أحـد في الصحـراء الكـبرى كلهـا بصحـراوي لا يشرب الشاي الأخضر. عرف أهل الصحـراء رجـالاً لا يأكلون اللحم، وآخـرين لا يعاشرون النساء، وفريقاً يصوم حتى عن الطعام ولا يقتات سـوى الأعشاب، ولكن لم يحدث أن رأوا في هذه القارة العظيمة رجلاً لا يتلذذ باحتسـاء شراب الفردوس. السائل الخرافي الذي يشبهه الصحراويون بشراب واو الموعود، ولم يذوقوا طعماً لشراب يوازيه متعة منـذ أخذ الجدّ الأول أوراق النبتة السحـرية من «واو» ودخـل بهـا الصحـراء. اتخـذه الأحفـاد تميمـة لا تفـارق متـاعهم. يحضِّرونه في طقوس جليلة، فيزيل شقاء الطريق ويشفي من وعثـاء الأسفار. يبرىء الصداع وينفـع البرد والحر. يمسح الهمّ والألم ويشحن النفس بـالفرح والوجد. يشمّ المسافر رائحته على مسافة يـوم ونصف فيهتدي بهـا إلى النجوع لينجـو من العطش والمـوت. فمَنْ يجسر في الصحراء ويتنـازل عن حصته من شراب الفـردوس؟ كيف لا يظن الـرعاة أن المهـاجر جنّي ممسـوس، أم شبـح مبعوث من دنيا الموتى إذْ رأوه يرفض الشراب الـوحيد الـذي بقي لهم من واو الضائعة.

أخبروا حكيمهم فأخفى دهشته تحت عمامته السوداء وسكت. ذهب إلى

ضيفه فوجده يداعب مهريه الأبلق. لاحظ شيخ الرعاة أن البقع البلقاء في جسم الجمل ليست العلامة الوحيدة المثيرة في هذا الحيوان النادر، ولكن في عينيه رأى سرّاً لم يره في عيون أذكى المهاري. عينان كبيرتان، سوداوان، ذكيتان، تنطقان ببريق خفي كأنهما عينا إنسان. بل إن شيخ الرعاة أيقن في تلك الأمسية أنهما عينا إنسان. فيهما يشعّ بريق، في العتمة، أقوى مما تنطق به عيون الناس عادة عندما تنوي أن تبوح بسرّ.

قال الشيخ وهو يتقرفص أمام الغريب ويعدّل من وضع عمامته:

ـ لماذا رفضت أن تشرب الشاي؟

ـ . . . .

ـ البئر شحيح والقوافل تتوافد. الشاي يشفي من العطش ولا يرفضه إلّا جنّي أو ممسوس.

ـ لم أذقه يوماً.

ـ لا أُصدق!.

ـ . . .

ـ لم يولد في الصحراء مَنْ لم يذق من شراب واونا المفقودة.

ـ . . . .

ـ اليوم لن تحصل على ماء.

سكت ثم أضاف وهو يحاول أن يصطاد نظرات ضيفه في عتمة المساء:

ـ ولا على الطين!

استمرّ المهاجر يحرث الأرض بسبابته ويرسم رموزاً بالتيفيناغ ثم يعود فيمحوها ليكتبها من جديد. يئس شيخ الرعاة من الرد فواصل الاستفزاز:

ـ قالوا لي إنك أعطيت الطين للمهري واقتسمت معه الماء أيضاً. لا يدهشني أن يكرم الفارس مهريه ولكن مصيبتنا في الماء تفوق التصوّر. سنموت. سنموت. الجمل يتحمّل شهوراً بلا ماء ولكنك لن تصبر يوماً واحداً بلا ماء.

لم يجب المهاجر فصاح الراعي:

- ما فعلته إثم يعاقب عليه العقلاء في الصحراء. فَمَنْ أنت؟ مَنْ؟

لم يتكلم المهاجر، لم يبتسم. غاب في رموزه وإشاراته المرسومة على التراب.

شرح العجوز:

- إذا نضب الحليب في حلمة الأم نهش الطفل الحلمة. وكلما تلقّى الثدي عضّة تألم وتقلّص وزاد بخله بالحليب. هذا ما نفعله الآن بالبئر. سوف نموت إذا لم تحدث معجزة. صدقني!.

لم يتكلم الرجل. كأن حديث الشيخ لا يعنيه. أحسّ العجوز بالعبث فيئس وانصرف.

في الليلة التالية أجمع الفضوليون أنه أعطى نصيبه كله للمهري. في نفس الليلة بدأ يترنّح في خطوه ويئن. ركن إلى السرج وأسند رأسه بالأمتعة. في النهار، عندما تسلّطت الشمس، وقف المهري فوق رأسه ليحجب عنه سياط النار. ظلّ يسند رأسه بيديه ويتفرّج على حركة القوافل في العراء. وقال بعضهم إنه رفع صوته بأغنية أليمة مجهولة قبل أن يسكت إلى الأبد.

وجدوه في الصباح ممددا على ظهره، يضع رأسه بين يديه على السرج، ويحدّق في الفراغ، ميتاً. فوق رأسه وقف المهري، يحني رقبته الطويلة ويلثم يدي رفيقه بشفتيه الكبيرتين اللتين تفصّد منهما زبد حارّ. في عين الجمل رأى شيخ الرعاة شقاء لم يره في عيون البشر. هرع الرجال إلى الجثة في حين وقف الشيخ وراقب الألق الغريب في عيني الحيوان.

قال رجل:

- لو شرب معنا مشروب واو لما مات.

نهره الشيخ فقال آخر:

ـ مات لأنه آثر المهري فأعطاه نصيبه من الجرعات. مَن امتلك مهريًا أبلق لا بدّ أن يموت.

عاد الأول:

ـ محظوظ مَن امتلك المهري الأبلق. .

بصق التبغ وراءه وأكمل:

ـ . . حتى لو مات!.

راقبهم شيخ الرعاة وهم يشيعون الجثة على الأعناق في طريقهم إلى المقبرة. صاح خلفهم فتوقفوا. هرول نحوهم وأشار لهم بإنزال الجثمان. سجّوه على الحصى فأخرج العجوز زمزميته الخشبية من كمّه الواسع. صبّ قطرات ماء في كفه ومرر راحته على وجه الميت. قلب الزمزمية ليستدرّ قطرة أخرى. أمسك بها في الهواء طويلاً في الوضع المقلوب فوق رأس المهاجر ولكن الزمزمية الصغيرة، المدسوسة في قماط بائد من الخيش، لم تدر قطرة واحدة. أسرع العجوز يسدّ فوهتها بسدادة الفلين ويخفيها تحت كمه الفضفاض. قال بخجل:

ـ اعتبرونا غسلناه. نعم. غسلناه. جسد المهاجر دائماً طاهر.

وصل المهري. اقتحم الزحمة وشق طريقه إلى الجثمان. انحنى فوق صديقه وشرع يفتش عن وجهه تحت ثنايا اللثام. تبادل الرعاة النظرات، وانتظروا أن يشير عليهم شيخهم بما ينبغي أن يفعلوه. وكان الراعي العجوز يعرف ذلك. أخفى ارتباكه وقال بصوت مخنوق:

ـ اتركوه!.

تراجع الرجال. استمرّ المهري يلعق وجه الميت بشفتيه الكبيرتين، المزبدتين اللتين نبتت في أطرافهما شعيرات بارزة خشنة. ثم مدَّ رقبته إلى اليدين وأصابع الرجلين ولثمهما أيضاً. رفع رأسه إلى السماء، نحو الشمس، وجال بعينيه الشقيتين في العراء الممتد إلى الأبد وركع بجوار الجثمان. أصدر

خواراً أليّاً كأنه ثور. نفث الصوت المدهش من صدره في حين نطقت عيناه الذكيتان بالفجيعة.

تمتم العجوز:

- الفارس لا يستطيع أن يملك المهري الأبلق، والمهري الأبلق لن يكسب الفارس أيضاً. لا بدّ أن يختفي أحدهما.

نهض الجمل مرة أُخرى. حدَّق طويلاً في قرص الشمس، ثم ظلَّل الجثمان بقامته المديدة وهاجر بعينيه الآسرتين في الأُفق البعيد، حيث تلألأ السراب اللعوب في شماتة وشقاوة وإغراء.

وافق الشيخ على اقتراح أحد الرجال فبعثه إلى «تادرارت» برفقة قافلة عابرة. اثار جرب قديم أكلت السيماء على الفخذة اليسرى فلم يستطع أحد أن يتبيّن القبيلة التي ينتمي إليها صاحبه المرحوم ولكن صاحب الاقتراح اقنع العجوز قائلاً: «سمعته يغنّي بلكنة سكان الكهوف. سكان تادرارت. ثم.. ثم ألا يحدثك لونه الأخضر عن نفسه. وجوه أهل تادرارت ميتة. الوحيدون في الصحراء الذين لا تجري الدماء في وجوههم. أشباح. ألم تر بنفسك أنه من قبائل الأشباح؟».

أطلقت القافلة سراحه في الوديان العارية وعبرت الجبال الأسطورية إلى مرزق.

عاد إلى السهل بعد ثلاثة أسابيع.

في تلك الأثناء جاء فارس إلى السهل بالبشارة: نزلت الأمطار في تاسيلي وسالت وديان كثيرة: تانزوفت، ايغهر ملّن، وأميهرو. بعد يومين وصلت أنفاس المطر فتنفس السهل الصعداء وتراجع الحريق السماوي. نزلت أغلب القوافل إلى تانزوفت، وبقي العجوز، مع بعض الأصدقاء القدامى، يرابط فوق البئر. خف الضغط والاستنزاف على الفوهة فجادت الحلمة بالماء ودرَّت حليب الحياة. ملأ الراعي الجابية بالماء ودعا المهري الأبلق للوليمة. وضع

الرسن في خياشيمه وجرّه إلى المربع الحجري المائل المبني في المنخفض، أسفل الفوهة، بحجارة مصقولة لامعة. في الجابية تألق الماء تحت أشعة الشمس كألسنة السراب. هبّت نسمات مغسولة بالمطر فاقترب الراعي العجوز وجلس على طرف الفوهة. ابتسم وقال للمهري:

ـ بالأمس كان وعداً. سراباً. واليوم هو ماء. ماء حقيقي. تستطيع أن تجرّب إنْ كنت لا تصدّق. هيا اشرب قبل أن يغضب منّا المجهول ويعيده سراباً كما بالأمس!

المهري الضامر، الغث، الذي ازدادت عظام قفصه بروزاً حتى استحال إلى هيكل متنقل من العظام، المهري الجوعان، العطشان منذ شهور، الذي اختفى في ظهره السنام، رفض في كبرياء أن يشرب الماء. تحسس الطبقة الفضية المتلألئة، اللعوب، ثم رفع رأسه نحو الأفق.

جاء أحد الرجال. قال للعجوز:

ـ إنه لا يصدّق. سوف أجعله يصدّق. هذا الأبله!

شمّر عن ساعديه المحروقين بالشمس وثنى سرواله حتى الركبتين وقفز في الجابية. غمر وجهه بالماء بكلتا يديه ثم انحنى وشرب جرعات متتالية. رش ساقي الجمل الأماميتين مداعباً، وفجأة ركع داخل الماء ضاحكاً كطفل، فبلّ ثيابه الشاحبة البالية. خرج فوجد الجمل قد مضى. ذهب ورابط فوق قبر صديقه القديم. قال الراعي العجوز: «هنا سيموت. هنا لن يطيب له أن يشرب الماء. سنبعثه إلى تاسيلي. صاحبه جاء من تاسيلي. الموتى الذين لا يجري الدم في وجوههم يسكنون تاسيلي أيضاً. هناك توجد كهوف أقدم من كهوف تادرارت».

سلّمه إلى أول قافلة عابرة إلى «تامنغست». أوكل لهم أن يفكّوا قيده في تاسيلي، فعاد بعد أسابيع أخرى. ازداد نحولاً وذبولاً وبرزت حتى عظام

فكيه. غارت عيناه في المحجرين العظميين و... انطفأ فيهما ذلك البريق المدهش الذي أثار العجوز في لقائه الأول بالجمل. في المرة الماضية عندما عاد من منفاه في تادرارت بقي في العينين حزن، ولكن عودته من تاسيلي سلبته حتى هذا التعبير الأصيل، الكئيب وحلَّ في المقلتين الفريدتين خواء، فراغ، لا مبالاة. ضياع. نعم. ضياع مَنْ فقد شيئاً حميماً، عضواً من الأعضاء، جزءاً من الروح، قلباً حارّاً، ويئس من العثور عليه. وعندما يئس أطاع القدر وسلّم بأن يعيش بجوف خاو، بارد، خال من القلب. الضياع في العينين من فراغ القلب.

استمر يتشبث بصيامه عن الكلأ والماء. حاول الراعي أن يرويه مرة أخرى ولكن المهري أشاح بوجهه ورفع رأسه في كبرياء. هاجر إلى الأُفق البعيد، القاسي، اللانهائي، ثم تحرك نحو الرابية حيث دفن صديقه. يقف بجوار كوم الحجارة ويرفع نظرة خاوية، باردة، ميتة نحو الأُفق الخالي حتى يزحف المساء. راقبه أياماً ثم ذهب ليحدّثه في ليلة احتلفت فيها كائنات السهل بظهور البدر. قرأ سورة الفاتحة على المرحوم. أتبعها ببعض التعاويذ التي تعلمها من العرّافين، واعتدل في جلسته أمام المهري. نقر بإصبعه على حجر القبر وقال:

- هذا مأوانا كلنا. لا أعرف من أين نأتي ولكني أعرف أننا نذهب جميعاً إلى هذا المثوى. هذا مصيري ومصيرك أيضاً أيها الأبله فلماذا تعجِّل به إذا كان سيأتي رغماً عنك؟ أبله. أنت أبله!.

سكت لحظة. أنصت للسكون الصحراوي. متاهة من السكون. رفع رأسه نحو البدر الغامض، نحو الألواح الجليلة فوق قمم «ايدينان» وقد ضاعف ضوء البدر من غموضها وجلالها. قال:

- هذا وحده يكفي. جمال البدر وغموض الجبل في ضيائه. هذا السكون. استمع إلى السكون أيها الأبله. ألا يكفي هذا كله سبباً للحياة؟ ألا يكفيك

هذا المبرر كي تكون سعيداً أيها الجاحد؟ آ ـ آ؟ . .

رفع صوته بأغنية شجية. حزينة. بثّها حنينه إلى المجهول وفرحه بالبدر المضيء، حمّلها بشكواه من قساوة القبلي وسعادته بالنسمات الشمالية المغسولة بأمطار الحمادة الحمراء. شحنها بما يعرف وما لا يعرف عن الصحراء وانتهى فيها إلى أن الحياة جميلة وتستحق أن يعود فيها الأموات من القبور ليعيشوها من جديد.

انتهى من الغناء. سكت لحظات. تنفس بعمق وخاطب الأبلق الواقف فوق رأسه مثل نصب صحراوي وحيد:

ـ بالأمس عشنا أياماً قاسية، هل تذكر؟ تلك الأيام العصيبة ذهبت برفيقك ولكن ها قد جاء الفرج وتصدّت الأمطار لجنون القبلي. ثم. . ثم لا تريد أن تفهم أن أحدكما لا بدّ أن يموت؟ لم تعرف الصحراء حتى الآن فارساً امتلك مهرياً أبلق مثلك وكُتب لهما أن يعيشا معاً. هل تفهم؟ أحدهما لا بدّ أن يختفي. هل تفهم؟ لا تسألني عن السبب، ولكن هذا هو الناموس.

تمدّد على ظهره بجوار القبر، في الناحية الأُخرى القريبة من سفح الرابية. أزاح طرف العمامة حول وجهه وحدّق في البدر البهيج، الوضيء، بسحنته المستديرة، الخفية، الواعدة بالأسرار. حدّق حتى لمعت عيناه بنداوة. أسند رأسه بذراعه وغنى من جديد. أُغنية رعوية أليمة من ألحان «أساهغ» الفاجعة. استمرّ يشق السكون الجليل بصوته المتعب، الشقي، حتى استوى البدر العجيب في قلب السماء، أغفى. وعندما نهض في الصباح قرر أن يهاجر. الموّال الليلي أيقظ في قلبه أشجان المهاجرين الأبديين وأخبره أنه استقرّ في السهل أطول مما يجب. إذا استقرّ الصحراوي في مكان أكثر من أربعين يوماً تحوّل إلى عبد. عبد مثل سكان الواحات والمدن المسيّجة بأسوار الحجارة. هكذا يحذّر آنهي.

اعتدل في جلسته وقبّل نحو القبلة ليتفرج على القبس البكر في خشوع.

العطية الإلهية التي تفصل بين السماء والأرض وتبشر بميلاد النهار. النور. الحياة. الخيط الفجري الأوّل يخفي البكارة الضائعة ويحمل ملامح «واو» المفقودة دائماً. ولكنه، ككل الأشياء الأصيلة، المجهولة، البتولة، لا يعمّر طويلاً. تلاشى السحر وهدد الأفق بالنور الآخر. السليط، المسلح بسياط النار. ارتجفت أطراف الصحراء. كشفت عن صدرها وتهيأت لتلقّي قصاص الجلّاد.

انتهت طقوس. وبدأت طقوس أُخرى.

نهض العجوز. بحث عن الجمل في العتمة فرأى شبحاً مطروحاً على الحصى، في المنخفض، أسفل حجارة القبر. تقدّم خطوات فوجده يستلقي على جنبه الأيسر، يمد القائمتين الخلفيتين في حين ثني الأماميتين بموازاة البطن الضامر. رقبته الطويلة ممدودة نحو الشرق. مغمورة بحبيبات الرمل والحصى. العين اليمنى خاوية، والشفتان انفرجتا عن نابين ناصعين، سال منهما خيط رفيع من اللعاب وارتسمت عليهما ابتسامة خجولة، شاحبة، غامضة.

شمّر الراعي عن يديه النحيلتين وبدأ يهيل على الجثة التراب.

في الأُفق انبثق أول شعاع ممهِّداً السبيل للشمس كي تواصل مسيرة يوم اخر.

(١٣)

زحف السور ببطء. التفّ الجناح المتجه شمالاً حول رابيتين في العراء الشرقي وبدأ يعتلي الرابية الثالثة، في طريقه إلى البئر. الجناح الآخر تخلّف عن المسيرة بالمقارنة مع قرينه الجسور، وتلكأ في أطراف السهل الجنوبية. وبرغم حيوية الزنوج ومهارة هؤلاء المَرَدَة فإن العمل تعثّر في هذا الشق وسار أبطأ من الطرف الشمالي. اضطر أهل التدبير أن يدفعوا بمزيد من السواعد لتقديم الجناح وإيقافه على قدميه لينسجم مع قرينه. ولكن الرملة، التي بناها القبلي في غزواته الأخيرة، استمرت تعرقل المسيرة وتعطل إنجازاً معمارياً حازماً

حتى الآن، ليس على إعجاب سكان السهل فقط ولكن أثار دهشتهم أيضاً. وحتى لا يتورط الجبابرة في تشييد الصَرْح فوق الرمال أشار خبراء المعمار ألَّا يبخلوا بجهد أو وقت في حفر خندق يمكن من الوصول إلى تربة صلبة تؤمن للسور أساساً يمكن الاعتماد عليه. ولكن الوصول إلى الأرض الطينية لم يكن سهلاً فتحايلوا وناوروا وحاولوا أن يتجنبوا الكثبان العالية المتناثرة في أقصى الطرف الجنوبي المؤدي إلى فلول معسكر أهل السهل. تعثّر البناء وتعرَّج امتداد السور حتى وصفه خبثاء السهل بأنه ثعبان أقبل زاحفاً من الأدغال لابتلاع البئر. وقال الدرويش أن شاعرة مغمورة (ولكن موهوبة) نظمت قصيدة في هذا المعنى كي تحمِّس رجال القبيلة ليدافعوا عن عرض ينوي جبابرة الأغراب اغتصابه.

واصل الجبابرة التحدّي.

تطاولوا في الجدار الجبار ليل نهار. تأتيهم نساءهم بقصع الطعام في حملات منتظمة. تسبقهن الزغاريد الضرورية لتأجيج الحماس. يشعلن لهم النيران ويتطوَّعن لحمل المشاعل في الليالي الظلماء. وفي بعض الأمسيات القمراء يقرعن الطبول ويعزفن على «امزاد». يرفعن أصواتاً باكية إضافية، فاجعة، تشكو الهجرة الأبدية وقساوة الصحراء لقاض مجهول. تستمر المواويل الحزينة طويلاً دون أن تتوقف سواعد الرجال عن العمل، بل يبدو أن الغناء الحزين يحفِّزهم ويزيد من عنادهم، ثم تبدأ الرقصات المجنونة المستعارة من قبائل بامبارا والهوسا وبني آوى. وكثيراً ما يتواصل الرقص والتصفيق والزغاريد حتى يكشف الأفق عن قبس الفجر.

خلال هذا الفرح لا تتوقف شخصية فريدة عن السعي هنا وهناك. شخصية وهبت نفسها للمعمار وآلت على نفسها أن تشيّد «وَاوْ» جديدة في القارة الصحراوية بدل «واو» القديمة التي ضاعت أو أضاعها الجدّ الأول بضربة حمقاء. كان قصيراً، نحيلاً، خلاسيّاً انتصر في بشرته اللون الزنجي. يتلفح بزمالة بيضاء، يلفها حول رأسه بطريقة مضحكة أثارت سخرية

الجميع: يلف طرفاً حول الرأس، ويغطي فكيه بطرف آخر يشدّه إلى الخلف، أسفل الرأس، بعقدة محكمة، ليتدلّى الطرف الأسفل فيغطي الذقن والرقبة، في حين تبقى الوجنتان عاريتين حتى الأذنين. ولم يعرف أحد أيضاً من أين استعار هذه الطريقة الطريفة في لفّ العمامة، برغم أنه يقول دائماً إنه اهتدى إليها بنفسه. هذا المخلوق الصغير، الذي يشبه الجرادة، هو العقل المدبِّر لمعمار «واو». جاء من تينبكتو برفقة قافلة والتحق بالسلطان خصيصاً للقيام بالبنيان. ويُشاع أن «أورغ» بعثه إلى أخيه بطلب من أناي بعد حصوله على موافقة الزعيم آده للإقامة بسهل آزجر. اسمه «أخموك»، ويُقال إن هذا الاسم كنية واسمه الحقيقي «ايمستغ»(*). ولمّا كان الاسم الأخير مهيناً بالنسبة لمخلوق في حجم السنونو فعلاً فقد استخدم اسم«آخموك» حتى لا يصبح رجل في مركزه أضحوكة في بلاد الأغراب. وهي حيلة اعتبرها العقلاء شيطانية، ولا تقلّ دهاء عن مواهبه الشيطانية الأخرى التي رأوا أن إقامة واو في هذه المدة الوجيزة تأتي على رأسها. فلم يسمع أحد في أساطير الصحراء أن مدينة بُعثت من الخلاء فجأة باستثناء تلك المدن التي ساهم الجن في تشييدها. ولم يخف أهل السهل استهانتهم بـ «ايمستغ» عندما رأوه في الأسابيع الأولى للبناء يصلّب يديه وراء ظهره ويقطع العراء ذهاباً وإياباً، يطأطىء رأسه، ويتحسس الأرض بعكاز مدبب العقب ليختبر التربة ويعاين الأمكنة. سخروا منه فنهرهم الحكماء. قالوا بلغتهم الصحراوية الغامضة: «السرّ في حجمه. لو لم يكن خبير المعمار سنونوة لما استطاع أن يتطاول في بناء القصور المكابرة وأسوار المدن. المخلوقات الصغيرة هي التي تصنع الأشياء الكبيرة. الله جلَّ جلاله يحلّ في الماء والهواء. في حبات البذور وذرات الرمال. ضاق به العالم كله واتسع له قلب عبده الصغير». وحذروا الناس من الهزء. وجاء الحق وانحاز إلى صفهم. كأنه كان مكتوباً أن يكون هذا الجنّي الصغير سبباً في بلواهم التي

(*) ايمستغ: السنونو (تماهق).

كلفتهم، بعد سنوات فقط من بداية مهمته، أنفس جوهرة في الصحراء الكبرى: البئر!

مدَّ نحوه لسانين نهمين، شرهين، من حجارة كأنهما أحضان غول خرافي. قرر ضم الحلمة المسكينة إلى مملكته. يقفون كل يوم، صبياناً ونساءً وشيوخاً، ليتفرَّجوا كيف يتقدم الغول نحو الفوهة مجتازاً في زحفه المرتفعات والروابي والكثبان الرملية. حتى عقبات الطبيعة وعراقيل القبلي عجزت عن إيقاف مسيرته. يخرجون في مجموعات. يصطفون في طوابير فوق المرتفعات الغربية. تستقلّ النساء في طابور، وينفصل الرجال والشيوخ في طابور آخر. يعتزل الصبيان في جانب، ويختارون أحد الأطراف، ليكوِّنوا حلقة أو طابوراً مستقلاً. يممون صوب واو، ويتابعون عملية السلب في خشوع، وحزن، واستسلام. بعضهم بلغ سن الرشد وتوّج رأسه بعمامة متواضعة، متوسطة الحجم، بيضاء. والبعض الآخر ما زال حاسر الرأس إلاَّ من فروة شعر مقوسة تشطر الرأس إلى نصفين صانعة تسريحة طريفة مثل عرف الديك. يروق للمعممين أن يميلوا برؤوسهم المتوجة إلى أقرانهم المعممين ليهمسوا بتعليق ملح، ولكنهم يترفعون عن محادثة الحاسرين ويعاملونهم بالكبرياء والاستصغار. بينهم تسود لغة الصمت.

في الأطراف القصية، المجاورة لـ «ايدينان» الخفي، تلوح أشباح الرجال دائماً. ينقسمون هناك إلى مجموعتين: يتوسّط الزعيم تجمع الشيوخ والعقلاء، ويليهم، بعد خطوات، تجمع يتوثب ويتوق دائماً للاحتكام للقوة، ولكن يبدو من بعيد أن الفريقين يلتحمان في طابور واحد. في الوسط، فوق الروابي العارية، المعممة بطبقة من الحجارة السوداء، المحروقة بحمم بركانية قديمة، ينتشر كل يوم، منذ الصباح، أشقى الطوابير الثلاثة. يتشح بألحفة سوداء ويتكاثف في كتلة واحدة حتى يصبح جزءًا من فروة الحجارة، من العمامة البركانية القاتمة التي تلف رأس الرابية. يتشبث الأطفال بأطراف الأردية، التي تلامس الأرض، ليشتكوا من غزوات الذباب بلغتهم الطفولية

المتعثرة. يتصدّر الجمهرة بعض العجائز المكابرات. يتوكأن على عكاكيز السدر، يسندن أجسامهن النحيلة المقوسة إلى الأمام. يرفعن وجوهاً ممصوصة بصمها الزمان بغضون عميقة ووسم القبلي بشرتها بلون نحاسي. وخروج العجائز من المضارب أعطى للمظاهرات الصامتة جلالاً خاصّاً وأقلق الحكماء الذين آمنوا بأساطير «واو» القائلة إن العجائز ركائز البيوت، وإذ أجبرن على الخروج إلى الساحات أو العراء ففي ذلك علامة تقرّب يوماً تتقوّض فيه البيوت.

ينفصل بعض النسوة عن الجَمْع وتتسللن لجلب الماء. تملأن قرباً بدينة تعلّقنها على الرؤوس بعد لفّها بعصابة من القماش أو الخيش أو أعقاب الأكياس القديمة، حتى لا يشجّها الحبل، وتعدن وهنّ تتعثّرن في خطواتهن وتجاهدن كأنهن تردْنَ البئر آخر مرة. الوجوه يغسلها العرق وفي العيون شقاء.

في إحدى هذه التظاهرات فقدت امرأة خلاسية صوابها فاعتدت على الرجال. كانت فرعاء في العقد الرابع. يُقال إنها تتعاطى الشعر في الخفاء. مات زوجها في غزوة شيخ الطريقة التأديبية ضد بني آوى. غلبها الحزن فهرعت نحو العقلاء. اخترقت الجَمْع الجليل وفي عينيها بريق الجنون. على شفتيها المفلطحتين طفح زبد كثيف. شيعوها بدهشة ولكنها هجمت وبدأت تنتزع العمامات وتلقي بها على الأرض. لم يتوقع أحد أن تبلغ الوقاحة بامرأة، حتى لو كانت مجنونة، حدًّا يجعلها تتجاسر على القيام بهذا العمل. ارتبك الجمع الوقور وسارع أولئك الذين انكشفت رؤوسهم يسترون عوراتهم. ولكنها حاولت أن تذرّ على رؤوسهم التراب أيضاً فتطوع أحد العمالقة وطوقها بين ذراعيه. رأى في عينيها دموعاً فأمره الزعيم أن يطلق سراحها. عادت إلى الرابية البركانية فناحت بمرثية أليمة. اقتفى أثرها الدرويش ضاحكاً.

في قلب كل فرد استيقظ الشجن وخفق بمرثية.

أ - مراثي العذارى

منذ تعطَّفت السماء وأرسلت نجمها رسولاً ليحيي السهل ويهدي الصحراء العارية حلمة الحياة تململت الأجنة في بطون الأمهات مع تململ حبيبات البذور في أحشاء الأرض العطشى عند سقوط قطرات المطر. ينبت العشب، يشق تربة الطين، يرفع رأسه ويهرع نحو الضوء ليشاهد جمال الصحراء وجلال الجبال، مصمماً أن يتمتع بالهواء والفضاء ومتاهات السكون، لحظتها يولد للعشبة قرين لها بين بني الإنسان. يستوي الجنين في الظلمات كما تنضج الترفاسة في بطن الأرض. يدوّي الاستنكار المجهول في صرخة الاحتجاج الأولى، وتنزل إلى السهل العذراء. تغسلها العجائز الحكيمات بحليب الحياة، بماء البئر السماوي، لتتسلَّح إلى الأبد بتميمة الصحراء، ثم تُقْطَر في فمها قطرات بخيط من وبر الجمل تطهيراً للجسد من الطين وتحصيناً له في رحلة الشقاء المقبلة. ترفع النساء رؤوساً حاسرة إلى السماء وتضعن أيديهن المشبعة بالنيلة الزرقاء قبل أن تطلقن الزغاريد ليسمع الرجال في الخباء البعيد أن الفرح تمّ، والمراسم قد بدأت. تستمر الزغاريد على ثلاث دفعات ليعلم الأب أن القبيلة قد رزقت بعذراء. صبية. أنثى. الدفعة الثالثة إشارة بهيجة يفرح لها الأب والقبيلة والسهل ورؤوس الجبال. فَمَنْ غير الأنثى أنقذ نسل الصحراويين من الانقراض؟ مَنْ غير الأنثى في الصحراء يستحق التبجيل، ويُعامل بالقداسة، ويعبده الفرسان؟ ماذا تعني الصحراء إذا لم تستقبل بين الحين والآخر عذراء؟ مَنْ غيركِ، أيتها العذراء، يستطيع أن يهوِّن قساوة القبلي ويروِّض وحشية الصحراء؟ ولكن العذراء لن تكون حلماً يمسح حزن المسافر ويزيل تعب المهاجر ويعزّي المجذوبين بأغاني الشوق والوجد، وتحمل أجنّة الذرية الصحراوية المنفية المهددة دوماً بالزوال والفناء، إلاّ إذا تحصَّنت بقطرة من ماء البئر عند الميلاد.

كبرت العذراء وأصبحت صبية. سلّموا لها الجديان الشقية فطاردتهم في الوديان المجاورة. استغفلوها فاختفوا. لاحقتهم فتاهت. عطشت. بـ...

فأنقذوها بجرعة من حلمة الأم الرؤوم.

ذاقت طعم العطش وهمست لها الصحراء في الخلوات أن العطش سرّها الأول ولن يفوز المخلوق بشرف الانتهاء للمتاهة إذا لم يجرِّب قدرها الخالد. وأخبرتها أيضاً أن التجربة تستحق المجازفة، والخلاص من الأصفاد والقيود والعباد قصاص لم يسبق للصحراء أن عصمت منه أحداً حتى لو كان عذراء صحراوية.

فوق الفوهة الملساء استدار البدر فرقصت في أمسيات السمر ورددت أغنية عشق بهيجة. أثارت إعجاب الصبيان فمدوا أيديهم إلى صدرها. اشتعلت. اشتمت رائحة مجهولة، خفية. تكوّر الصدر وتصلّب. تمرّد على الثياب الفضفاضة فانتصبت الحلمتان في كبرياء. استدار الردفان تحت الجلباب الواسع. اتسعت العينان الكحلاوان وبرقت فيهما البكارة. أطلّ شوق غامض. شوق العذراء إلى المطر والرجل والحياة. العجائز الحكيمات جلسن كي يضفرن لها شعرها الفاحم المنسكب على منكبيها المكابرين كقطعة ظلام. دَهَنَّ الجدائل الرفيعة بزيوت النبات ومراهم العشب وقلن بخبث: العذراء عاشقة!

وهبها البدر الجليل أول حب عند مشارف البئر فجاء المهاجرون الغزاة وقرروا أن يسلبوه قبل أن يتمَّ الفرح. فيا فارسي الملثَّم مَنْ يضمن لك ألاَّ تعود إلى المنفى المجهول؟ مَنْ يضمن أنك ستستطيع أن تتزوّد بقطرة ماء؟ مَنْ يضمن لك البقاء؟ وكيف أجرؤ وأعدك بأن أظلّ ذلك الوعاء الذي سيحفظ ذريتك من الانقراض.

أيها الصحراوي الشقي! منذ اليوم لن يكون المنفى في الخلوات وحده قدرك الأبدي، ولكن ها هم الأعداء يعدّون لك الكفن، والزوال يطرق بوابة الصحراء.

ب ـ مراثي الفتيان

رضعت حليبه من ثدي الأم، وعندما فطموك قهراً كتمت أمراً وتـطاولت في الفـوهة مقـرراً أن ترتـوي من المنبع رأسـاً. أدركوك وأقـامـوا حفلـة سمـر احتفاء بالنجاة. ولكنك تظاهرت بـالوجـد. جذبت وهـرولت وحجلت حول حلقة المغنيات، ثم مددت يدك خلسة وقرصت العذراء في صدرهـا البكر. لم تعلم، أيهـا المعانـد، أنك قـدحت الزنـد وأشعلت النار في جسـدها البتـول. وامتلكت قلبهـا قبل أن تتـوّج رأسك بـالعمامـة وتتفاخـر أمام الأقـران بإشـارة الرجولة.

ولكنك لم تكن تدري.

كنت يافعاً ومعانداً تتجاهل العذارى وتطلب من الحياة دمية. في المراعي ذهبت لترعى الجديان الشقية وتخـرّب أعشاش الـطيور الـبرية. هنـاك داعبتها وقرصت صدرهـا المدوّر وغنيت لهـا مواويـل عن واو الموعـودة وقلت لها إنـك تريد دمية.

لم تفهم الغموض في عينيها لأنك لم تكن تدري.

نافستما الطيور في الغناء، ورددتما الأشعار، وجعلتكما أمسيات البدر فـوق البئـر تستغفـلان الصحـراء وتشبّـان قبـل الأوان. رهنت قلبـك لفتـاة أخـرى فقررتِ العذراء البائسة أن تهاجر وتسبقك إلى واو الموعـودة. ألقت بنفسها في البئر كي تقول إنها مدينة لك بالصدر البكر، المدوّر، والحلمة النـافرة، والقـدّ الريان، والجـدائل المـدهونـة بزهـور الرَّتم. وكي تنبهـك إلى أنها لا تنوي أن تسلِّم كل هذه البكارة لأحضان رجل آخر، لذا قررت أن تهاجر وتسبقـك إلى واو الموعودة وتنتظرك هناك.

وأنت، أيهـا الشقي، فُجِعْتَ لأنـك لم تكن تـدري أن مـداعبـة صـدر العذراء، في ليلة بدر، إشارة العشق!

ثم.. أتى الغرباء.

توسّلوا للزعيم وطلبوا رقعة في حجم جلد جاموسة برية. وانكشف السرّ لمّا نفخ سَحَرَتهم في الجلد الملعون وقطعوه إلى سور أسطوري حاز ثلاثة أرباع السهل.

في صدر الغريب ينام سرّ، يقول الحكماء. وها هم يمدّون الخيط الشيطاني من جلد الجاموسة ليستولوا على البئر. وأنا، الفتى المكابر، المعاند، يقف مع الجَمْع، وينتظر أن يأسر الأغراب رفاتك، أيّتها العذراء. أليس أشرف للفتى أن يذهب للقائك في واو قبل أن يعجز حتى عن حماية رفاتك من أيدي الأغراب؟

جـ-مرائي الفرسان

ليس السيف سلاح الفرسان، وليست الحراب ولا النبال. وليست بنادق البارود أيضاً، ذلك السلاح الشيطاني النفيس الذي أدخله تجار الشمال إلى الصحراء في السنوات الأخيرة وقايضوا القطعة الواحدة منه مقابل قافلة من الإبل. حكماء الصحراء يقولون إن سلاح الفرسان هو البئر. ولا يكسب المعارك الوحشية في القارة الجرداء إلاّ الشياطين الموهوبين في المناورة وتدبير الحيل للسيطرة على الآبار. وعندما يجتمع عقلاء القبائل لتسيير المعارك وإدارة الحروب، في الزمان القديم، فإنهم يخسرون ما كسبوه ويفقدون كل ما غنموه ما لم يهدهم الدهاة إلى مؤامرة للسيطرة على المنابع التي يتزوّد منها العدو بالمياه. والنصر الحقيقي، النهائي، الذي يركّع الخصم ويجبره على توقيع معاهدات الاستسلام، لا يأتي إلاّ إذا نجح القادة في تنفيذ هذه الخطة. فيقول الحكماء إن قانون الحرب في الصحراء هو الدهاء، وليس كثافة الفرسان أو شجاعة المحاربين. إذا توصّل الفريق المحارب، بدهائه، إلى الاستيلاء على بئر الخصم كسب النزاع وقبض على رقبة العدو.

البئر سرّ قوة القبيلة، والبئر هو نقطة ضعفها أيضاً.

هذا جعل القبائل الصحراوية القديمة تسنُّ تقليداً ما زال الأحفاد في تادرارت وتاسيلي يحرصون على مواصلته، يقضي بالإبقاء على مواقع الآبار سريّة، بعيدة عن عيون الرحَّل والفضوليين وعابري السبيل. إذا جاء المهاجر استقبلوه بالحفاوة ونال الترحيب ونحروا له الذبائح. كما يتولّون عنه إرواء جماله أو قافلته ويقومون بتزويده بحاجته من تموين الماء محاذرين أن يهتدي إلى موقع البئر. وكانوا يقيمون دائماً على مسافات لا تقلّ عن مسيرة يوم واحد من النَجْع. حتى إذا نزل الضيف العابر أمهلوه ثلاثة أيام في المضارب وهي مهلة تكفي الرعاة لإرواء إبله إذا كان من أصحاب القوافل. وإذا كان البئر يقع في الصحاري الجنوبية فإن مراسم التمويه تقضي أن يتوجهوا بالقافلة إلى الشمال حتى يغيبوا عن أنظار الغريب، وفي العودة لا بدَّ أن يعودوا من جهة الشرق أو الشمال إمعاناً في البلبلة وزيادةً في إخفاء معالم الطريق.

وكان الغريب في الغالب يدرك الخدعة، ولكنه يعرف أيضاً أن البحث عن الموقع عبث وليس عليه إلاّ أن يخشع تبجيلاً للطقوس. فلم يحدث أن عثر مهاجر في الصحراء على بئر خفي بالخرائط الشفوية التي يروق للصحراويين أن يتبادلوها في أسفارهم إلاّ إذا كان بئراً شهيراً مثل «حلمة الأرض» أو «بئر العطشان» أو «بئر اطلانطيدا». ولكن الآبار، مثل الكنوز، إذا بحثت عنها اختفت، وإذا نسيتها عثرت عليها بالصدفة. قدر «الحلمة» أن موقعها جاء مكشوفاً في العراء. لأن النجوم أرادت أن تجعلها قبلة تنقذ كل العابرين. ولكن عطايا السماء تفسد بمجرد أن تمسّها يد الإنسان. تقاتل عليها الناس وتبادلها نفوذ القبائل ففقدت البكارة ولحقتها لعنة الممتلكات.

واليوم تتسلل إليها يد الأغراب من جلد جاموسة مستغلةً نزعة الزعيم في الالتزام بتدبير العقل، وسمعته، التي بلغت آير، في الاعتدال والإمساك بالعصا من الوسط، فوجد الفرسان أنفسهم مهزومين قبل أن يبدأ النزاع ويلتحموا بالغزاة في معركة. وجدوا أنفسهم يتراجعون نحو هاوية المفازة،

يقفون على بوابة المنفى من جديد. تماماً كما وجد الجدّ الأول نفسه بعد أن طُرِد من «واو» المفقودة، غريباً، ضائعاً، منفياً.

القدر يريدهم أن يمشوا على خطاه ليعيدوا تفاصيل السيرة الأولى.

٢ ـ السوار الذهبي

«في أداة الإخصاب يكمن الموت».

توماس مان ـ «يوسف واخواته»

(١)

تقاطر العقلاء على خباء الزعيم مع العشية. فاض بهم البيت فنصب الخدم «ايسبر»(*) في مدخل الخيمة. حول الركيزة تحلّق الشيوخ. بعضهم ارتدى أقنعة كثيفة، بيضاء، نُسِجَت من قماش شفاف، لفّ حولها قطعة «تجولموست» أنيقة، زرقاء. والبعض الأخر اكتفى بتكثيف الكتان، وزاد في طول العمامة بضعة أمتار، فبدا الرأس منفوشاً، مهيباً، صغيراً في عجلة القماش المكابرة. أولئك كانوا رجالاً ما زالوا يطوّقون بطونهم بأحزمة من جلد تتدلّى منها السيوف، يعرفون معنى العار، ويتعاملون بكبرياء. يحرصون على النبل ويتحاشون هجاء الشاعرات، لأنهم يطمعون في الفوز بزوجة صبية قبل أن ينزع منهم الزمن المؤهلات، وإذا تعذّر الفوز بالصبايا فلا بأس بخليلة زنجية أو خلاسية يستولون عليها بحد السيف في الغزوات. أمّا الفريق الآخر الذي عبر الصحراء، صحراء الزمن، وصحراء الحياة، ووقف في الطرف الآخر من الوادي، مقوّس الظهر، مجمّد الوجه، يعاني الأرق والضغط وداء المفاصل. وهو كل ما كسبه من الرحلة القاسية، المدهشة، التي تبدو الآن

(*) ايسبر (تماهق): حصير ارتفاعه متر ونصف، محبوك من أعواد الديس وسيور الجلد، ينصبه الطوارق لضيوفهم، كما يقضي فيه العريس السنة الأولى مع عروسه قبل أن ينفصل بها عن أهلها.

قصيرة جداً برغم بلوغ كل شيخ من هذا الفريق الثمانين. تعمموا بأقنعة متفاوتة الأحجام، مختلفة الألوان، مضغوطة، متواضعة بوجه عام. طأطأوا الرؤوس في تسليم مَنْ عرف طعم الثمرة التي ما زال الفريق الآخر يجري وراءها ظناً منه أنه سيجد فيها السعادة، متوهماً أنها تستطيع أن تشبع فيه جوعاً أو تسدَّ في نفسه الخواء.

في نظراتهم خجل مَنْ عرف أن الحقيقة وهمٌ، والمرأة أسطورة لن يمتلكها رجل. سراب لن يروي العطشان. والخواء الأبدي مرض يعاني منه كل العشاق.

سطَّر الشيوخ رموزهم على التراب. وتربَّع أصحاب الأقنعة الجليلة في وقار، يحصون أنفاس بعضهم، ويسترقون النظرات.

في الزاوية، عند طرف «ايسبر» من الجهة المواجهة للشمس، أوقد الزنوج نار الشاي. الزعيم توسط العقلاء، وظلّ يردد الأسئلة عن الصحة والأحوال ولعنة القبلي وأخبار المطر في الحمادة الحمراء وآير ويشكو من الحر والغبار دون أن يجد مساندة أو جواباً من الحاضرين. يئس وصمت. الفريق الذي تقوّس ظهره تحت عبء الثمانين تبادل النظرات أيضاً. لم يخرق الصمت إلاَّ طنين الذباب وطقطقة الحطب في فم النار، وزعيق أطفال يتراكضون بين المضارب القريبة من البيت. أخفى الزعيم أنفه تحت اللثام. نقر بسبابته على الكليم، ثم ثنى طرف الفرش تحت ركبتيه ليصل إلى الرمال الناعمة أسوة بالشيوخ. فوق الرمل بدأ يخط رموزه أيضاً. قال منكساً:

ـ سمعتم بالخبر؟ بنو آوى قطعوا الجزية!

ابتعدت أصوات الصبيان وبقي طنين الذباب. خبتِ النار ولكن عظام الجمر استمرّت تتكسَّر تحت الركام.

لم يعلّق أحد. واصل الزعيم:

ـ نهبوا قافلة على مشارف مرزق يحميها رجالنا. قتلوا منهم ثلاثة واستولوا على البضائع.

ساد السكون. سكون الصحراء الذي يزداد جلالاً كلّما أطلت الانصات إليه. الحكماء الذين تجاوزوا الثمانين يجتمعون خصيصاً ويقضون أياماً للانصات إليه. يعتلون الرابية ليتفرجوا على متاهة العراء. يهشّون الذباب ويصغون للسكوت المقدس دون أن يجرحوا جلالته بكلمة واحدة. سكون العزلة والفراغ المستعار من «واو». يقول العرّافون.

استمر الزعيم:

ـ لست أنا الذي يفتي في قرارات الغزو أو الهدنة ولكن مهمتي أن أعرض الأمر على شيوخنا الحكماء.

سكت ثم استدرك فجأة:

ـ ولكن هذا لن يمنع أن أُبْدي رأياً في بني آوى ورثته عن أجدادكم. لقد أجمعوا أن مهادنة هؤلاء الوحوش ضياع للوقت علاوة على ما ينطوي عليه من مجازفة. احذروا من مهادنة كل مَنْ اتخذ من الغدر يقيناً. رأيي، كما ترون، هو، في الحق، وصية أنقلها لكم. لا أعرف ما إذا كان الفرسان على علم بالأمانة ولكني على يقين أن شيوخنا الأفاضل يتحصّنون بها مثل آية الكرسي، ويحفظون سطورها حرفياً. آمل ألاّ تفهموا دعوتي على أنها دق لطبول الحرب طالما لم يوصد المعتدون باب التفاوض في وجوهنا. ما رأي الجماعة؟

عاد الصمت. صمت مشحون، متوتر، ليس كالسكون. الفراغ الدائم والصمت الطويل هو ما يمنح السكون الصحراوي هذا العمق وهذه القداسة. هو ما يلبسه مسوح الجلال التي ينسبها العرّافون إلى المجهول ويقولون إنها مستمدة من «واو».

الصمت في الصحراء شفاف، حساس، في رقة زهرة رتم، تجرحها النحلة وتدميها اللسعة. الصمت البكر، البتول، يخدشه الاحتجاج في قلب حكيم، ويقتله الاستنكار المكتوم في صدر فارس مكابر، فيفقد البكارة دون تدخل الكلام. الآن كفَّ الصمت أن يكون صمتاً، لأنه أنصت بخجل للغة

الخفيـة التي توسـوس في الصدور. حتى الشيـوخ الذين اتخـذوه لغة يـومية في لقـاءاتهم فقـدوا ارتبـاطهم بـه في هـذه اللحـظة وانتـظروا مصرعـه. تبـادلـوا النظرات خلسة في ساحة الصمت، المتوتر، المزيف. لم يتوقع أحد أن يتـدخل العجوز «بكّة». هو نفسه لم يتوقع أن يفعل ذلك. خاصة أنه ظلّ غائبـاً، منذ وقت قليـل، في هموم الشيخـوخـة. الشيخـوخـة التي تكتفي بعبـادة الصمت البكر، والتنفس بحرية، والفرجة على السماء الزرقاء والخلاء الممتد على مـدى البصر. و.. ماذا يريد العجوز الصحراوي أيضاً من الحياة؟

يريد شيئاً آخر. شيء يمكن أن يعادل السكون المقـدس. يريـد الخلاص من آلام المفاصل في الليالي الشتوية. ولكن وخزه إحسـاس غامض دفعـه لأن يقـرأ صحيفة الاتهـام. هل هـو الشرف؟ هل هـو كبريـاء الملثمـين؟ هـل هـو الضمير؟ هل هو الواجب؟ دفعه شيء أقوى من كل هذه المبادىء. إنه السعي القديم، الشرس، الجليل، الغـريزي، الـذي جعل الجـدّ الصحراوي الأول يتـطاول في رؤوس الجبال، ويتسلق أسقف الكهـوف كي يرسم همّـه ويحفر في الصخور وصيته لـلأجيال. السبـاق المقدس للمحـافظة عـلى الأصل وإنقـاذ النسـل ومواصلة رحلة البقـاء. الرغبـة الوحشيـة في الإبقاء عـلى الأثر. قفـزة «بكّة» محاولة لدق المسمار في نعش الزوال.

وقف مستنـداً عـلى عكّـازٍ معقـوف مصقـول من شجـر السـدر. نحيف متوسط القامة، نحيل الأطـراف، ممصوص الـوجه، بـارز الوجنتـين. ملامحـه صارمة ولكن في العينـين هدوء عميق. هـدوء الفريق المتعب الـذي يئس من العثـور على «واو» وتـرك هذه المهمـة الجليلة للفريق البـديل. الفـريق الآخـر الذي تستهويـه أحضان نسـاء مجهولات لم يعشقهن بعـد فخسر معركـة «واو» قبل أن تبدأ.

الهـدوء الساحـر في عينيه هـو ما يجـذب إليه النـاس فيجد نفسـه يمـارس صلاحيات الزعيم من حيث لا يدري، ومن حيث لا يدري الناس أيضاً.

توكَّأ على العكاز اللامع منحنياً إلى الأمام. أمسك بمقبض العكاز المقوس بكلتا يديه وقال:

ـ هل دعوت هذا الجمع الفاضل يا شيخنا كي نحارب بني آوى؟ هل عميت إلى هذا الحدّ حتى تظن أن غدر بني آوى وقطعهم الجزية هو الحدث الأسيف الوحيد في آزجر الذي يستحق القلق ويتطلّب تدخل مجلس الشيوخ؟ لقد تساءلت كثيراً في الآونة الأخيرة عمَّا إذا كنت ما زلت تتمتع بقواك العقلية، وفي بعض الأحيان أيقنت أنك أعمى. وليسمح لي الجمع الجليل بقساوة الاتهام، ولم أكن لأتجاسر، يا شيخنا الفاضل، لولا يقيني بخطورة ما حل بسهلنا في السنوات الأخيرة. ويبدو أن العماء عاهة لا تبدو جسيمة إلى جوار ظن آخر خامرني وكشفته للشيخ باخي في حينه (وانحنى على يساره فهزَّ الشيخ باخي رأسه بالموافقة تأكيداً على كلامه). قلت له إن أهل آير هم أبرع المخلوقات في تعاطي السحر. وهم الذين أدخلوا هذا الوباء المخيف إلى الصحراء مستخفين تحت ستار العرَّافين والفقهاء المزيفين. وقد أيقنت أنهم أدهى من الجن في هذه الحرفة الكريهة بعد ما فعلوه بك وبسهلنا المسكين. وإلاَّ هل يمكن أن يصدِّق عاقل أن ما حدث يمكن أن يحدث لو لم تكن لأصابع السحر دور؟ هل ينزل مهاجر على قبيلة ولا يطلب سوى رقعة أرض بحجم جلد جاموس ثم يستولي على ثلاثة أرباع السهل ليبني واواً مزعومة؟ يدفعنا بعيداً عن «حَلَمَة الأرض» ليبتلع مزيداً من العراء، وها هو يبني أسواراً شيطانية تنوي ابتلاع البئر نفسه. فهل ثمَّة عاقل يشكُّ في أن هذا الشيطان لا ينوي السيطرة على القبيلة اليوم، وغداً على آزجر كله؟ حتى أطفالنا أصبحوا على يقين من نواياه. أعترف الآن أمامكم أن الحرص على القبيلة هو الذي دفعني للبحث عن ساحر عابر أو فقيه عالمٍ من المرافقين لتجار القوافل كي يبطل المكيدة. وأظن أنكم ستسخرون مني الآن بسبب هذا الاعتراف كما سخر مني باخي حين فاتحته بنيتي منذ شهور. ولكن مسعاي انتهى إلى الفشل على كل حال. ولكن هذا لا يعني أني تراجعت عن يقيني، لأن الخمسة

والثمانين التي أحملها فوق ظهري علَّمتني أن للسحر وجوهاً كثيراً وإشارات أخرى يمكننا أن نقرأها في الطبيعة. فلم نشهد في آزجر قط قِبْلِيٌ استمر ثلاثة أعوام، كما لم نسمع عن ذلك من أفواه أجدادنا الأموات. والقبلي مهاجر لا ينزل الصحراء منفرداً، إنه يقبل برفقة جَمْعٍ من البلايا: يطمر الآبار، يحرق العشب والشجر، يبيد القطعان، وينشر المجاعة في كل مكان. وهو ما يسميه كبار السحرة بـ «النحس» في معاجمهم السرّية. ولا تظنّوا أن كوارث الطبيعة دائماً لعنة من فم القدر أو إشارة غاضبة من يد السماء لأن عرّافاً من «كانو» اعترف لي منذ أربعين عاماً أن يد الإنسان قادرة على أن تصنع بلايا أبشع منها، والنحس لا ينزل من السماوات ولكن أسبابه كامنة في الأرض. ولا زلت أذكر ما قاله بالحرف: «نحن لا نعرف إلاَّ القليل جداً حتى اليوم مما يستطيع هذا المخلوق أن يصنعه» نعم. هكذا قال. ولم أكن لأذكر تفسيراً غامضاً للنحس من عرّاف عابر لو لم تنشط الشائعات التي تؤكِّد أن «أناي» أدخل التبر إلى السهل ويقايض به البضائع مع قوافل الشمال سرّاً، وإذا صحَّ ما يُشاع فإني لم أتحامل عليه عندما وصفته بـ «المجوسي» في اجتماعنا الأخير، الذي كدت أنساه لطول المدة، كما يبطل أي عجب فيما حلَّ بالسهل من بلاء. هذا هو الأمر الذي يستوجب المعالجة لا خطراً بعيداً مزعوماً يشكله عصيان بني آوى في الصحراء الشرقية. وإذا صحَّ ما يُقال عن الذهب فإن الرجل خدعنا عن عمد وهو العليم بميثاقنا مع الجنِّ وخطورة المعدن المشؤوم على حياتنا. وإذا خدعنا عن عمد مرة (وهي ليست الخدعة الأولى على أي حال إذا عدنا وذكرناكم بخدعة رقعة الأرض) فأنا لا أشك في أنه يدبِّر مكيدة جديدة الله وحده يعلم الثمن الذي علينا أن ندفعه مقابلها. هذا إذا كتبت لنا منها النجاة. وإذا أردتم رأيي فإني شخصياً أميل إلى تصديق تعامله مع نحاس النحس، خاصة وأن كل الدلائل تشير إلى ذلك بداية بما عُرِف عن أخيه «أورغ» من عبادته للذهب إلى حد جعله يقايض تينبكتو كلها ويسلمها للمجوس مقابل التِّبر، ونهاية بإشارات الطبيعة التي حدثتكم عنها، مروراً

بالنشاط المشبوه والتحركات الخفية للتجار والقوافل والعابرين داخل السور، كلها رجس من عمل المعدن الشيطاني. فهل من الحكمة، بعد هذا، أن نجهِّز للحرب ونقفز إلى عدو يرابط على الحدود، ونترك عدواً يضرب الحصار حول بيوتنا ويحرمنا بئرنا ويهدد أعناقنا؟

زَفَر واعتدل في وقفته وانتصب فلامست عمامته الهزيلة الخيمة المشطورة بخطوط من صوف أبيض باهت. سحب العكاز المعقوف نحو جسمه النحيل ورشقه على مربعات الكليم، ثم أسند به عجيزته. تناطحت عمائم الرجال وعلت الهمهمات. في زوايا الخباء علت أصوات بتعليقات مسموعة. حرث الزعيم الرمل بالسبابة وفي عينيه ابتسامة بائسة.

تكلم «بكّه» من جديد:

ـ نحن جيل لا نطمح في أن نجني الغنائم أو نسلب السبايا من الغزوات، كما فقدنا الأمل في أن نجد السعادة بين أحضان الحسان، ويئسنا، منذ زمن بعيد (وهو أقسى ما يمكن أن يواجهه الصحراوي) في العثور على واو. لم نعثر عليها في الصحراء كما عجزنا أن نعثر عليها في قلوبنا. فأي معنى لحياتنا؟ وَقارُنا مطعون بيد الزمن وكبرياؤنا تبدّد بالعمر. ولكن هذا لا يعني، يا زعيمنا الفاضل، أننا سلّمنا في كل المتع ونحن نضع أرجلنا في القبور. نحن ما زلنا نتمتع بالحياة، بالصحراء، رغم المحنة. نتلذّذ بالتنفس وشرب الماء والشاي، ونستمع في خشوع إلى السكون، ونجد البهجة في الفرجة على السماء وامتداد العراء. وأرجو ألّا يسخر منّي رجالنا الأشدّاء الذين ما زالوا عمياناً ولا يرون في الصحراء أجمل من النساء والمهاري والغزلان. ولكني أردت بهذا أن أقول إننا تنازلنا لكم عن كل شيء مقابل أن نتنفس هواءً نقياً من غبار القبلي، ونشرب ماءً لا تعكّره قوافل المهاجرين ولا يستنزفه دلو الجشعين، ونتفرّج على عراء لا تحجبه أسوار الشياطين. أمّا السكون. السكون اعتدى عليه الحدادون وهم يسكّون معدن النحس في الرواق السرّي.

و. . . . . .

التقط نفساً وأنزل طرف اللثام العلوي على عينيه واستمر ليفوِّت الفرصة على هواة التعليقات الجانبية في المجالس:

ـ و. . شيء آخر. شيء أهم. نحن العَجَزَة متاع القبيلة الذي يريد أن ينبهكم جميعاً إلى وصية واحدة. هي وصية موجهة لكل مَنْ استطاع سبيلاً لحمل السلاح، وهي وصيتنا الأخيرة التي أستطيع أن أجزم أن كل المعمِّرين يساندونني في المجاهرة بها. وقبل أن أخبركم بها أجيبوني على سؤال واحد: ماذا يجني الصحراوي من حياة الترحال والشقاء إذا لم يتوّج حياته بالعثور على واو وهو الذي لم يخلف أثراً يحمل اسمه، ذرية تحمي نسله من الانقراض والزوال؟ القليلون فقط الذين ابتسمت لهم السماء وفتحت أبوابها ليدخلوا إلى واو يستطيعون أن يضحّوا بالذرية ويزهدوا في نسل يحمل اسمهم من بعدهم. وغير هؤلاء القلة، فإن حاجتهم إلى حماية الأصل تفوق أي حاجة أخرى في الحياة. ولمّا لا يوجد في قبيلتنا رجل واحد على قيد الحياة فاز بمشاهدة واو، فإنه ليس من الغريب أن يكون هدفنا جميعاً، أو يجب أن يكون هدفنا جميعاً، التضحية بكل شيء في سبيل الأولاد الأشقياء. وهو هدف لن يتحقق إلاَّ بردع العدو الذي يهدد حبل الوريد. هذه هي الوصية.

توقَّف بكّة فأقبل الزنجي يوزِّع الشاي. كان قصيراً، أحمر العينين، مقنَّعاً بعمامة سوداء ينسدل طرفها السفلي حتى ذقنه فانكشف فمه عن شفتين غليظتين. تناول بكّة كأساً تلاشى طربوش رغوته حتى الحافة. رفع الكأس أمام وجهه بيد مرتجفة ولكنه لم يرشف منه. في زاوية الخباء، أقصى اليمين، تجمَّع بعض المغرورين. قال أحدهم بصوت مكتوم ولكن مسموع: «هذا ليس شأن الزعيم. ماذا يعني الأولاد والمحافظة على النسب بالنسبة لرجل لم ينجب ذرية؟». رشف بكّة من كأسه فعلّق آخر: «هذا لا يدل إلاَّ على حكمة الزعيم. يُحْسَد مَنْ لم ينجب ذرية هذه الأيام».

رشف الزعيم شايه على ثلاث دفعات متتالية. ثبت الكأس في الرمل وقال دون أن يرفع رأسه:

ـ أشفقت عليكم دائماً من جموح المتطرفين الذين لا يرون إلاَّ الأبيض أو الأسود، اليمين أو اليسار، يقينهم أعلى عليين أو أسفل سافلين. وها أنا أسمع أصواتاً تتردد في الخفاء لتذكِّرني بعزوفي عن إنجاب الذرية فلا أعرف إذا كانت تعيّرني أم تثني عليَّ. الجميع يعرف أني لم أزهد في أجمل مخلوقات الأرض وأضحي بزينة الحياة الدنيا وأحرم نفسي دفء العائلة بسبب شذوذ أو نزوة أو غرابة في الأطوار. ولكن قناعتي القاسية بأن هذا المخلوق الوديع عاجزٌ أن يهبني العزاء برغم كل ما وهبه الله من جمال ورقة وموهبة في الغناء ونظم الشعر. فإذا عجز الرجل عندنا في العثور على «واوه» نجده يهرع فوراً ليبحث عن امرأة يدفن في أحضانها هزيمته. اليأس أمام واو هو الدافع الأول لعشق النساء. والرجال طبعاً يرفضون أن يعترفوا بالحقيقة ويقولون لأنفسهم إن هذا وهم وضلال. بل نجد أغلبهم يفقد العقل بعد بلوغ السبعين ويلجأ إلى أقرب نَجْعٍ ليخطف منهم مطلقة ويتخذ منها زوجة. وإذا لم يحالفه الحظ في القبيلة أو النجوع المجاورة يرتدي أفخر اللباس ويضع تجولموست على عمامته ويذهب إلى زعيم القبيلة ليقرع طبول الحرب كما فعل شيخنا الجليل بكّة منذ قليل. وليعذرني إذ أسوق هذا المثال الذي لا يصلح للمقارنة، لأن شيخنا بكّة هو آخر مَنْ يفكر بأن يقرع طبول الغزوات طمعاً في الفوز بسبية. وليعذرني الجَمْع المهيب أن أبدأ حديثي من النهاية. ولم أكن لأفعل لولا ما سمعت من همسات طائشة تريد أن تحوّل حتى حرماني من الذرية والعائلة خطية أخرى تُضاف إلى خطاياي التي أرى أن السهل بدأ يضيق بها اليوم. ولشدَّ ما آلمني أن أسمع من شفتي رجل كريم وحكيم مثل بكّة كلاماً يحوِّل اعتدالي واحتكامي إلى التعقل في القرارات التي تتعلق بمصير القبيلة، إلى تهمة رذيلة ظنّاً منه أن الاعتدال هبة إلّهية تعطيها السماء، أو طبل الزعامة يرثه ابن الأخت عن الخال، وفاته أن هذه هي الجوهرة الوحيدة في الصحراء التي لن

تعثر عليها كما يُعثر على الكنوز أو الآبار، ولكنها مثل واو، توهب بالجهاد الطويل.

اعترض بكّة:

ـ استغفر الله. أنا آخر مَنْ يطعن في براعتك بالإمساك بالعصا من وسطها، ولكن قلت إن مَنْ يكسب السلم هو مَنْ يتأهب للحرب.

ـ يسعدني أن أسمع منك هذا الرأي. واعذرني أن أطرح عليك سؤالاً: إذا كنت تعترف بفضائل الإمساك بالعصا من الوسط، هل تنكر أن مَنْ حكَّم العقل كسب الخصام حتى لو هزمه الخصوم؟

ـ في هذه أُخالفك الرأي. مَنْ حَكَّم عقله طويلاً أثناء الحصار أطبق عليه الأعداء، لأن تحكُّم العقل هنا هو تجاهل للحقيقة وادّعاء للحكمة. ووقوع الحكم في يدي شيخ الطريقة الدعيّ مثال على ما أقول. لقد حذَّرناك ولكنك تساهلت. فماذا كانت النتيجة؟

ـ أُوافقك في أن الاحتكام للعقل صعب وخطر ولكن الثمن في النهاية مدفوع. ويمكنني أن أردَّ عليك بنفس المثال وأسألك: أين شيخ الطريقة الآن؟

ـ وهل تدّعي لنفسك فضلاً في القضاء عليه؟ لقد قضى على نفسه بنفسه. قضى عليه صندوق التبر. اعتدى على ممتلكات الجن. هذا هو السرّ.

ـ العبرة بالنتيجة. لا يهمُّ كيف ذهب وبأي سبب، المهم ذهب لأننا صبرنا عليه.

ـ الصبر مفتاح آخر. تعويذة أخرى.

ـ هنا يلتقي المفتاحان. الصبر وسيلة من وسائل الاعتدال.

ـ لا تهرب من المواجهة يا شيخنا. نحن نعرف أن كل مَنْ عبد الذهب أقام في قلبه معبداً لشعائر المجوس. هذا انطبق على شيخ الطريقة القادرية المزيف كما ينطبق على ضيفك المجوسي «أناي» اليوم.

ـ مرحى! مرحى! إذا تكلّم الحكيم فلا بدَّ أن يحتكم إلى «آنهي». هذا ما يعجبني في الحكماء. نعم. كل مَنْ عبد الذهب أقام في قلبه معبداً لشعائر المجوس والشيطان. لن أخالفك أبداً.

ـ بل خالفتني عندما حاولت أن ترجع سبب القضاء على شيخ الطريقة إلى شيء غير امتلاكه لصندوق التِّبر.

ـ لم أرجع السبب إلى أي شيء. علم السبب عند الله. ولكني قلت إن العبرة بالنتيجة. وأنا من حقي أن أتكلم في هذا الشأن أكثر من غيري لأني ذقت مرارة المنفى.

أزال المثلثات المتجاورة التي رسمها على الرمل، ثم رفع ركبته اليمنى وأحاطها بذراعيه كالطفل. قال:

ـ . . ولا أريد أن أتحدث عن تلك المرحلة الآن. ولكن لا تظنوا أني أغفلت حقنا في البئر كما يتهمني العوام، وهذا الإمام الذي تولّى مفاوضة «أناي» طوال الوقت نيابة عنّي (أومأ الإمام بعمامته البيضاء فسقط طرف اللثام السفلي عن أنفه المعقوف) وأظن أنهما توصلا إلى اتفاق سأُطلعكم عليه بعد قليل.

رفع رأسه نحو قمة ايدينان وأضاف:

ـ . . كما أرى أن من واجبي أن أعترف أمامكم بغرابة أطوار الرجل دون أن أضطر لاتهامه بسوء النية: فقد طلبت مقابلته ثلاث مرات بعد قيام مشكلة البئر، ولكنه اعتذر عن استقبالي بلباقة محتجاً بالقوافل والتجار والأعمال. ورأيت أن من واجبي أن أجد له العذر رغم كل شيء، فبعثت له الإمام ثلاث مرات للتفاوض ولدهشتي أنه وجد وقتاً واستقبله مرتين في القصر، وتوصَّل معه إلى نتائج سأعرضها بعد أن أفرغ من أمر الشائعات التي تُروى عن الذهب.

جاء الزنجي يوزِّع الدور الثاني من الشاي. تناول الزعيم كأساً عارية

من الرغوة. تأملها بنظرة غائبة ثم وضعها أمامه فوق الرمل. عاد يقول وهو ما يزال ينصب ركبته اليمنى:

ـ لا أنكر أني سمعت الشائعة أيضاً، بثلاث روايات مختلفة: الأولى أن «أناي» جاء من آير بناء على خطة رسمها له أخوه السلطان «أورغ» في تينبكتو، تقضي أن يشرع في بناء مدينة جديدة بديلة لتينبكتو التي أصبحت مهددة من قبل قبائل بامبارا، على أن يبقى السلطان في السلطنة مؤقتاً ليمدّه بالذهب اللازم لقيام مدينة جديرة بالاسم القديم، على أن يلتحق السلطان بتينبكتو الجديدة عندما يحين الوقت المناسب. ولكن مصرع السلطان جعلني أشك في هذه الرواية. أمّا الرواية الثانية فتقول إن في «أناي» طموح قديم يعيش فيه منذ سنوات مزاولة التجارة في آير، فحلم دائماً بالثراء وبتزعم مدينة تقوم على أرض من ذهب. والأساطير التي تُروى في القارة عن أمجاد تينبكتو في عصرها الذهبي هي التي غذت فيه هذا الخيال. وما أن رأى أورغ تعاظم خطر المجوس حتى استدعى أناي وسلّم له مهمة الابتعاد بابنته الوحيدة خوفاً على مشاعرها الدينية من شعائر الوثنيين واستهتار الهمج بالقيم. هنا في آزجر وجد «أناي» الفرصة لتحقيق حلمه القديم فبدأ تشييد البنيان مستعيناً بإمدادات العبيد والتِّبر.

رشف من الشاي البارد الخالي من الرغوة، وأعاد الكأس إلى الأرض ليواصل:

ـ . . تبقى الرواية الثالثة. وتقول إن تجار الشمال هم الذين شجّعوا أناي في عمله وأمدّوه بالمال والرجال وقاموا بتغطية كل النفقات لبناء المدينة تنفيذاً لخطة عثمانية رسمها الوالي في طرابلس، تقضي بأن يتمَّ بناء مدينة تنافس تينبكتو النائية في الثراء. والهدف هو استجلاب الذهب من أعماق القارة، بما في ذلك ذهب تينبكتو الأم أيضاً، لتزدهر المقايضة والمبادلات التجارية وحتى يتدفق المعدن النفيس إلى السواحل (وهذا هو الهدف الأصلي) ليغطي عجز

الامبراطورية المالي وينقذها من الإفلاس. ويُقال إن خبراءً دهاة هم الذين أشاروا على سلطان الآستانة نفسه بهذا العمل. بعد أن رأوا كيف يستنزف النصارى المعدن الثمين دون أن يستغلَّ الولاة البلهاء مواقعهم المتاخمة للصحراء ليقدموا خدمة مقابل مناصبهم وألقابهم وبذخهم. وتقول هذه الرواية أيضاً إن الحاج البكاي يقوم بدور الوسيط بين الأطراف الثلاثة: أورغ وأناي والوالي العثماني. وأنا لا أستطيع أن أعطي لنفسي الحق في تصديق أي رواية من الروايات، ليس لأنها تبدو أقرب إلى الأساطير كما لاحظتم، ولكن التسرّع سفاهة لا تليق بالعقلاء، والحكم بدون برهان أو علم حماقة عند الحكماء. ولا أعرف ماذا سيحدث لقبيلة يتولى زعامتها شيخ أحمق يبني أحكاماً على شائعات الدهماء.

سكت فساد صمت. التفت باخي نحو بكّة فوجده غائباً. هل اشتاق للسكون؟ أم أنه يحدِّق في الأبدية؟ في غيابه حزن و. . . جلال. جلال الشيخوخة عندما تعقد قراناً مع الأبدية، حتى أنه أغفل حديث الزعيم ونسي الحماس الأول.

في الخارج مارست الصحراء طقوس المساء. زرعت الشمس على طول الأفق الأشعة عمودية كسنابل من ذهب فعادت قطعان الأغنام من الوديان، تثير بحوافرها الغبار وتثغو بزعيق حاد. سمع أيضاً هدير جمل هائج.

صادر الزنجي كأس الزعيم. ما زال ممتلئاً بالشاي إلى نصفه، ولكن السائل الزيتي تبدّل وذبل وشحب لونه. ما أسرع ما يفسد الشاي. . ما أسرع ما تهرم الأشياء.

عاد الزعيم:

- . . الحق أقول لكم: لا يجب أن نلوم إلاَّ أنفسنا في المحنة. خالفنا تعاليم «آنهي» وَرَكَنَّا للاسترخاء. أقمنا سنيناً في السهل بدل الأربعين كحد أقصى. كل مَنْ أقام أكثر من اربعين يوماً في أرض أصبح عبداً لها. أليس هذا

ما ورد في الكتاب المفقود يا شيخنا بكّة؟

لم يفق بكّة من رحلته. ويبدو أن آده لم يتوقع جوابه فواصل بلا اكتراث:

ـ في الماضي كنّا نرحل كثيراً إلى الصحاري المجاورة. مساك ملت، مساك صطف، وديان متخندوش، تانزوفت، تاسيلي، ولكن الجدب، كالقضاء، كالسراب، لم يمهلنا طويلاً، وها هو يسود أعواماً. فكرت مراراً أن نهاجر إلى الحمادة الحمراء في الشمال، ولكن تلك الجنة عانت من ندرة الأمطار أيضاً في السنوات الأخيرة. فكانت نتيجة الإقامة في السهل أن استمرأنا الاسترخاء والتصقنا بالأرض كأهالي الواحات، حتى إذا نزل على رؤوسنا ضيف مهاجر مثل أناي، رأينا فيه نفوذنا القديم وأفزعنا في سلوكه سلطان الصحراويين ونفوذهم. ارتجفنا كما يرتجف الفلاحون أمامنا عندما كنا ننزل الواحات سنوات الغزوات والحروب القبلية، فأحسسناه بتفوقه واستيقظ فيه تسلّط الرحل وقرر أن يضرب ضربته.

زفر ثم واصل:

ـ لم يضرب ضربة واحدة. ولكن سليقته الصحراوية أوحت له أن أبواب السماء تُفتح مرة واحدة في وجه الإنسان، فإذا أحسن استثمارها نال النجاح وأصبح من الفائزين، وإذا تكاسل وأفلت الفرصة أقفلت الأبواب في وجهه وعاش خائباً إلى الأبد، فدخل من البوابة المفتوحة وضرب ضربات. وإليكم الميثاق الذي إقترحه عليكم. ولا أخجل من أن أُنبهكم إلى التفوق في الميثاق، نزعة الرحالة المتحررة، حتى الآن، من وزر الأرض، نزعة الفرسان وهم يدهسون غلال الفلاحين الوجلين الذين غرس فيهم حب الأرض جبناً لن يخلّصهم منه إلاّ القبر. لأن أناي داهية فقرر أن يكسب الوقت قبل أن نفيق، ويبني مجداً، لأنه يعرف أن المجد مهما طال به الأجل فمصيره سيؤول إلى تفسخ وتحلل وزوال. ولا أريد أن أقول بهذا إننا عجزنا نهائياً عن الدفاع عن أنفسنا، ولكني لم أر حتى الآن ضرورة تملي هذا الجموح. فالرجل ردّ على

تساؤلنا بعرضين: الأول يقضي بالإبقاء على بوابة السور الغربية مشرعة طوال النهار، على أن تقفل أبوابها بالليل. ويرحب العرض الثاني بأي عائلة من القبيلة لعبور السور والدخول للمدينة. وسوف يعمل السلطان على أن يعامل الآزجريين معاملة أهل واو الأصليين سواء بسواء. كما تعهد السلطان بدفع أتاوة مقابل استعمال البئر واستغلال الأرض.

تبادل الوفد نظرات سرية. تمايلت عمامات وتناطحت رؤوس. ارتفعت الهمهمة فقطعها الشيخ:

- كما ترون فإن العروض حتى الآن عادلة ومَنْ رأى منكم غير ما أرى فليجاهر بالرأي. فما رأي الجليل بكّة؟

ولكن بكّة كان ينصت لسكون الأبدية. لكزه الشيخ باخي ولكنه لم يخرج عن صمته. اعتدل باخي وسوّى اللثام حول أنفه وتولّى الرد عن صديقه:

- لا تلمنا يا شيخ آده. الزعيم الحليم مَنْ صبر على المخالفة. وآنهي يقول: لا يستقيم شيء بدون نقيض.

تمايل برأسه يميناً ويساراً وزفر مردداً: «أييييه» علامة الشجن والحنين إلى واو المفقودة. ثم ما لبث أن غاب مع بكّة وأنصت للسكون.

(٢)

سكون الصحراء...
لغة العزلة. حرم الأبدية. موّال الخلود الحزين.

على مرتفعات الحمادة يدمدم بضجيج مدهش كصفير الرياح، وفي بعض الأيام يعزف موسيقى كأنغام «امزاد»، وفي الصحاري الرملية يقرع الطبول في الليالي، وينصت فيه الشيوخ لمحاورات الأسلاف ووصاياهم للأجيال الضائعة.

وتقول الأسطورة أن الخالق فضّأ العالم وجرده من الحياة كي يتفرّغ لخلق

المخلوق فصنع الصحراء الكبرى. خلق المخلوق وراقته سكينة الصحراء فباركها وخلق في قلبها واحة واو وتنفّس الصعداء. ولا زالت التنهيدة الجليلة تسمع في سكون الصحراء حتى اليوم، والأصوات التي تدمدم في الفراغ كالأنغام هي أنفاسه الجليلة. فأصبح الانصات للصمت عبادة. ولم يكن لغير المعمرين، الذين ذاقوا طعم السكينة، أن يفهموا سرّ هذه اللغة. فاتخذوها «وَاوَ» أخرى يقضون في رحابها اللحظات المعدودة من حياتهم الفانية. وكثيراً ما يضرب الحكماء منهم صدورهم النحيلة ليرددوا: «واو الحقيقية هنا. قفص الصدر أسوارها والسكون لغتها. والبلهاء هم الذين يبحثون عنها في المفازات الخالية».

(٣)

خرج موسى من دار الأميرة مع القيلولة. استوت الشمس على عرشها بكبرياء وسكبت الشعاع الناري على رأس الصحراء العارية فتسكع السراب في الخلاء بألسنة من لهب. مشى نحو البوابة الشرقية ولكنه عاد قبل أن يبلغ ساحة السوق. نزع زمالته الملتفة حول رقبته كثعبان ولفها حول رأسه بإحكام وترك وجهه مكشوفاً. احتمى بجدران واو وتوغل في الأزقة المعتمة بالجريد. انتعش بالظلال وراقته الأزقة المتربة الخالية، على اليسار جلس على الأرض ثلاثة عسس زنوج يستندون إلى الجدران المطلية بالجير ويلهثون باسترخاء. أطولهم قامة جلس على رؤوس الأصابع متكئاً على باب ضخم صنع من جذوع النخل. يهش الذباب الملحاح ويمضغ التبغ بكسل. وعندما واجه الباب سمع مطارق الحدادة فعرف أن الباب يؤدي إلى الرواق السرّي الذي حاول أن يدخله خلسة منذ شهور. على اليمين، فوق الأرض، تربع عساس آخر، بدين، ذو أنف أفطس ومنخارين كبيرين. يواجه النار ويعدّ الشاي. يمسك بِمِسْعَر من الطلح يزيح به الأعواد المشتعلة جانباً ويكدِّس الجمر المتوهج حول وعاء الشاي. بجواره تكوَّمت حزمة من الحطب. إلى يساره جلس الثالث، مستنداً إلى الجدار، مادّاً رجليه نحو الممر، ينظر إلى الفراغ وينصت

لطرقات الحدادين وهم يضربون الحديد.

كانت بنيته أضعف من رفيقيه، ويبدو أنه أقصر قامة أيضاً.

مشى موسى خطوات ثم توقف. أخرج من جيبه السوار. تفحّصه قبل أن يتقدم نحو العسس. انحنى فوق رأس الزنجي البدين. رمقه بعينه الحولاء. رسم على شفتيه ابتسامة بلهاء فبرزت أسنانه الأمامية الناتئة.

سال من فمه خيط فضي طويل، رفيع، من اللعاب. تدلّى من شفتيه ببطء وسقط في النار. تلقته الجمرات المتوهجة والتهمته في فحيح ولهفة. وراء اللعاب أسقط موسى السوار الذهبي في النار. كان سواراً نادراً، مضفوراً بعناية كما تضفر النساء جدائلهن الأمامية، مفتوحاً في نهايتين مهيبتين متوّجتين بثعبانين متقابلين. يكشف فك أحد الثعبانين عن لسان شره يمدّه إلى الأمام نحو خصمه المقابل حتى يكاد يسدّ الفتحة الضيقة المخصصة لمرور معاصم الحسان. وقع السوار فوق جمرات خابئة تعلوها طبقة فضية من الرماد، بجوار الوعاء، وتدحرج حتى غاب رأس الثعبان ذو اللسان الشرس في الحطب المشتعل.

رفع العساس البدين رأسه نحو الدرويش. فلاحظ موسى أن منخاريه ازدادا اتساعاً برغم الأنف الأفطس المستجير بالوجنتين، ورأى في عينيه الحيرة. رشق المسعر في الرمل ومدّ يده والتقط السوار من النار. ألقى به في صينية مليئة بالماء إلى منتصفها مخصصة لغسل كؤوس الشاي، فاستغاث الثعبان بفحيح مكتوم. دس البدين إبهامه وسبابته في الثرى والتفت إلى المارد الجالس على رؤوس أصابعه بجوار الباب. قال:

ـ هل يُختبر ذهب تينبكتو بالنار يا بوبو؟

بصق المارد لعاب التبغ وأهال عليه حفنة من التراب قبل أن يهز رأسه بالنفي. ابتسم النحيل بغموض وعلّق بلا مبالاة:

ـ أراهن بناقة أن هذا السوار من مجوهرات الأميرة.

أخرج البدين السوار البديع من الماء وتفحصه باهتمام فأكمل النحيل دون أن يرفع رأسه:

ـ ما رأي الدرويش؟ هل يراهنني بناقة؟

تمتم موسى:

ـ ها ـ ها.. أصبت. من مجوهرات الأميرة. ولكنه يبدو مثل النحاس.

صاح البدين يخاطب المارد:

ـ هل يشبه ذهب تينبكتو النحاس يا بوبو؟

بصق المارد لعاب التبغ مرة أخرى. هشّ ذبابة ملحاحة أمام وجهه وهزّ رأسه بالنفي. فعاد البدين يتساءل:

ـ هل يستطيع النحاس أن يبني تينبكتو يا بوبو؟

ابتسم المارد باستخفاف وامتنع عن الإيماء بالرأس. استمر البدين يقلّب السوار في يده ثم أعاده إلى الدرويش وتكلم بلغة آير المجهولة:

ـ لو كان النحاس يبني مدناً لما شقي الناس وقطعوا الصحراء بالقوافل من الشمال إلى الجنوب. لو كان النحاس يبني مدناً لما أصبحت تينبكتو قبلة التجار و«واو» الباحثين عن النعيم. تينبكتو فريدة لأن الله خصَّهَا بمعدن آخر فريد. السرّ في المعدن يا موسى المرابط!

مسح العرق بكم جلبابه الفضفاض ورفع عقيرته بموّال «أساهغ» يمجّد ذهب تينبكتو. تمايل النحيل مع إيقاع اللحن وردد المارد خلفه أبيات القصيدة حتى انتهى الشاعر إلى المقطع الذي يتحدث عن مهاجر تائه، أفقده العطش صوابه فتعرًى في الصحراء استعداداً لملاقاة ربه، فلمعت في الأفق أهلّة الجوامع ببريق التِبر. اقترب من الأسوار فوجدها مبنية بسبائك من الذهب. دخل المهاجر المدينة فلاقاه أهلها بالضيافة وسخّروا لخدمته الحوريات فسقينه أمتع الشراب وأطعمنه ألذ الطعام وغفا ليرى أجمل الأحلام. وعندما صحا

وجد نفسه هاجعاً تحت طلحة بائسة في صحراء «أضاغ» والشمس تصهر الأرض. اختفت المدينة ولكنه لم يعد يحس العطش والجوع. فقيل إنه زار واو في حين أنه زار تينبكتو.

ضحك الدرويش ولكنه كتم ضحكته عندما رأى دموعاً في عيني العساس النحيل. قال البدين وهو ما يزال يهزّ منكبيه انفعالاً بالموال:

ـ الدرويش لم ير تينبكتو فما أدراه ما الغربة؟

تكلّم المارد لأول مرة بصوت غريب، خافت، مبحوح:

ـ الدراويش غرباء من أصلهم. الدراويش يولدون غرباء.

انحنى موسى فوق كوم الحطب. انتزع عصاً من الطلح وانطلق عبر المعر. ظلّ يسمع البدين يواصل مواله الحزين بالمفتتح: «ديـ ـ يـ ـ يـ ـ دا ـ ا ـ ا . . .» حتى أفضى به المعر إلى ساحة السوق الغربي دون أن ينهي الرجل الموال بالآهات الفاجعة التي تسبق الأبيات في ألحان «أساهغ». في الساحة العارية انحرف قرص الشمس غرباً ولكنه استمر يسكب أشعة وحشية سخية. بجوار السور امتدّ ظل قصير فاحتمى به موسى من قساوة الجلّاد الخالد. في شق السور المقابل، عند النهايات، تكأكأ رجال البنيان وتسلقوا الجدار. بينهم رأى الخبير ينتقل بين البناة ممسكاً بحبل مفتول من الشعر الأسود مشيراً إلى أعلى بعكازه القديم. التفت نحو رجل مجاور فلاحظ موسى أذنه المكشوفة وطريقته المثيرة في لفّ العمامة. على صدغه لمع خيط من العرق. قهقه بصوت عال معبراً عن الدهشة لأنه رأى خيط العرق من هذه المسافة.

توقف عند نهاية الضلفة الغربية من السور ونزع لثامه. مزّق منه طرفاً بمساعدة أسنانه وعاد يلويه على رأسه بإهمال. أخرج السوار من جيبه وربطه بالخيط في رأس العصا. ابتسم لنفسه وهو ينزل المرتفع المشرف على البئر. توقف عند الفوهة وتفرج بحزن على أنقاض التحصينات البائسة التي حاول بها أوخا أن يحمي البئر من غزو الغبار. رفع العصا إلى أعلى فومض تبر

تينبكتو في سوار الذهب: وميض قاس، لعوب، غامض، يخفي أسرار الأدغال ويوحي بجلال الجن.

ضحك بصوت مسموع. مسح اللعاب بكمه وواصل مسيرته إلى النجع.

في منتصف الطريق، وراء الرابية المعممة ببقايا البركان القديم، قابل كوكبة من النساء، يحملن القِرَب لاستيراد الماء من البئر. بينهن عرف الشاعرة. بجوارها تتمايل الحسناء «تميما» التي أقسمت أن تتزوج أوخا وراهنت، بيقين أدهش القرينات، أنه لن يكون من نصيب بنت الأغراب. هذا اليقين أفزع الصبايا وجعل العاقلات في النجع يتهامسن بموهبتها في تعاطي السحر السرّي، فعاملتها النساء المجرِّبات بما تستحقه من التبجيل والحذر.

بدأن في صعود الرابية عندما باغتهن موسى وكشف عن السوار المشؤوم الذي برق، تحت أشعة الشمس، بوميض آير المجهول. وميض الأغواء، الخفي، الواعد، الذي يغمز بألف عين، ويستدرج بألف إيماءة، تنتفض له قلوب العذارى، وترتجف أطراف النساء الخبيرات، لأنهن يتذكَّرن المهاجر المنتظر الذي سيقبل يوماً على ناقة، من الغرب، مزدانة بالأساور والأقراط والقلائد، مصنوعة كلها من ذهب تينبكتو الأسطوري. يلمع النحاس المقدس ويضيء الصحراء فتهفو له القلوب، يركض خلفه الفتيان وتتبعهم الفتيات. ينطق المهاجر المنتظر بوعده ويقول إنه سيقودهم إلى واو، فيهرع خلفه الباقون من ضعاف النفوس طمعاً في الفوز بواو وبالأشياء الجميلة، اللّماعة. ولكن المهاجر اللئيم يطرح لهم كليما على هاوية في منتصف الطريق داعياً أتباعه إلى وليمة موهومة ينال فيها الجمع حصصهم من جواهر الذهب. يتدافع إليه ضعاف النفوس فيسحب المهاجر بساطه ليتساقط الأتباع في هاوية بلا قاع.

والآن جاء المهاجر بالبريق الخفي.

شهقَت الشاعرة وأشاحت بوجهها. تراجعت تميها برأسها إلى الوراء فكشف بحركتها المفاجئة عن عقد من حبات الخرز الملون. ضحك الدرويش بخبث ومدّ الثعبان المعلق مهدداً. تفرقت النساء واستغاثت بعض الزنجيات بولولات مكتومة. شاء أن يبالغ في المداعبة فطاردهن بالثعبان الذهبي فتفرّقن هاربات. سقطت القِرْبة من منكب الشاعرة فتركتها عند قدمي الدرويش واحتمت بتميها. توقف موسى وغرق في ضحكة طويلة حتى انحسر لثامه عن فمه. هددته تميها المكابرة بسبابتها، وغمغمت زنجية فرعاء بسبّة فاحشة. فيما قرأت الشاعرة تعويذة بصوت مسموع.

هرول إلى النجع.

استقبلته «تافاوت» في مدخل الخباء. أحكمت لحافها الأسود حول رقبتها وابتسمت. فاضت عيناها ببهجة ودعته لتناول شاي العشية. كبر الفرح في عينيها الكبيرتين. ليس فرحاً. شيء آخر غامض ممزوج، ربما، بالفرح. قالت:

ـ الدنيا تشتعل وأنت تنتقل في النار. ادخل. الظل اليوم جنة.
ـ ها ـ ها. جلبت الهديّة.

بدأ يفك الخيط ويحرر الثعبان من العصا. اختفى التعبير البهيج من عيني الفتاة. غزت عيناها عتمة. تشرَّبت وجنتاها بالشحوب. رأت الشيطان المهاجر في الثعبان الذهبي ذي الرأسين البشعين فتحركت شفتاها الذابلتان بتميمة قديمة. التميمة الأولى. الدرس الأول الذي يتلقاه الطفل من أُمه عندما يبدأ في تعلم الكلام والحياة فيسمع أنه جاء إلى الصحراء ضيفاً على الجن، وعليه أن يراعي تقاليدهم ولا يمسَّ ممتلكاتهم حتى يعود إلى المجهول. والذهب معدنهم المفضل. وامتلاكه اعتداء على حقهم وخرق للعهد المبرم بين الصحراويين وأهل الخفاء.

ركعت الفتاة على ركبتيها ودسَّت يديها في التراب الرامض. نزعتها

وعادت تهدهد الأرض بباطن كلتا اليدين دون أن تتوقف عن التمتمة الجليلة بالتعاويذ. في الخباء غمغم الطفل فسمع الدرويش صوت امرأة تلاعبه بأغنية كئيبة. مدّ السوار فتلقته تافاوت بكلتا يديها. لمع تحت الشمس فنزلت به في صمت وجلال ووضعته على الأرض. انحنى الدرويش فسقطت قطرة من لعاب على الحصى فابتلعها التراب العطشان وتبخرت. راقب كيف تملكتها تلك القتامة المبهمة فشاخ وجهها وشقته الغضون.

امرأة عجوز حزينة حلّت في تافاوت. أدهشه التحوّل فركع بجوارها. اختلط بريق التِّبر في الثعبان بوميض حبات الرمل تحت أسياخ الشعاع.

همهم موسى:

ـ لم أظن أن الهدية آثمة. قالت الأميرة إن الله خلق الذهب كي يهديه الرجال للنساء.

بكى الطفل في الخباء فدللته المرأة بأغنية جديدة. قالت بحزن:

ـ هذا في آير. يهديه رجالهم لنسائهم في آير. ما أنْ يشبَّ الفتى حتى يتعلّم كيف يغزو قبائل الأدغال ليأتي بالذهب. لأن نساءهم لا يعشقن رجالاً لا يستطيعون أنْ يعودوا بالذهب من الغزوات.

ـ ولكنها أقسمت أن عين كل امرأة على الذهب.

أكملت تافاوت في خشوع:

ـ . . يتعذبون، يشقون، يقاتلون، ليعودوا بمعدن النحس مغموساً بالدم.

ـ يفعلون ذلك كي يتقرَّبوا للنساء. هنَّ السبب.

ـ . . تأتي القوافل من الشمال، من آخر حدود الصحراء، وتحجُّ إلى تينبكتو لتقايض كل شيء مقابل الذهب. كل الدنيا تسعى إلى تينبكتو. كأنها واو الموعودة، كي تجلب حصتها من التِّبر. يعود بعضهم إلى بلدانهم سالمين،

ويهلك الكثيرون في منتصف الطريق.

- كي يرضوا الزوجات والحبيبات. المرأة أصل البلاء.

- ولكن قبيلتنا ما زالت على عهدها. يجب أن تعيد الأمانة إلى أهلها.

- الأميرة؟

- الجن!

ضحك ببلاهة فقالت ببرود خفيّ:

- عدْ في المساء. بعد المغيب. سنذهب معاً.

أخفتِ السوار في طرف اللحاف، ودخلت الخباء.

غاب الجلّاد وخلّف وراءه حريقاً في الأفق.

عاد في عتمة المساء فوجدها تنتظر في العراء الخلفي. خلف خبائها تمتد رقعة من الخلاء تفصلها عن الروابي مجموعة من البيوت ومرابط الأغنام.

سلكت الطريق الجنوبي الشرقي المتجه نحو «واو» كي تتجنّب الفضوليين.

مشت بجواره صامتة. لوت حول رقبتها نفس اللحاف الأسود.

أضفى الحزن قساوة على جمالها فخفق قلب الدرويش لسحره وسرّه.

قطع طريقهما قطيع من الغنم عائداً من المرعى. تصايح خلفه ثلاثة رعاة. في الهواء ارتفع الغبار ورائحة التيوس. سدّ موسى أنفه بلثامه وسأل:

- لم أر «أوداد» منذ شهور. مضى عمر على وعده بأن يعلمني الغناء.

- لم أره منذ عام. عاد من رحلة إلى تاسيلي وذهب إلى أبراجه المعلقة في تادرارت. ولكن عشقه للجبال لم يمنعه من أن يحوم حول ديار الأميرة.

- ها - ها...

- كلكم تحومون حول «واو» كما تحوم الفراشات حول النار.

حدجته خلسة وأضافت:

ـ الأميرة نار ستحرقكم جميعاً. أنتم بلهاء ولا تعرفون بنات آير.

ـ هـا. نعرف أنهن اختـرعن السحر. و. . . نعـرف أنهنَّ أول مَنْ سخّر الذهب في أغراض السحر.

ـ ما فائدة أن تعرف وتجري، مثل الآخرين، وراء الموكب!

ـ أنا؟!

تشجَّعت بـالعتمة فحَـدَجْته بنـظرة مجهولـة. وراء الجبال البعيـدة أعـطى القمر إشارة بالقبس فقال تافاوت:

ـ مكتوب في آنهي أن يوماً سيأتي يخون فيه الصحراويون العهد.

يقايضون الفضة مقابل الذهب، فويل لَمْن بـاع أعضاء القمـر مقابـل تبر النحس.

ـ أجزاء القمر؟

ـ نعم. الفضة. عملة الصحراء منذ الأزل. عندما ماتت تانس واختفت مملكة الصحراء انتقلت جدتنا الحسناء وأقامت عـلى القمر. من هنـاك أرسلت للنـاس قطعـاً من جسد القمـر كي تقيم لهم الدليـل بانها خـالـدة عـلى أجمـل كوكب. الفضة عملة مقدسة لأنها عطية من تـانس. لون الفضـة حزين مثـل القمر، مثل وجوه الصحراويين، مطفأ وحزين عكس الذهب اللاع اللعوب.

دحـرج موسى بنعله حجـارة شرسة. انحـرفا يسـاراً قبل أن يبلغـا روابي البئر. قال الدرويش:

ـ ولكن المملكة. . أين اختفت المملكة؟

ـ مَنْ يدري؟ ربما لم تختفِ. يقولون إن مملكة تانس هي واو الموعودة.

ـ وهل اختفت واو؟

ـ مَنْ يدري؟ يُقال إنها ما زالت موجودة في مكان ما في الصحراء.

رآها القليلون ولكنهم يخفونْ السرّ ولا يتكلمون أبداً. ويقول البعض إنها اختفت منذ أخرج منها السلطان جدّنا الأول مطروداً. ويؤكـد هؤلاء أن شهود

العيان الذين يدّعون أنهم فازوا بالدخول إلى واو لم يدخلوا في الحقيقة إلاّ مدن الجنّ.

ـ وهل مدن الجدن كثيرة حقاً؟

حدجته باستنكار قبل أن تجيب:

ـ مدن الجن في الصحراء أكثر من مدن الإنس. وها نحن نطرق أبواب أقدم عواصم الجن.

بدأت تتمتم بالتمائم والأدعية.

أفضى العراء إلى واد مكسو بتجاعيد رملية ونباتات يابسة تلتصق بالأرض كأنها تفتش عن النداوة وتستجدي الماء. سارا عبر الوادي شمالاً. رأى موسى شبح «ايدكران» يقود ناقته العجفاء عائداً من المراعي. قطع الوادي الشاحب واتجه غرباً كي يتجنّب قدم الجبل الوعر ويأوي إلى مغارته من الجهة الأخرى. سمعه يدحرج الحجارة بمداسه ويرطن بأبيات بلغة بامبارا، فلم يعرف موسى ما إذا كان الغريب يغنّي أم يقرأ بعض التعاويذ.

بلغا قدم الجبل.

على ظهريهما سلّط البدر ضوءاً بكراً، باهتاً، تسلّق سفح الجبل في خجل. توقفت تافاوت بجوار كوم من الحجارة. قبر قديم مستدير. غرقت في ترديد الأدعية والتعاويذ. عمّ سكون الأبدية فلم يسمع موسى سوى همسات تافاوت الغامضة. حلت عقدة لحافها وأفرجت عن السوار الذهبي الملفوف في قطعة من الجلد. التفتت نحوه وهمست:

ـ ردد ورائي، وإفعلْ كل ما أفعل..

استمرّ يراقبها بدون اكتراث. ركعت بجوار القبر ورفعت رأسها بخشوع نحو الصَرْح السماوي المربع. أشعة البدر المبكرة أغرقته بفيض الضياء فازداد جلالاً وغموضاً. رددت بصوت مستعار:

ـ باسم «آمان»(*) الذي يجري في عروقنا.

وجرّت السوار فوق معصمها الأيسر متابعة عروق الدم. أفلت موسى ضحكة مكتومة فأسكتته بنظرة فزع. ردد وراءها: «باسم «آمان» الذي يجري في عروقنا».

ـ باسم «آضو»(**) الذي نتنفسه.

ونفخت في السوار بأنفاسها. ردد الدرويش: «باسم «آضو» الذي نتنفسه».

ـ باسم «آمضال»(***) الذي خُلقت من ترابه أجسادنا.

ومررت السوار فوق صدرها وركبتها. ردد موسى: «باسم «امضال» الذي خُلِقت من ترابه أجسادنا».

ـ باسم «ايكدي»(****) الذي أقام عودنا وجعلنا ندبُّ على قدمين.

وضربت بالسوار على أسنانها أولاً، ثم على عظام معصمها الأيسر. ردد وراءها: «باسم «ايكدي» الذي أقام عودنا وجعلنا ندبُّ على قدمين».

حفرت حفرة صغيرة. وضعت داخلها السوار وأهالت عليه التراب. أنزلت اللحاف على وجهها وقرأت التمائم طويلاً. وعندما نهضت وودعته للانصراف رأى الشيخوخة في وجهها كما رآها لأول مرة قبيل العشية عندما وضع في يدها «الهدية». قال مداعباً:

ـ لم أعرف أنك ساحرة. كل سكان الكهوف سَحَرة. ها..

حذّرته بصرامة:

(*) آمان: الماء.

(**) آضو: الريح، الهواء.

(***) آمضال: الأرض، التراب.

(****) ايكدي: الحجر (تماهق).

ـ لا تلتفت! إيَّاك أن تلتفت!

ـ ها ـ ها . .

ـ لا تضحك. يجب أن تكفّ. في مثل هذا الوقت لا يليق بالدرويش أن يكون طفلاً.

اتجها شرقاً كي يتجنبا بيوت الفضوليين فارتفع في مواجهتهما قرص البدر الفضي، المطفأ، الحزين.

(٤)

طوّق السور فوهة البئر وانتهى «ايمستغ» من عمله. طاف النذير الأعمى بالبيوت وبشرّ بنية السلطان في إقامة الوليمة.

في الصباح انفلت الريح وجاءت أمواج القبلي بالغبار والأعشاب البرية اليابسة. خرج النذير مع غزوة القبلي الأولى. اهتدى بعكازه المصقول، المكسو بنتوءات بارزة كالدمامل، وتسكّع في النجع بقامته القصيرة، وثيابه البائدة ذات الأكمام الواسعة، يأوي إليها الريح. تنتفخ كالقربة، فتدفعه في الاتجاه المعاكس حتى يترنّح ويكاد يسقط على الأرض. ولكن النذير لا يتوقف عن ترديد النداء: «عاقلكم ينبّه غافلكم. حاضركم يبلغ غائبكم. . .». يبتلع الريح الصوت، يطير بالنداء إلى قمم «ايدينان» ليلقيه في سمع الجن. يعيد النذير النداء، ويعيد، لأنه يعرف حيلة الريح، ولأنه يعرف أيضاً أن للجيرة حقاً، والجن أيضاً مدعو لحضور الوليمة. يكرر البشارة ليسمعها كل الناس. يحسّ بالحريق في حنجرته ولكنه لا يكفّ عن النداء حتى تسمع العجائز والشيوخ الذين أصابهم العجز بالصمم وأثقل الزمان سمعهم. أثقل طول الإصغاء للسكون الصحراوي الأبدي آذانهم وأنساهم صوت الإنس: لغة الإنس التي تتحول معها المفردات إلى طنين ذباب أو كتلة من الضجيج. وهو، النذير، الأعمى، الوحيد، الذي فقد البصر منذ الصبا، يعرف معنى أن يكون الصمت تسلية وحيدة. يعرف أن العجائز والعميان

فقط يفهمون لغة السكون.

لحق به الدرويش. أمسك بجلبابه المنفوش وأسنده من الناحية الأُخرى كي يعدل توازنه ويعاونه في دفع الريح. وضع في يده جراباً جلدياً. فاحت منه رائحة لذيذة. رائحة سمن و.. فطائر.

همس موسى:

- فطائر بالسمن وحبات تمر. لم أرك منذ زمان.

ابتسم النذير وتوقف عن النداء. وضع الجراب في مخلاة صوفية تتدلَّى على كتفه مستورة تحت الجلبات الواسع. ضغط على يد موسى وقال بصوته المهيب:

- لن ينقطع الخير في الصحراء ما دام فيها دراويش.

- ها - ها...

مرَّا بجوار خيمة الزعيم فسمع موسى نداء. اقترب منهما زنجي مكشوف الفم وأخبر أن الزعيم يريد أن يتحدث إلى الدرويش.

زعق موسى بـ «ها..» وركض نحو بيت الزعيم دون أن يحيّي النذير بكلمة وداع. قبل أن يبلغ خيمة الشيخ بخطوات سمع النذير يرفع صوته الجليل، المبحوح، الجميل، كأنه دعاء فاجع يلقيه الأعمى في يد الريح كي تبلغه إلى السميع المجيب في المجهول. يقترب الصوت الفخيم ويبتعد حتى يغيب تماماً لأن الريح تستقطع حصتها لتبلغ نداء آخر، يخفيه النذير في البشارة، غير الدعوة إلى حضور وليمة مهاجر واو.

أجلسه الزعيم بجواره. في المدخل تجمَّع عدد من العبيد، يدقون أوتاداً إضافية لتثبيت جناح الخباء الأمامي. في الزاوية تربَّعت فتاة خلاسية حول صينية الشاي. ابتسم موسى وهو يراقب حصن الحجارة الذي طوَّقت به الفتاة البارعة حفرة النار كي تحمي أطراف الخيمة من شظايا الجمر وشرر النار التي تتطاير كلما تنفس الريح في ثقوب الخباء.

بدأ الشيخ:

ـ قيل إنك عدت من زيارة إلى واو.

ـ ها ـ ها. أنا أدخل واو وأعود كل يوم، وربما كل يومين.

لم يتعوّد الزعيم أن يستعمل لغة الإيماء مع الدرويش ولكنه وجد حَرَجاً هذه المرة. ثنى طرف الكليم ليصل إلى الرمل. رسم مثلثاً في شكل هرم وقال:

ـ ولكن الزيارة الأخيرة اختلفت عن الزيارات السابقة. هم..

التفت موسى مستفهماً. رفع الشيخ رأسه فرأى الدرويش ما أخفاه الزعيم في العين. هتف:

ـ ها. نعم. لقد عدت من هناك بسوار من الذهب.

ابتسم الشيخ وقال بتأنيب:

ـ ولماذا لم تخبرني بأن السلطان يتعامل بالذهب؟ أنت تعلم ما يجلبه هذا المعدن الخبيث من سوء للصحراء.

ـ الحق أني كنت أشك في البداية. دخلت مرة إلى الرواق السرّي فطردني العسس ولكني لم أتيقن أن ما يسكّه الحدادة ذهباً إلاّ بعد أن أعطتني الأميرة السوار مقابل خدمة أدّيتها.

ـ خدمة؟

ـ وصية. ولكن ذلك سرّ.

وضعت الصبية بينهما صينية الشاي. عليها صُفَّت ثلاثة كؤوس داكنة، حاسرة من الرغوة. رشف موسى من كأسه وأعاده إلى الصينية النحاسية. اشتكى:

ـ مرٌّ. الشاي مرٌّ. سأشرب من الدور الثاني.

هبّت موجة من الغبار. صفقت أجنحة الخباء كأنها تنوي أن تطير.

قال الزعيم:

ـ طالما سمعت أن واو المزعومة قامت بالذهب ولكني لم أُصدِّق..

ـ أنا أيضاً سمعت.

ـ هل سمعت مثلي بأن الوباء تسلل إلى دارنا أيضاً؟

غرق الدرويش في ضحكة طويلة. مسح دموعه بطرف لثامه وقال مازحاً.

ـ هذا استدراج. ليس من السهل يا شيخنا أن يُستدْرَج الدرويش للشرك حتى لو كان الذي يمسك بالشبكة هو الزعيم نفسه. ها ـ ها..

ـ الصديق لا يستدرج صديقاً حتى لو شكّ في نواياه.

رمق الشيخ بخبث ثم قال:

ـ يحزنني أن أخبر شيخنا أن شكوكه صحيحة. الوباء تسلل من زمان. منذ الأيام الأولى.

ـ هل هو ظن؟

ـ ها. شيء من هذا. وربما يقين. أُراهن أن العرَّافة تكتنز الذهب منذ وصول المهاجرين.

ـ العرَّافة؟!

أعقب السؤال بضحكة قصيرة ثم قال مداعباً:

ـ لا بدَّ أن يغتنم الدرويش الفرصة كي يرمي العرّافة بحجر.

ـ العرَّافة مزيفة. هل نسيت أنها رفضت أن تعقل الريح؟

توقف الزعيم عن تخطيط الأرض. تناول كأسه ورشف الشاي في ثلاث جرعات. قال:

ـ عَجَّزتني بشرط. طلبت رأس إنسان مقابل ذلك.

ـ رأس إنسان؟

هزَّ الشيخ رأسه بالإيجاب فازدادت عين موسى الحولاء بياضاً. همس لنفسه بغضب:

ـ المجوسية!

علَّق الزعيم بحزن:

ـ لا أظن أنها المجوسية الوحيدة. إذا عرف الوباء طريقه إلى النفوس فتهيّأ للدخول في معبد المجوس.

في الخارج عوّى الريح وأتى بصدى بعيد لنداء النذير.

سأل الشيخ فجأة:

ـ ماذا فعلت بالسوار؟

ـ ها. علقته في طرف العصا كما كنت أفعل مع الأفاعي في الطفولة وأفزعت به الصبايا. ها ـ ها..

ـ ...

ـ ثم.. فعلت به ما يجب أن يفعله أي رجل بالمعدن اللعوب: قررت أن أخطف به قلب المرأة فأعطيته لتافاوت. ها.

باغته الزعيم بنظرة ذات معنى فواصل الدرويش بانكسار:

ـ ولكنها وهبته للجبل بدل أن تضعه في المعصم.

سكت الزعيم. بدأت الفتاة تخلط الدور الثاني من الشاي. في الخارج صفّر القبلي في الخلاء فارتجفت أطراف الخباء وصفعت الأرض كأنها تنوي الرحيل.

سأل الزعيم:

ـ هل رافقتها إلى الجبل؟

هزَّ موسى رأسه بالإيجاب وأخفى فمه بطرف لثامه. دمَّر الشيخ رسومه على الرمل بحركة واحدة وقال بغموض:

ـ لقد ربطتك بسلسلة أقوى من سورة الفاتحة ومن كل آيات القرآن.

رفع الدرويش نحوه العين الحولاء ونزلت قطرات اللعاب على لثامه الأبيض فلاحظ الشيخ البلل. أوضح الزعيم:

ـ . . بالقربان.

ـ هل يربط القربان للجن رجلاً وامرأة؟

ـ أقوى رباط.

ـ ولكن. . ولكنها في ذمة اوداد؟

ـ الجن لا يعترف بذمم الإنس. لهم ناموسهم.

ـ ولكن. . ها ـ ها. ولكن أنت تعرف سرّي

ـ أعرف. والجن يعرف ذلك، ويعرف أكثر مما أعرف عن نفسي وتعرف أنت عن نفسك.

ـ ها ـ ها ـ ها. . .

ولكن عينيه لم تجاريا ضحكته. عيناه نطقتا بشيء آخر. بالشقاء. عينا الدرويش لسانه. ولسانه الخفي هو الذي توسّل للشيخ، بالعينين الشقيتين، قائلاً: «أنت لن تذيع السرّ»، فنكس الزعيم رأسه لحظات، ثم رفعه نحو صديقه البائس وقال له دون أن يهزّه بالإيماء، أخبره أيضاً بعينيه قائلاً: «سأحمله معي إلى المقبرة».

حمل لهما الريح نداء النذير.

(٥)

في آخر الليل، عندما ذبل القمر وأصاب وجهه الشحوب والتعب، جرح السكون الصحراوي البكر نداء خفي آخر، وحشي، في وادي الطلح:

ـ عو ـ و ـ و ـ و. عو ـ و ـ و ـ و ـ و. . .

نداء فاجع، غامض، تجفل له الإبل ويستولي عليها الوجوم والجلال،

وتُصاب قطعان الماعز عند سماعه بالشلل. نداء تقشعر له أبدان الرعاة، وتلقن العجائز أطفالهن بحيله وطباعه منذ السنوات الأولى. ويحظى بين الشيوخ بتبجيل لا يلقاه عندهم إلاَّ أهل الخفاء.

الحيوان الوحيد الذي يستولي على حصة الأسد في روايات أهل الصحراء وقصصهم. ينادونه بألف اسم، بألف كنية، بألف لقب، إلاَّ اسمه الحقيقي. لأن النطق باسمه على اللسان دعوة له، وكل لفظة «ايبجّي»(*) في فم طفل، أو عجوز، أو رجل، تقرّبه من القطيع ألف خطوة. «ايبجي»: الاسم الحرام الذي يجاهد العرَّافون وينفقون كل ما أُوتوا من علم خفي كي يعقلوا سيقانه ويعموا بصره وبصيرته ويبعدوه عن القطيع. يقولون إن ذلك يأخذ من الجهد أكثر مما يأخذه إعداد عِقَال لأقوى شيطان في الصحراء. وبرغم ذلك فليس ثمة أسهل من بطلان هذه التعويذة. يكفي أن ينطق غلام شقي بالاسم الحرام ليتفسّخ الحجاب ويدخل الحيوان في القطيع. وإذا دخل في القطيع فإن النار اشتعلت في القش. يقضي على القطيع كله قبل أن ينتهي الراعي من إتمام الشطر الأول من أغاني «أساهغ».

ولكن الرعاة الحكماء هم الوحيدون الذين يقرأون السرّ في صوته أيضاً. يعرفون متى يكون جائعاً، ومتى يكون شبعاناً. يعرفون أن في ندائه حيلة: إذا شبع بكى، وإذا جاع ضحك. ويقولون إنه يصيح بعواء فاجع عندما يشبع لأنه يعرف أنه سيجوع طويلاً قبل أن يفوز بضحية أُخرى. ويصيح بنداء مرح، بهيج، عندما يجوع، لأنه يعرف أن الجوع مهما طال فسوف ينتهي بوليمة من الحملان ويعقبه الشبع. ولا أحد غير هؤلاء الحكماء يستطيع أن يميّز حال هذا الوحش ويقرأ لغته في العواء.

نزل الوادي مهتدياً برائحة الدم والزيت. و.. رائحة إنسان ما زال يتنفس.

(*) ايبجي: الذئب (تماهق).

كان صغيراً. في حجم جدي بلغ من العمر ثلاثة أشهر. في حجم ثعلب بالأصح. أشعث، مكسواً بشعر كثيف، شاحباً، بلون حجارة السهول، في الصحراء الجنوبية. كلما تحسس الأرض بخَطْمه الشره المستطيل، مقتفياً الآثار، باحثاً عن الدم والحياة، كشف فكاه عن نابين بارزين شرسين. هذا هو المخلوق الذي يبجِّله العقلاء وتنسج العجائز حول شراسته وقوته الأساطير، ويُحَرَّم على الصحراويين أن يدعوه باسمه الحقيقي، ويقضي العرَّافون العمر كاملاً كي يؤلفوا ضده تميمة تعميه وتضلل سبيله إلى القطعان. موخامّد! هذا هو اسمه المستعار. بهذا الاسم المستعار خاطبه الدرويش أيضاً من فراش الموت، في تلك الليلة التي عانى فيها القمر من التعب والشحوب. في البداية، عندما عاد له الوعي، لم يعرف أين هو ولا ماذا حدث ولا كم مضى من الوقت وهو صريع في هذا الموقع. أحسّ فقط بالدوار وألم لا يُطاق أسفل السرّة. حلقه جفّ وفمه تبخّرت منه آخر قطرة لعاب. في أنفه اختلطت رائحة الشياط بالدم بدخان الحطب. وقبل أن يفتح عينيه ويبصر القمر الشاحب كان ضيفه ينهمك في عمل مقدس قديم ورثه عن أجداده القدماء. أبلغوه في الوصية أن يبتعد عن الصحراويين، وشددوا في التحذير من مواجهة الناس. لأن لؤمهم وخبثهم وحيلتهم حيَّرت الخالق نفسه. وأباحت الوصيةُ المُبَاغَتةَ. إذا هجع الإنسان فإن نومه ثقيل. ولكن أنْ يهجع لا يعني أنه نائم أيضاً. يتوسّد التراب وتنتظم أنفاسه، وقد يهمد مثل ميت، فإذا اقترب الذئب أصابه بأذى. هذه حيلة أُخرى من حيل الإنسان اللئيم. مع الحيلة لا تنفع سوى الحيلة. فإذا وجدته هاجعاً فيجب أن ترجمه بالتراب كي تتأكد أنه نائم. فإذا لم يتحرك فتأكد أن نومه عميق. اِحفرْ تحت رأسه حتى يتدلّى رأسه وتبرز عظمة حنجرته في الرقبة. عندها فقط تستطيع أن تخاطر وتنزع العظمة بأنيابك التي لا تُقارن، في قوتها وخفتها، لا بعقل الإنس ولا بسلطان الجن.

ركع القمر المتعب. أرسل إلى الخلاء بضياء شاحب فتضاعف غموض

الصحراء. تفقَّد «موخامّد» الموقع. تحسس بخطمه الأرض. ابتعد عن الجمر الخابيء بقفزة فزع. ثم عاد واقترب من الضحية. بحذر. شمشم التراب وتناول حفنة بين مخالبه. استدار إلى الخلف ورشق الدرويش بالرمل في وجهه. انتظر ردة فعل الإنس لحظة. عاد يدير ظهره للضحية ويهيل على وجهه وجسده حفنات سريعة، كثيفة، متتالية، من الرمل. في هذه اللحظة انتفض الجسد وبعث الدرويش من صدره حشرجة الموتى. تراجع «موخامد» خطوات إلى الوراء. أنصت للسكون وأنفاس الجسد وأقعى على ساقيه الخلفيتين وانتظر. فتح موسى عينه الحولاء فرأى الضيف الجليل يجلس فوق رأسه بمهابة حاجباً وجه القمر المتعب. تمتم الدرويش:

ـ هل هذا أنت يا موخامد؟

لم يتحرك الشبح فواصل الدرويش بصوت متقطع:

ـ هل جئت كي تعيد الحفيد إلى عشيرة الأجداد؟

تراجع «موخامّد» خطوات أُخرى. توقف بجوار طلحة وأقعى على ساقيه الخلفيتين متفكِّراً، محاولاً أن يجد في رموز الوصية القديمة جواباً على سؤال الضحية المدهش. ولكن ذاكرة الدرويش كانت أصفى وأنقى، ربما لأن غيبوبة الموت تطهِّره من عتمة الشر وتقرِّبه من الحرم. تعيده إلى أصله البتول فيجد نفسه على أبواب واو الأُولى. «واو» البداية و«واو» المنتهى.

تذكَّر الدرويش في غيبوبته نسب الجدّ. جد الدرويش الذي ضاع في الصحراء مع أُمه وأبيه. مات الأب والأُم بالعطش وتبنّت ذئبة تربيته مع صغارها في الجبل. سقته من حليب ثدييها ومزَّقت بأنيابها الخرافية ثعباناً كان ينوي أن يخنق الطفل الشقي بجسده الكريه. كبر جد الدراويش في رعاية الذئاب وتعلّم لغة الوحوش. تعلّم أن يضحك في العواء إشارة الجوع ويبكي في العواء إشارة الشبع. علَّمته الذئبة الرحيمة كل حيل الذئاب. حتى جاءت حواء.

نـزلوا قـطيعاً مهيبـاً على وادٍ غني بشجـر الرتم. شمَّت الـذئـاب رائحـة الأغنام وقرر الحكماء أن يغتنموا الفرصة ويغيروا على القطيع قبـل أن يتوصـل عرَّافو النجع إلى إعداد العِقَال وينتهوا من رموز التعويـذة. أغار معهم الجـدّ وهجم على معزة يريد أن يمسكها بمخالبه ويخنقها بأنيابـه. هنا رأى. . حـواء. وقفت الراعية مذعورة. تمسك بعصا من السدر، تحيط خصرها النحيل بحزام من الجلد. عـلى صدرهـا البكر تتهـدَّل الأحجبة الجلديـة وجدائـل من الشعر الفاحم، ضُفِرت بدقة وعناية. انسكبت عليها أشعة الغسق فلمع في الجدائل الدهن بوميض من تبرٍ. في عينيها دهشة وعلى شفتيهـا البنفسجيتين المتـوترتـين فزع. اِرتخت أظافره الشرسة القابضة عـلى عنق المعزة الشقيـة فأفلتت ولكنهـا وقفت في مكـانها مذعورة كـأنها لم تصـدق النجـاة. ولكن الـراعيـة الحسنـاء استمـرت تتراجـع. وكلما خَـطَتْ خـطوة إلى الخلف كلما زحف الجـدّ وراءهـا خطوة. اصطدم قفاها ببقايا أثلة قديمة ميتة، أكلها التراب وزحف على رأسهـا الرمل والملح، فوقعت على ظهـرهـا. اقـترب منها ووقف فـوق رأسها. تحـسس جسدها الناعم «بمخالبه» الخشنة فـأغمضت عينيها من الفـزع. لم يكن يعرف ماذا يفزع هذا المخلوق الجميل. لأنه لم يكن يعلم أن مَنْ عاش مع الوحـوش ورضـع من حليب الذئـاب هـو ذئب ووحش. ولم تكن هي تعـرف أن خلف هـذه الكتلة القبيحة من الشعـر والأظافـر يـرقـد قلب درويش بـريء أضـاع الطريق إلى واو فرضع من حليب الذئاب. لم تكن الراعية المسكينة تـدري أن الإنسان مهما تاه في البرية الأبدية فلا بدَّ أن يجد الـطريق إلى حواء، لأن المـرأة هي المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يعيد الوحش إلى حظيرة البشر حتى لـو كان درويشاً من فصيلة الذئاب.

في ذلك المساء، في عتمة المغيب، عاد الوحش إلى الناس. استطاع جسد الراعية الناعم أن يذكِّره بالنـاس ويعيده إلى الـواحة التي تغـرَّب منها قبـل أن يعي الحياة.

في الليل لم يشارك الجـدّ إخوتـه الذئـاب احتفالهم بـالغنائم. جلس عـلى

رؤوس أصابعه وغرس «مخالبه» الأمامية أمامه في التراب وحدّق في الظلام. أحسّ بأن عصفوراً صغيراً شقياً يغني في صدره ويرفرف بجناحيه. أنصت لغناء الطائر العجيب دون أن يعرف أن الطائر هو قلبه بلغة البشر، وغناءه هو حنين الرجل الأبدي للانفصال عن الأم والالتصاق بالمرأة، بأنثى أضاعها عندما خرج من كهوف المجهول.

الذئبة الأم فقط فهمت السرّ. لأنه لا شيء أبداً يستطيع أن يمنع الذئب من الاشتراك في وليمة الأغنام إلا إذا كان يخفي في صدره قلب إنسان مرهوناً في مكان آخر غير الصدر. راقبت أولادها وهم يتخاطفون قطع اللحم الدامية وأحسّت بالحزن.

في الفجر هرب الدرويش إلى النجع. وكانت الأم تحس بأنه سيفعل ذلك. اقتفت أثره وصعدت الرابية. فتحت فكيها بالنداء الفاجع:

- عو - و - و - و. عو - و - و - و - و...

تصدّى الجبل البعيد للصوت فعاد الصدى أليماً، فاجعاً، أكثر مما مضى. رفرف العصفور في قلب الإنس الهارب وعاد إلى أمه. دسّ رأسه في صدرها وقال لها إنه لن يستطيع البقاء. قالت له بلغة الذئاب إن قدره حكم عليه أن يعيش ممزقاً بين النقيضين: الإنسان والحيوان، المنفى والأصل، الجسد والقلب. ولن يجد السكينة إلّا إذا حدث المستحيل وتوحّد النقيضان. وإذا ظنّ أن التغرُّب عن الأم التي أرضعته من حليبها ليلتحق بالأنثى، ليلتصق بالمرأة الأخرى سيهديه إلى السكينة فهو واهم. إنه يهرب إلى الخلف، إلى ظلمات الكهف الأول. إلى الخواء والجنون. ثم اقتربت منه وهزّته بمخالبها الأمامية وقالت بلغة قاسية، واضحة: «مَنْ زرع الشرّ في صحرائنا التي لم يخلق الخالق بقعة تنافسها في الجمال والروعة: الإنسان أم الذئب؟ مَنْ أباد الغزلان وقضى على الودّان: الإنسان أم الذئب؟ مَنْ استنزف مياه الآبار وأفسد عيون الماء: الإنسان أم الذئب؟ مَنْ نزع الأشجار الصحراوية من

جذورها وأحرق النبات وخرَّب العشب: الإنسان أم الذئب؟ مَنْ تجاسر وقتل طيوراً غير ذات نفع، الغربان والغرانيق وأصغر العصافير: الإنسان أم الذئب؟ مَنْ رفع يده وقتل أمه وأخاه وأباه: الإنسان أم الذئب؟ والآن: مَنْ منّا الوحش: الناس أم الذئاب؟ أنت تهرب من عشيرة وديعة لا تبحث إلا عن لقمة صغيرة مرة في الشهر فقط كي لا تموت من الجوع، وتلجأ إلى عشيرة تأكل بلا جوع، وتشرب الماء إسرافاً للماء، وتخرِّب بلا حاجة، وتقتل بلا سبب». فقال الدرويش باكياً إنه لن يستطيع أن يقاوم النداء، لأن الطائر في صدره طار ودخل في الراعية الحسناء، وجسده البشع فقط بقي هنا، في السهل، معها. فهمت الأم المسكينة أن الإنس لا بدَّ أن يعود إلى حظيرة أهله، كما يعود الذئب من نجوع الناس إلى قطيع الذئاب. عانقته طويلاً ولكنها أخفت دموعها. وعندما غاب الدرويش خلف الروابي، يممت شطر القبلة ووجهت خطمها الطويل إلى القبس الفجري الصحراوي البكر وفتحت صدرها للشكوى والفجيعة:

ـ عو ـ و ـ و ـ و . . .

ويُروى أن عواء الوداع استمرّ عاماً كاملاً، وفي روايات أُخرى اثني عشر عاماً. أصبح النداء الفاجع، منذ ذلك التاريخ، لغة الذئاب.

سمع موسى قصة هذا الاغتراب، وعرف، منذ الطفولة، كيف تزوج جدّه الأول من الراعية الحسناء بعد عودته من حياة الذئاب. والآن، تذكَّر هذه القصة ليس لأنه رأى ذئباً فوق رأسه. ولكن لأنه تخلَّص من العضو الذي كان سبباً في هروب الجد من أمه، العضو الشيطاني الذي أغواه بالراعية وجعله يحرق قلب أم التقطته من العراء وأنقذته من العطش وآوته ومنحته الأمان والحياة. لم يستطع أن يمنع نفسه من الحنق على جدّه الأبله منذ سمع هذه القصة المخجلة. واليوم انتقم لجدته وحزَّ سبب الغربة. لعق شفته بلسانه محاولاً أن يرطِّب فمه ويستحلب اللعاب. تمتم بجهد:

ـ الآن تستطيع أن تبشّر جدتنا بأني فضلت العودة إلى عشيرتنا وهـذا هو البرهان. خذه وأخبر جدتنا برغبة الحفيد الضال في العودة إلى العشيرة.
و. . أُغميَ عليه من جديد.

(٦)

في الصبـاح التقطه رجـال البكاي وحملوه إلى الـزعيم. أقام شيـخ القبيلة وليمة كي يعتني بالمريض. أمر زنوجه وأتبـاعه فنصبـوا خباء خـاصّاً لاستقبـال الـزوّار. نحر الـذبائـح واشترى من أسـواق «واو» الطعـام والسكـر والشـاي لإطعام الضيوف والاحتفال بالوافدين المهنئـين بسلامـة الدرويش من عـدوان الذئاب.

هكذا أشاع الزعيم. أو هذا ما أراد الدرويش أن يسمعـه الناس من فم الزعيم. فبعد أن جاء به التجـار وتلقاه آدّه في خبـائه تبـادل مع الشيـخ نظرة طويلة خفية أثارت دهشة رجال البكاي. نظرة أودع فيها مـوسى سرّه وتوسّـل بها للزعيم أن يكتم هذا السرّ دون أن يضطر لاستعمال الكلمات. لأنـه يعرف أن الشيـخ هو المخلوق الـوحيد في السهـل الذي تـوقع، ربمـا بخبرتـه، وربما بموهبته، انه سيفعل شيئاً بقلبه ربمـا أكبر ممـا فعل. والحق أن مـا رآه في عيني صديقه النبيل من المرونة فاق تـوقعاتـه هو نفسـه. انتظر أن يـرى الإدانة، أو اللوم، أو الغضب، ولكنـه لم ير في تلك اللحـظة الخـاطفـة التي تقـابـل فيهـا بصرهما، سوى الألم.

أنزله من الجمل ثلاثة رجال بحذر شديد، ووضعوه في الخبـاء ملفوفـاً في بطانية رمادية أكل الاستعمال لونها الأصلي فبهتت ومـالت إلى البياض. تـوقف النزيف في الليل ولكن ثوبه كان مبقعاً بالدم والزيت. من ثيابه انبعثت رائحة الزيت والشياط فذبل وشاخ واسودّ وجهه تماماً. على نهايتي شفتيه برزت طبقة رقيقة من الزبد الناصـع، انحسرت الشفة العليـا عن أسنانـه فازدادت بـروزاً ونتوءًا. العينان مـطفأتـان، تدور فيهـما مقلتان كبـيرتان من البيـاض. ينتفض

ويرتجف بقشعريرة الحمّى ويحطـم رأسه الصداع والوهن.

استدعى الشيـخ عـجوزاً زنجية، جاءت تحمل أوعية خشبية دست فيهـا مرهم الأعشاب ومستحضرات العطارين والعجائـز. لفته بـالأغطيـة في زاوية الخباء ودست يداًملوثة بمرهم لزج بين رجليه فأطلق صرخة أليمـة. قال أحـد التجار:

ـ حول رأسه حام الذئب طول الليل.

دعاهم الشيخ للبقـاء ولكنهم اعتذروا خشيـة أن يتأخـروا في بلوغ مرزق حيث ينتظرهم الحاج البكاي. شيَّعهم الشيخ حتى قدم الجبل ثم عـاد فوجـد المريض يهذي بالحياة الـرائعة التي عـاشها في عشـيرة أجداده الـذئاب. ظلَّت العجوز تزمُّ شفيتها باشمئزاز وتحدج الشيخ خلسة حتى قال لها بصرامة:

ـ لقد هاجمته الذئاب في وادي الطلح.

حدجته بشك فسدد لها نظرة صاعقة. تمتمت بفزع:

ـ نعم. نعم. هاجمته الذئاب.

قال وهو يقف في المدخل ويستعد لإقامة الطقوس للمهنئين:

ـ هل أنا الذي أخبر بأن الذئاب حامت حول رأسه طول الليل؟ هـل أنا الذي يرقد في الفراش ويهذي بالحياة الممتعة في عشيرة الذئاب؟

رددت العجوز كالطفل:

ـ هاجمته الذئاب في وادي الطلح.

وسكتت إلى الأبد.

جاءت مربية موسى العجوز وبكت فوق رأسه طويلاً حتى اضطر الـزعيم أن يخرجها من الخباء بالقـوة. جاء الشيـوخ والعجائـز، والفتيات والصبيـان. جاءت تامغارت وتافاوت وأوخا وآخماد والإمام والنذير و. . . العـرَّافة تيميط.

ولكن العرّافة لم تدخل الخباء. وقفت بجوار الأوتاد الخلفية ترافقها مجموعة من النساء وراقبته من شق في الخيمة. بعد أيام جاء «أوداد» من الجبال وركع بجواره طويلاً دون أن ينطق بكلمة. عيناه شقيتان ونظرته خاوية، حزينة، غائبة. حتى أن موسى ظن أنه مريض. وعندما سأله عن حاله ابتسم بكآبة وأومأ بأنه سعيد. اشتعل جسد الدرويش بالحمى وغاب في آلامه فتسلل اوداد وسافر إلى تادرارت.

وفي اللحظات التي يسترجع فيها موسى وعيه تعمّد أن يبالغ في وصف قطيع الذئاب الذي هاجمه في وادي الطلح حتى أيقنت القبيلة (التي تعرف غربة الدراويش عن أصلهم القديم) أن الوحوش جاءت كي تستعيد حفيدها، وعندما قاوم موسى هاجمته وجرحته أسفل السرّة. ولم تكن الألسن المتعطشة دائماً لاختلاق الخرافات، تحتاج إلى دعم آخر كي تصنع من هذه القصة أسطورة جديدة. بعد أيام، في قلب الليل، جلس الزعيم بجوار مريضه فقال موسى:

ـ أنا لم أكذب. لقد زارني الذئب حقّاً بعد الطهارة.

طأطأ الشيخ رأسه ومدّ النار الخابية بقبضة من الأعواد. تكسرت أعواد الحطب في النار وخدشت سكون آخر الليل.

همس الدرويش كأنه يكلم نفسه:

ـ لو لم أتطهر لما جاء رسول جدّي. هل تظن أن الرسول يأتي لزيارتي لو لم أكمل طهارتي؟

استمر الزعيم ينكس رأسه ويراقب ألسنة النار وهي تحتفل بقبضة الحطب.

استمر الدرويش:

ـ أنا أعرف أنك تسخر منّي. ولكني أذكر ختان الطفولة. الفقيه لم يقطع الإثم من جذره فحنَّ قلبي إلى حواء عندما كبرت. ولو فعل يومها لما تجرأت

المرأة أن تسرقني من نفسي كما فعلت مع جدّي.

أومأ الزعيم برأسه في حركة مجهولة وواصل المريض:

- جدتنا الذئبة ارتكبت خطأ كبيراً لأنها لم تخلّصه من الإثم. لو طهّرته في الطفولة لما هرب منها عندما كبر. شيطان حواء يقود الرجل من هنا.

وأشار للجرح بين رجليه.

لم يعلّق الزعيم. اقترح المريض:

- لديَّ رجاء

لم يلتفت الشيخ فأكمل:

- أن تترك أمري سرّاً بيننا.

رفع نحوه الشيخ رأسه لأول مرة منذ بدأ موسى خطابه. رأى الدرويش في عينيه ألماً ووعداً فاستلقى على ظهره ونام.

٣ ـ «واو» الأرض و«واو» السماء

«ثم دخل على المفازة وحازها، ثم جازها، فما لأهل، والمهل، من الجبل والسهل».

«الطواسين» ـ الحلّاج

(١)

بعد أن أمر السلطان برفع الحظر عن السرّ تغيّر وجه واو.

سطّر «ايمستغ» البنيان على امتداد جناح السور الذي استلقى شمالاً، وتوقف عن التشييد قبل أن ينعطف الفك العنيد، المسنن بمثلثات المعمار الغدامسي، غرباً، ليلتقي بقرينه الآخر ويبتلعا معاً «حلمة الأرض». على جانبي الجدار الآخر أيضاً قامت صفوف بنيان واطئة، مطلية بالجير، اتخذها الباعة دكاكين لتسويق كل البضائع التي جاء بها تجار القوافل من شمال القارة ومن جنوبها. ولم يصدّق أهل السهل أن يروا في خلائهم المهجور، في زمن قصير، بضائع كانت قوافلهم تقطع مسافات تستمر شهوراً وأعواماً كي يأتوا بها من غدامس أو القيروان أو طرابلس أو كانو أو تينبكتو أو أغاديس أو تامنغست. وجدوا مغريات هذه المدن الخرافية التي يتباهى ابن القبيلة طول العمر إذا حالفه الحظ وزارها مرة واحدة حاضرة في صحرائهم النائية. وحتى التمور والحبوب التي تعودوا أن يقايضوها بالسمن والجبن ورؤوس المواشي مع فلاحي الواحات سعت إليهم الآن وعرض التجار أفخر أنواعها أمام دكاكينهم. وكان يروق لوجهاء القبيلة أن يتسكعوا بين الدكاكين ويتحدثوا عن الأعجوبة التي لم يكن لتتم لولا تدخل الجن بواسطة المعدن الممسوس. ونسى الكثيرون العهد القديم بأسرع ممّا توقعوا أنفسهم فرددوا بإعجاب أن هذا

المعدن السحري لا يدخل أرضاً إلاّ وتركها جنة. وانتحل الحكماء لضعاف النفوس الأعذار وهم يشاهدون سخاء البضائع التي ضاقت بها الدكاكين فاضطر التجار أن يعلقوها على جدران المحلات الخارجية، أو يعرضوها في أكياس وغرائر وأواني في العراء المواجه للمتاجر بعد أن اكتظّت الأرفف في الداخل وفاضت بالخيرات. عبقت في المدينة، بل في السهل كله، روائح التوابل والبهارات والطيب كالعطور والمسك والبخور. فاحت رائحة الشاي الأخضر والأحمر وعرض التجار السكر بنوعيه: العادي والمسبوك في قوالب على شكل أكواخ الفلاحين في الواحات والملح أيضاً بنوعيه: العادي والمسبوك في قوالب. غرق السهل بأنواع الحبوب، وكلما أقبلت قافلة جديدة، حملت مزيداً من أكياس القمح والشعير والذرة والقصب. من الصحاري جاءت اللحوم المجففة: لحوم غزلان وودّان وأرانب برية، وجاموس بري وحملان وجمال. أمّا الأقمشة فخطفت قلوب العذارى بألوانها وخطوطها وأنواعها. وأصبحت النساء والصبايا تحوم حول دكاكين الأقمشة كأنّها قبور الأولين وأضرحة الأولياء يوم العيد. ولم يجد الفتيان أو الفرسان أنفسهم في موقف مختلف. فأعدّ لهم التجار الشياطين مصائد لا تقل فتنة.

جلبوا الجلابيب الواسعة، الطويلة المشبعة بالنيلة الزرقاء، «تجولموست» بأنواعها: الأيرية والآهجارية والنوع الآخر الذي تخصص زنوج كانو في نسيجه. كما لم ينسوا نعل التمبا المطرز بدستة من السيور المختلفة الألوان. كما وجد الفرسان المتعطّشون للغزوات السيوف والرماح والسروج والسياط. أمّا الشيوخ فاقتنوا التبغ والطرونة ومضغوا، وهم يجلسون على رؤوس أصابعهم أو يتوكأون على عكاكيزهم بجوار الدكاكين، وأنصتوا لجعجعة السوق منتشين.

بقي المعدن السرّي.

أمر السلطان بفتح دكاكين لعرض الحلى والمصوغات والمجوهرات على أن

يبقى الرواق مستودعاً يتجمّع فيه الصناع والحدادون ليزوّدوا الدكاكين الخارجية بحاجتها من المصنوعات، فاستمر عمل الحدادة وتواصلت الموسيقى السرية، التي كانت إشارة البدء في بعث واو من المجهول ومفتتحة العصر الذهبي للصحراء الوسطى.

(٢)

حلَّ أول شهور الخريف واقترب ميعاد الوليمة. واصل النذير تجواله بين مضارب النجع، وطاف حول أسوار واو، صعد الروابي وقطع السهل كأنه يريد أن يلقن حجارة الخلاء وصخور الجبال وقمم الطلح بالبشارة بعد أن نقشها في ذاكرة القبيلة وسكان المستوطنة. وحفظ الرعاة والعابرون اليوم الموعود.

لم يهب الله نذير القبيلة الصوت الجليل وحده، ولكن خصّه بموهبة أُخرى جعلته ينافس شاعرات الغزل والمديح وشعراء الفروسية والغزوات. يحتفل بالخبر ويضفي عليه سحراً بلغة الشعر حتى يصبح الحدث أُسطورة شيقة يتوق إليها الناس. وكثيراً ما روت الأُمهات أساطيره لأطفالهن المعاندين كي يأووا إلى فراشهم مبكراً. فلم يستغرب أهل الصحراء أن يسمعوا من النذير أساطير جديدة عن واو لم يسمع بها أحد من قبل. برغم أن الحكماء أكّدوا أن النصوص وردت في «آنهي» في الباب الذي تناقلته الأجيال وسردته الجدّات في القصص والوصايا والأسرار. لأن أهل الصحراء تعودوا أن ينسبوا إلى الكتاب المفقود تلك النصوص الباردة، الصارمة، التي تبحث في فلسفة الحياة وسرّ المهات وتحذر الأحفاد الأشقياء من التورط في الاستيطان واقتناء الممتلكات، في حين أرجعت الأجيال النصوص القصصية، التي تحمل روحاً تربوية، علاوة على جمال الأسلوب، إلى خيال الأجداد وحده. ويبدو أن الشيوخ والحكماء التقطوا هذه الروح الصارمة، القاسية، الباردة (وهي صفات تلازم الحكمة على ما يبدو) في قصص النذير الأعمى برغم إخلاصها لخيال الأجداد في المزاوجة بين الهدف التربوي والمتعة الجمالية.

في السهل الكبير، المطوق برؤوس الجبال الغامضة، ارتفع نداء النذير بقصتين عن «واو» المجهولة، نحتهما الأعمى بصوته النبيل في ذاكرة الصحراء، مروّجاً لوصية من الأجداد تقول للأحفاد: تجنبوا النهم واحذروا الفضول...

أ ـ إخبار الأسطورة الأول

فتحت أبوابها للمهاجر الضائع بعد أن يئس وبدأ يخلع لباسه كي يتعرّى. ولا يعرف أحد من حكماء الصحراء لماذا تأتي الرحمة متأخرة إلى هذا الحد. فلم يحدث أن أُنقِذَ تائه وفاز عطشان بالماء قبل أن ييأس وينزع ثيابه. كما لم يعرف أحد عمّا إذا كان الصحراويون الدهاة يلجأون إلى هذه الحيلة متعمِّدين استعطاف السماء وإعلان التوبة أم أن قطرة الحياة الكامنة في الماء، لا تجبر المهاجر أن يركع ويقبِّل الرمل إلاَّ بعد أن تتبخر وتطير، مع البخار، ببقايا العقل فينسى الصحراوي المكابر الخجل على أبواب الفناء. لأن الفناء هو البوابة الوحيدة التي لا تعترف بالكبرياء والعار ولا تقبل إلاَّ العراة. ويُقال إنه ورد في «آنهي» الضائع تفسير بشأن هذا الامتحان القاسي. فالسماء تتعمَّد أن تؤجِّل الرحمة حتى يطهر العطش بدن المهاجر من الكبرياء وينزع لثامه المهيب عن عورة الفم. وكل مَنْ أُنقِذَ من هذا الوحش وهو عريان سار مكسوراً، مطأطىء الرأس طول الحياة. ويقول آنهي إن المعاندين المكابرين الذين لم يسمح لهم كبرياؤهم بنزع اللثام والثياب وتقبيل الأرض قُفِلَتْ أبواب واو في وجوههم، وضلَّ الملائكة الجوالون في الصحراء الطريق إليهم، ووجدوا أمواتاً بثيابهم، تأكل الديدان أجسادهم، وتحوم الصقور والغربان فوق رؤوسهم.

ولكن مهاجرنا لم يكن من المكابرين. تجرَّد من كبريائه مع ثيابه كما يفعل الصالحون، فجاءت السماء بـ «واو» نفسها وأرست أسوارها المهيبة عند قدميه أسفل المرتفع الرملي. نزلت معها غلالة من العتمة فلم يعرف المهاجر عمَّا إذا

كانت الشمس قد غربت وحلّ المغيب أم أن العطش الكافر هو الذي قاده من يده إلى الظلمات. ترنّح وسقط على الأرض. غاب وجهه في التراب. امتلأ فمه وفتحتا أنفه بذرات الرمل. تنفس الغبار ومضغ الحبيبات المالحة الشقية. رفع رأسه وشاهد أضواء واو اللعوبة، تضيء وتختفي، تقترب وتبتعد، تغمز وتتوارى، في إغراء العذراء. ظنَّ أنه يقف على مشارف الملكوت فانتظر مَلَكَ القصاص واستعدَّ للحساب. هذا من عجب واو أيضاً. فيحدِّث شهود العيان أن الواحة الموعودة لم تظهر لهم إلاَّ بعد أن يئسوا منها ونسوها في زمن بعيد. وورد في آنهي أيضاً أنها مثل الظل، تهرب من الباحثين عنها، وتجري وراء اليائسين منها.

مهاجرنا أيضاً نساها وحسبها ملكوت السماوات.

تدحرج من التلة الرملية وهو في برزخ الغيبوبة. سعى على أربع. زحف على البطن، انكفأ ثلاث مرات وقبَّل الرمل الرامض قبل أن يبلغ أعتاب الواحة. فقد الوعي، لأنه لا يذكر أن سواعد قوية التقطته من سقطته، ولا يذكر أيضاً أن ضعفه يمكن أن يسمح له بدخول البوابة على قدميه. وجد نفسه يستلقي على ظهره على فراش من ريش، تحيط به وسائد منفوشة، محشوة بالقطن والصوف والريش. الجدران شفافة، مغطاة بغلالة ناصعة، تبعث ضياءً فضيّاً هادئاً كضياء البدر. عند القاعدة، على طول امتداد قدم الجدران، تتضافر ألسنة خضراء من العشب، يشطرها في الوسط شريط طويل من الزهور الصغيرة الحجم، مثل زهيرات الرَّتَم، ولكنها متعددة الألوان، حتى أنها تبدو مثل قوس قزح مستقيم على الجدار الفضي المطفأ. رائحتها الحادّة، الخرافية، ذكَّرته أيضاً بزهور الرتم، فظلَّ يشك ويسأل نفسه طوال الوقت عن سبب الدوار: هل هو بسبب العطش أم بسبب زهور الرتم؟ فوق رأسه جلس شيخ مهيب، ثقيل الوجنتين، مطفأ العينين، كثيف الحاجبين، ترقد على صدره لحية بيضاء تميل إلى الإصفرار يغطيها طرف لثامه الباهت الشفاف. يمسك بيد موسومة بالتجاعيد بكأس ذهبي ويقطر في حلقه ماء

الحياة بخيوط مفتولة من الحرير الأحمر. في الواحة خيّم سكون جليل. السكون الذي يعبده الحكماء ويعيش في جنته المعمرون القدماء. ولكن ثمة شيء مدهش يخدش من قداسة هذا الحرم. يسمع عن بعد، وفي فترات متباعدة، متقطعة، غناء الطيور. غناء خفيف، متناسق، بهيج أثار في نفسه حنيناً غامضاً وذكَّره بأنه لا بدَّ أن يكون في ملكوت الفردوس الصحراوي. الواحة الموعودة التي يحلم بها ابن الصحراء منذ يولد إلى يوم يموت. رفع رأسه عن الوسادة الطرية واستند عليها بمرفقيه فابتسم له الشيخ وهزَّ رأسه المهيب علامة الموافقة. فأدرك التائه أن الرجل قرأ خاطره. خلف الشيخ شاهد رؤوس الأشجار وغابة من البساتين تمتد حتى نهاية الأفق. ابتعد الغناء البهيج وعاد السكون الجليل يبتلع كل شيء. فتح المهاجر فمه بسؤال الفضول:

ـ قلْ لي يا عمنا الشيخ: ما سرّ واو؟ متى يستطيع المهاجر أن يعثر على واو؟

عاد العجوز يبتسم ابتسامة الحليم الذي تعوّد أن يغفر خطايا الأشقياء ويجيب على تساؤلات الأطفال. تكلَّم لأول مرة فسمع المهاجر صوتاً هادئاً، نقيّاً، بهيجاً، مثل أغاني الطيور في البساتين الساكنة، فتمنَّى أن يتكلم ويتكلم ولا يسكت أبداً. قال:

ـ لا يدخل واو إلاَّ مَنْ عبر وادي الألم وولد مرتين. ضيِّعْ نفسك تجدها!.

أراد التائه أن يستمتع بالاستماع إلى الصوت أطول زمن حتى يحس بالدفء الغامض ويملأ قلبه البائس بفيض السكينة فسأل بلا وعي:

ـ وماذا أيضاً؟

هزَّ الشيخ عمامته نفياً وفي عينيه رأى نظرة لوم. قال باقتضاب:

ـ هذا كل شيء!

ثم.. أحس التائه بأنه جوعان. فخطر له أن يجاهر برغبته ولكن لم يكد

يفتح فمه حتى أقبل طابور من الحسان، يرتدين لباساً شفافاً كغلالات ملونة. حرير شفاف، ملون. يغطين شعورهن بقطع خضراء، تنسدل على مناكبهن وتتدّلى على الصدور النافرة. الفساتين حمراء، شفافة أيضاً، طويلة، تستر قاماتهن الطويلة حتى الرسغين. في أرجلهن خلاخيل كثيفة من الذهب، وحول رقابهن عقود من الجواهر اللماعة، المتلألئة الألوان. في أيديهن الرشيقة أساور من فضة، ومن الآذان تتدلّى أقراط من ذهب مطعمة بأحجار كريمة زرقاء. جئن يحملن أطباقاً شهية، ذهبية، مليئة بأصناف الطعام. وضعن بجواره أيضاً ملاعق من فضة وكؤوس من الذهب مليئة بشراب متعدد الألوان. أدرك المهاجر أن أهل واو ليسوا في حاجة لأن يستخدموا لغة الكلمات طالما يفهمون لغة الخواطر وحركة الروح.

في الخارج عادت الطيور السماوية تنشد مواويلها البهيجة في متاهة البساتين ولكن السكون العظيم ظلّ اللغة الطاغية.

أكل وشرب وشكر إلّه السماوات والأرض وصلّى ركعتين. شكر أهل واو أيضاً وعانق الشيخ الجليل مودعاً. شيَّعه العجوز حتى أبواب السور. هناك وجد المهاجر ثلاثة جمال، محملة بالبضائع والزاد، في انتظاره. هنا أيضاً تحرَّك الوسواس الخناس في صدر التائه الشقي فطلب زاداً من الحطب أيضاً ليعدَّ ناراً لطهو الطعام، ناسياً أن أهل واو يقرأوون لغة الروح أيضاً. ابتسم العجوز ابتسامة هادئة، ولكن غامضة، وأمر له بجمل آخر محمَّل بجريد النخيل وأعواد الحطب.

خرج المهاجر من واو في العشية. صعد المرتفع الرملي وتوارى وراء التلال. انتظر حتى المغيب فحفر في العتمة حفرة وغرس أول عود علامة تهدي إلى واو. أكل الفضول قلبه وقرر أن يضع إشارات تدله إلى الواحة المفقودة وتدل إليها عشيرته أيضاً ولم يعرف أنه خان العهد في اللحظة التي أشرك فيها عشيرته بكنزه، مقرراً أن يقيم لها الدليل ويقودها في أثره ليغزو بها

الواحة المتنقلة. كان سعيداً لأنه لا ينتمي إلى فئة الطّماعين الجوّالين الباحثين عن الكنوز والذهب، ونسي أنه ثرثار بغيض لم يحفظ في حياته سرًّا. تمنّى أن تحل اللحظة التي سيصل فيها النجع ليحكي للعشيرة عن اكتشافه الذي يقضي أهل الصحراء أعمارهم بحثاً عنه. وكان المهاجر اللئيم يعلم أنهم لن يصدقوه فبدأ يغرس الحطب ويرشق جريد النخيل كي يجد الطريق إلى واحة السراب. فاسمعوا نذيركم يا أهل الصحراء: الفضول رذيلة لا تقلُّ بشاعة عن الجشع! ولينبّه عاقلكم غافلكم، وليبلّغ حاضركم عابركم! نصب المهاجر أعواده يوماً كاملاً، وعندما حلَّ المساء وتهيأ لإعداد طعام العشاء تجهّمت السماء واسودّ وجه الصحراء. هبَّت العاصفة قبل منتصف الليل، واستمرت تحرث الكثبان الرملية ثلاثة أيام. طيَّرت علامات المهاجر البلهاء، وجرَّدته من جماله وزاده. ووجد نفسه ضائعاً، وحيداً، تائهاً، عاجزاً، يكمم العطش فمه ويَعْقِل رجليه ويعمي بصره وبصيرته.

ولم يكن الرّحالة ليحلم بالنجاة مرة أُخرى دون أن يعلّق في رقبته رذيلة تُضاف إلى الفضول. فيا أهل الصحراء: إذا رحمتكم السماء وفتحت لكم واو أبوابها فلا تنسوا أنكم دخلتموها عراة حتى من ورقة آدم وحواء عندما عرفا أنهما عريانان. انسوا أنكم عثرتم على الكنز واكتموا السرّ. اعلموا أن الطمع في العودة إليها إثم، لأن واو الخجولة لا بدَّ أن تهاجر إلى المجهول لتتطهر من إيواء عرق الإنس.

ب - إخبار الاسطورة الثاني

المهاجر الثاني تاجر. فقد السبيل إلى البئر وهو في رحلة إلى زويلة. تخلّى عن جماله الثلاثة ليتحرر من الأثقال وترك طريق القوافل واتجه شمالاً ظانّا أنه سيختصر الطريق إلى الواحات. المهاجر يجهل، حتى ذلك اليوم، حيل الصحراء عندما تقرر أن تستضيف المسافر وتدعوه إلى جوفها، فتستعين بالخوف من العطش، والخوف من العطش يسلب العقل، وإذا تخلّى العقل

عن المسافر وقع في الشرك وقاده السراب إلى الاتجاه الآخر، المعاكس. فارتكب المهاجر أول خطأ عندما هاله امتداد الصحراء وفزع من الضياع. وارتكب الخطأ الثاني عندما تخلّى عن طريق القوافل وسلك الطريق الصحراوي المجهول معتمداً على ذاكرة بلا عقل. قاده الطريق المجهول إلى المجهول ولم يبلغ الواحات أبداً.

جاءت اللحظة التي يتحرَّر فيها الصحراويون من الحياء فيمم التائه شطر الشمس القاسية ونزع ملابسه كلها. ركع على الحجارة الملتهبة عارياً وصاح بيأس: «يا رب. . .» وانكفأ على وجهه في العراء المشتعل و. . سافر إلى الصحراء الأخرى. . . إلى المجهول.

ولكن واو اعترضت طريقه فوجد نفسه في الفراش الوثير، بين وسائد الريش والقطن والصوف، تحيط به الجدران الناصعة الشفافة، الموشّاة بأكاليل سخية من زهور الرتم. يتحلّق حول فراشه عدد من الرجال الذين لا تفارق الابتسامة عيونهم. ابتسامة غامضة ولكنها فاضلة وحليمة. في الناحية الأخرى من الفراش جلست مجموعة من الصبايا الحسان، يلتحفن باللباس الملون، الشفاف. في الخارج أنشدت الطيور أغانيها البهيجة في متاهة عظيمة من البساتين. وعندما أفاق المهاجر من الغيبوبة وعاد له الوعي سمع خرير مياه. وخامره خاطر بأنه سمع هذا الخرير الممتع عندما كان نائماً، في المجهول، بل سمعه دائماً منذ الميلاد، قبل أن يولد، في يوم ما، لا يدري متى. خرير الماء، وهو يحرث الأرض، شقاوة الماء وهو يشاكس الصخور، يمازح الأحراش ويغازل الحجارة. ما أجمل لغة الماء وهو يجري. ما أجمل السيل. السيل الدائم، الأبدي، الذي حرم الله منه الصحراء. تُرى ماذا فعلت الصحراء حتى استحقت هذا القصاص؟

أنصت طويلاً للغة الماء الشقية، الخفية. ثم التفت إلى أقرب رجل ليسأله عن السيل فأجابه الرجل مبتسماً قبل أن يفتح فمه بالسؤال:

ـ نعم. إنه السيل الخالد. النهر!

ـ النهر؟!

هزَّ الرجل عمامته بالموافقة دون أن يجيب فقال المهاجر:

ـ في الصحراء أيضاً أنهار. أنهار قديمة. آثار لأنهار محفورة في جسدها كالتجاعيد الأليمة، الحكيمة، في وجوه المعمِّرين. ولكن الماء لا يجري فيها إلاَّ مرة كل مائة عام، وربما ألف عام. لأن الصحراء العطشى تهرع إلى الوادي وتبتلع عطية السماء. في الصحراء يعطيك الإنسان عمره إذا أريته وادياً يجري بالماء. فماذا فعلت الصحراء حتى تُحرَم من الماء وتستحق لعنة السماء؟

رفع رأسه دون أن ينتظر جواباً وناح بألم:

ـ ما أشقى الصحراء! ما أشقى الصحراء!

تنقَّل بعينين غائبتين بين الوجوه الوقورة، الهادئة وأضاف:

ـ لا أحد يعلم ما يعانيه أهل الصحراء كي يفوزوا بزيارة واحدة لـ «واو». أنتم لا تعرفون ما يعني أن يسمع الصحراوي خرير الماء وهو يجري في البساتين، بين الحجارة التي صقلها بلسانه، والأحراش التي يطوِّقها بشقاوة وإغراء. الماء! الماء! ما أجمل الماء.

لمعت عيون الجماعة بالبسمات والبريق. جاء ثلاثة غلمان يحملون طبقاً فضيًا صففت فوقه كؤوس صغيرة من الذهب مليئة بالشاي. وضعوا الطبق فوق الفرش الوثير فتناول التاجر كأسه. قلّبه في يده وتابع شكلاً مجسماً بفسيفساء من الجواهر لغانية راقصة، هيفاء، تنثني إلى الوراء في حركة إغراء. خدش نسيج الفسيفساء بظفره، فسطعت الجواهر اثر انعكاس الضوء على الحبيبات. اقترب بوجهه ليتفحص الكأس فغزت أنفه رائحة خليط مدهش من الأعشاب البرية. فخُيِّل له أنه يعرف هذا المزيج من الزهور، ولكنه لا يعرف متى ولا يدري أين. ربما في الحمادة الحمراء في موسم الربيع، وربما في جبل نفوسة.

رشف من السائل فأحسّ بدوار خفيف تلاه صفاء واسترخاء. ظلّ منتشياً بالشراب طويلاً ولكن الانتشاء لم يقتل الوحش الذي استيقظ في صدره. وحش قاده من أنفه وطاف به كل القارة الصحراوية. من غدامس إلى كانو، ومن تينبكتو حتى زويلة، ومن تامنغست حتى القيروان. ولم يكف عن التنقل منذ أخذه أبوه ليرافقه في أول رحلة منذ خمسين عاماً. تنقّل بين المدن العريقة ولكنه لم ير فيها إلاّ الأسواق. بل لم ير في كل البقعة الصحراوية غير الصحراء. لم ير الربيع في الحمادة، ولم يستمتع بزهور الرَّتم وهي تتفتّح بعد المواسم المطرة، لم يتمتع بقطعان الغزلان وهي تسرح في الوديان في هدوء وأمان. لم يشاهد الودّان العريق في مرتفعات الصحراء الوسطى برغم أنه يتغذّى بلحمه كل يوم. حلم بالأنهار الجارية ولكنه لم يتسلّق الجبال الزرقاء في حدود الحمادة الجنوبية ليرى كيف تجاهد القمم الخفية لتجمع ماء المطر قطرة قطرة لتصنع نهيرات حقيقية صغيرة تتدفق من الشُعَبِ العالية وتصبّ في الوديان السفلية. لم ير هذه المعجزة لأن العطش في قلبه وليس في الصحراء. وهيهات أن يعيش في الصحراء، أو يتمتع برموز الصحراء، مَنْ عاش في نفسه صنم التجارة وعبد فيها ضجيج الأسواق. لقد نسي النهر واستيقظ فيه وحش الاكتناز منذ رأى الكأس الذهبي وسطع في وجهه نسيج الفسيفساء.

تراجع خرير الماء وهرب النهر. طارت البلابل وكفّت عن الإنشاد. سمع صوت الوحش يهتف فيه: هذه كؤوس واو المطعمة بفسيفساء الفردوس. يكفي أن يعرف التجار في غدامس أن الواحة الضائعة فتحت لك أبوابها ليرتفع سعر الكؤوس إلى السماء. ستساوم وتضارب كما تقضي شريعة السوق حتى تضرب ضربتك وتعوِّض خسارة سنوات الكساد. وجهاء العثمانيين سيدفعون أي ثمن عندما يعلمون أن الكأس جاء من الواحة الخفية!

أفرغ السائل في جوفه وغافل الجلساء ووضع الكأس في جيبه. بعدها أُصيب بالعماء والصمم. لم ير غير الكؤوس ولم يسمع سوى رنينها في الطبق. انقضت أيام الضيافة الثلاثة فتأهب للسفر. شيّعه الوجهاء بوجوههم الباسمة

حتى بوابة السور، وودّعوه بالحفاوة والجلال.

خرج التاجر من واو وفي جيبه ثلاثة كؤوس مطرزة بغانيات من فسيفساء الفردوس. قضى ليلته الأولى في واد عارٍ من الشجر. تفقّد كنزه فغمزته الغانية بإغواء. ارتجف في قلبه الوحش وتأملها طويلاً. أوقد النار وأعدَّ لنفسه عشاء فاخراً من الزاد الوفير الذي حمّله له وجهاء واو الأسخياء. طبخ قدراً من لحوم الغزلان وأعدّ خبز القمح في أحشاء الرمل ودهن لحيته الشرهة بسمن الماعز ودهن اللحوم. يروق له دائماً أن يمسح يديه في لحيته فيتغذّى الشعر وتلمع اللحية بالدهن والجلال. تعلّم هذه الحيلة من تاجر داهية يملك نصف دكاكين غدامس وقطعاناً من الإبل في الحمادة. نام بدون أحلام وفي الصباح واصل رحلته. قطع مسافة ثلاثة أيام قبل أن يكتشف التحوّل ويجد أن النحاس حلّ في الكؤوس. لم يصدِّق عينيه وكذَّب خبرته التجارية الطويلة في التعامل بالذهب والمعادن في أسواق الواحات. اختنق بالحنق ولم يتوقف حتى دخل سوق زويلة. قصد تجار الذهب واختلى بتاجر عجوز سبق أن تعامل معه في صفقات تجارية في زيارات سابقة. امتحن العجوز «البضاعة» في النار وأعاد الكؤوس للتاجر قائلاً إنها نحاس. والغانية المنسوجة من فسيفساء الجواهر تحولت إلى غانية بائسة، مطفأة، منسوجة من حبات الخرز الأعمى.

فيا أهل الصحراء: إذا فتحت لكم واو أبوابها فاخرجوا منها عراة، لأنكم عراة دخلتم إليها.

(٣)

«اسفحوا الدم. أريدكم أن ترووا الأرض بالدم. لا تبخلوا على الصحراء بالقرابين. انحروا النوق والمعيز، الودان والغزلان، وليشبع القاطنون والعابرون، التجار والرعاة. استضيفوا حتى الوحوش والجوارح. لأن غزارة الدم ودعاء الوحش والطير يلينان قلب الأرض فتقبل استضافة واو وتتحمل على صدرها عبء الأسوار والجدران».

امتثل العبيد لأمر السلطان، فنحروا الذبائح وسفحوا دماء القرابين. ارتفعت ذيول الدخان مخلوطة برائحة الشواء حتى بلغت أبعد المراعي وأقصى الواحات، كما أخبر عابرو السبيل، فأقبل الرعاة والتجار، الرحل وأهالي الواحات، أهل الصحراء وسكان الكهوف، الذئاب والصقور. أصبحت واو قبلة الصحراء في أسابيع قليلة.

زار ايدكران أيضاً الزعيم ليحدّثه عن القرابين.

قابله منذ أيام في السوق الغربي. تجوّل مع بعض الوجهاء وتوقفوا أمام دكان يعرض مصنوعات الذهب. حيّاهم ايدكران بيده المحفورة بالجدري فاستفزّه الإمام. قال ساخراً: «الأجدر أن تبحث عن الكنوز في واو بدل الكهوف والصخور. انظر، أيها الغريب، كيف سبقك التجار الشياطين وجاءُوا بكل كنوز الصحراء إلى الواحة الموعودة». ابتسم ايدكران وستر عينيه بطرف عمامته العلوي وغاب في زحام السوق. ولكن الشيخ آدّه أخرس الإمام بنظرة استنكار فقطع ضحكته وهرب بعينيه إلى الناحية الأخرى حيث تجمَّع الرجال حول تاجر عجوز جاء من الحمادة ليبيع الترفاس المجفف. التقى الزعيم بالغريب كثيراً، ودعاه لتناول العشاء مراراً، ولكن الضيف الغامض كان يعتذر بلباقة في كل مرة ليؤجِّل الدعوة.

اليوم جاء للزيارة بدون دعوة قبل بزوغ القمر.

استقبله الشيخ في العراء خارج البيت ووقف يرحب ويعيد الجمل الوقورة ليعبِّر عن ابتهاجه بالزيارة، ويؤدي واجب الطقوس التي سنّها ناموس الصحراء. دخل الخباء وعاد بالكليم. فرشه في الجانب الغربي من الخيمة مستمراً في الاستفسار من ضيفه عن حاله وصحته وأحلامه وغربته وكيف قضى ليلته الأخيرة. بالمقابل ظلّ الضيف يجيب على الأسئلة المكرورة ببطء وصبر وخبرة مَنْ عاشر أهل آزجر وعرف المراسم.

فرغ الزعيم من طقوس الاستقبال وجاء دور الصمت. حلّت تلك

اللحظة العصيبة التي تستعصي على العرّافين ويحتار الحكماء في إيجاد مفتاحها السرّي. اللحظة الفاصلة بين مراسم الترحيب الجليلة وهوة الهموم اليومية، بين حرارة القلب وبرودة الحياة، بين لغة الشعر السماوية ولغة النثر الأرضي. ليس ثمة أصعب من الانتقال من دنيا الفردوس الذي يشيّده القلب الإنساني وبين متاهة الجحيم التي يعود فيها القلبان المفتوحان، منذ لحظة، من رحلتهما الخرافية إلى الحبس الأرضي: حبس المكان والزمان والحياة اليومية. والشجاع هو مَنْ وجد الكفاءة في نفسه كي ينتقل فوراً من نعيم القلب المفتوح إلى جحيم الحياة الدنيا. اكتشاف هذا المفتاح هو الذي يسميه أهل الصحراء: الحكمة. والحكمة هنا لا تعطي الحق لأي من الطرفين أن يتجاسر ويفتح البوابة ليتحدث عن واو، لأن الحكمة لا تبيح، في عرف الصحراويين، تسمية الأشياء باسمها، لأن الحكمة لا تعني الشجاعة. وكثيرون يعتقدون أن الله خلق المزاج الصحراوي المتقلب خصيصاً كي يصنع لهم المفتاح السحري، الذي ينقذهم من ورطة أن يتحولوا إلى أصنام، فيجدوا كلمة سرّ ينقلون بها محدثهم من جنة القلب والحب إلى نار الأرض والناس.

ليست الحكمة التي أنقذت الزعيم من عبء اللحظة وانما الوحي الإلهي. دخل الخباء مرة أخرى وعاد بكوز من الحليب الطازج. قدّمه لضيفه ونطق بكلمة السرّ:

- عشنا وشهدنا بعيوننا زمان العجب. إذا استمر القبلي على هذا الحال، فإننا سنشهد قريباً قيام بحر الرمال العظيم في الصحراء الوسطى كما شهد أقدم أجدادنا قيام البحرين الرمليين العظيمين في شرق الصحراء وغربها.

ابتهج باكتشافه وبدأ يوقد نار الشاي. وبعد قليل أحسَّ أن سبب سعادته ليس في اكتشاف المفتاح السحري ولكن لأن النجاح الذي حققه سهَّل على الضيف أن ينتصر على الحَرَج التقليدي ويخرج من القوقعة. اندفع الحديث في الاتجاه الدنيوي تلقائياً عندما علّق بصوته الهادىء، الساخر، الخفي:

ـ لا يعامل ظواهر الصحراء على أنها ظواهر بلهاء إلاَّ البهائم والبلهاء. أمَّا الحكماء فيجدون فيها الإشارة. الإيماءة. القبس.

بدأ قبس القمر يغمر الأُفق ويفصل قمم الجبال عن الأرض. فرَّك الزعيم يديه ليداري الحرج الذي سببته ملاحظة الضيف المستترة، القاسية. قال بعد فاصل صمت:

ـ أُوافقك أن لا شيء يحدث في الصحراء عبثاً. الريح أيضاً لا تهبُّ بهذه القساوة بدون سبب، ولكني أتحدث عن النتائج لا عن الأسباب...

قاطعه الزائر بلغة كأنها عدوان:

ـ والأجدر أن تتحدث عن السبب قبل أن تتحدث عن النتيجة. الحكيم مَنْ سأل عن الأسباب والغشيم من أخذ بالنتيجة. فإذا علمنا أن الريح يحرث أرضكم ويغيّر مجرى الوديان ويقيم الروابي منذ سنوات فماذا يعني هذا الغزو الملحاح في حكم شيخنا الحكيم؟

ـ أستغفر الله أن أدّعي الحكمة، ولكن هذا لا يعني أني لم أُفكّر طويلاً في الإشارة. اجتهدت في التفسير وحاولت التدبير. استشرت العرّافة فوضعت شرطاً لا يبيحه إلاَّ شرع المجوس.

سكت مرة أُخرى. التفت نحو النار وهي تتغذّى بالحطب وترفع لساناً شرهاً. التهمت القبس الوليد ولفظت الشرر. أكمل الزعيم وهو ينكس عمامته:

ـ طلبت رأس إنسان!

ـ قراءة الرموز أقدم امتياز تخصص فيه أهل الصحراء، وإذا غفل حكماء القبائل وتخلّوا عن هذه العادة فلا تستبعد أن تجد نجوعاً كاملة تحت كثبان الرملة.

ـ صدقت.

ـ لو لم يقرأ أجدادكم «آنهي» في الألواح الحجرية وفوق صخور الجبال لفقدوا دليل الحياة وانقطعوا من الصحراء. فهل كان العرَّافون وحدهم مَنْ تولَّى هذا الدور؟ إذا ضللت الطريق فهل تنتظر أن يأتي عرّاف ويقرأ لك رموز «تيفيناغ» في الحجر كي تهتدي إلى البئر وتفوز بالحياة؟

ـ اعترف أن انتظار العرَّاف في هذه الحال حماقة.

ـ فإذا انحرفت العرَّافة فَمَنْ غير العقلاء يتولّى الأمر برغم أن العرَّافة لم تخطىء في المبدأ؟

ـ لم تخطىء!

ـ لم تخطىء رغم أنها أخبرتك بنصف الحقيقة، وأنت لم تخطىء أيضاً عندما اتهمتها باعتناق دين المجوس.

ـ إذا لم تخطىء هي ولم أُخطىء أنا، أَلَا يعني هذا أن كلانا على حق؟

ضحك الغريب حتى استلقى إلى الوراء. اعتدل في جلسته ومال برأسه نحو الزعيم فرأى الشيخ الآثار العميقة التي خلَّفها الجدري في وجنتيه المحروقتين بصهد الجنوب. قال الضيف بصوت مرح:

ـ هذا قد يعني أيضاً أن كلاكما على خطأ. ولكن دعنا نتفق أولاً: مَنْ هو المجوسي في رأي شيخنا الجليل؟

هدأ جشع النار. وضع الزعيم حفنة من أوراق الشاي في الوعاء وملأه بالماء من إناء خشبي تآكل بسبب الاستعمال. وضع الوعاء فوق كوم من الجمر فصله بالمهماز عن أتون النار وقال:

ـ إذا أغفلت قراءة الإشارة في الريح فلا أظن أن ضيفنا الفاضل يمكن أن يرى في هذا سبباً كافياً كي يضمني إلى القوم الغافلين. وإذا حجب الله عنّي جلال الحكمة في صحراء الحياة فقد وهبني واحة من الفيء في التجريب. ولم أمل من أن أُردد دائماً أن المجوسي ليس مَنْ سجد للحجر لأن الله موجود أينما ولّيتم وجوهكم بما في ذلك الحجر أيضاً، ولكن المجوسي الحقيقي هو مَنْ باع الله مقابل المال واستبدله في قلبه بحب الذهب..

هتف الضيف مقاطعاً:

ـ أحسنت. أحسنت.

ـ لم أدّع يوماً العلم بأمور الدين ولكن مصير شيخ الطريقة يعطيك الدليل. حكم عليَّ بالمنفى كي يطيب له حكم السهل فجاءه صندوق التِّبر عطية من المجهول كي يقضي عليه.

ـ يُقال إن عرَّافتكم هي التي بعثت له بالصندوق.

ـ هذا ما يُقال.

ـ إذا كان هذا صحيحاً فإن ذلك يعني أنها تعرف سرّ الذهب. وإذا كانت تعرف السرّ فإن هذا يضاعف من جريمتها أمامك.

اختلس الشيخ نظرة دهشة نحو ضيفه. واصل الغريب:

ـ أردت أن أقول إنها مجوسية حقّاً لأنها لا تؤمن في قلبها بإلـه غير الذهب. أغدقت عليها الأميرة بمعدن الشياطين فآثرت السكوت وأخفت عنك حقيقة الريح، برغم أنها لم تخدعك أيضاً عندما طلبت رأس إنسان شرطاً لإعداد قيد للقبلي. ولكنها تعرف أنه شرط تعجيز.

جمد الزعيم أمام ضيفه. خبا جمر النار وغمز وميض خجول تحت شيب الرماد. من الشرق سكب قمر كبير ضوءاً باهتاً فوق قرون الجبال. فار الشاي الأخضر وغزا أنفيهما برائحة ممتعة يحكي الرعاة والمهاجرون عنها الأساطير.

قال الشيخ:

ـ أعترف أني سمعت شائعات تتهمها بالتورط في التعامل بالمعدن الحرام في أسواق واو، ولكن لا يليق برأس القبيلة أن يبني أحكاماً على القيل والقال.

شرع يخلط الشاي. توقف فجأة ولاحظ:

ـ أفهم من هذا.. يا ربي. أنت لم تكن باحثاً عن الكنوز في يوم من الأيام. أُراهن.

ضحك ايدكران. هتف بفرح:

ـ أنت لن تحتاج إلى رهان.

ـ هل أنت عرّاف؟

التقت نظراتهما في ضياء القمر فقرأ الشيخ جواب الغريب. تمتم آدّه.

ـ شككت في هذا منذ أول يوم. الله حسيبي.

ـ نزح أجدادي إلى الجنوب عندما فتح المرابطون تينبكتو. عشنا في الأدغال وأورثنا أجدادنا وصية صنع منها الزمان تعويذة. قالوا لنا إن الأرض الأولى قدر الإنسان، لأنها من ترابها عجنه الله ونفخ فيه من روحه كما تقولون في دينكم الجديد..

قاطعه الزعيم:

ـ هل أنت مجوسي؟

سكت ايدكران طويلاً. حدَّق في الجمر النائم تحت شيب الرماد، طأطأ رأسه وحرث الأرض بسبابته حافراً رموزاً بالتيفناغ. رفع رأسه وحدَّق في عيني الزعيم:

ـ أَلَمْ نتفق مَنْ هو المجوسي ومن هو المؤمن؟

لم يعترض الزعيم. لم يشأ أن يجرح ذلك الحنين المقدس الذي رآه في عيني جليسه وعرفه بنفسه سنوات المنفى في الحمادة الحمراء.

عاد ايدكران إلى العجنة الأولى التي اتفق الناس وأطلقوا عليها اسم «الوطن»:

ـ قالوا لي إنك عشت هذا المصير بضع سنوات ولكنك لم ترثه عن الأجداد. إن الحنين أقسى عندما تعلم منذ الطفولة أنك فرع مقطوع من أصل بعيد، مجهول، كنت يوماً ما جزءاً منه. تكبر ويكبر معك الحنين حتى يتحوّل إلى صلاة وعبادة. كنت أتصوّر تينبكتو التي رأيتها في أساطير جدتي وأبكي.

أبكي وأحسّ أني ضائع. عشبة صحراوية بخلت عليها السماء بالمطر فذبلت وماتت وطار ببقاياها الريح. وهذا هو السبب في أن الغرباء يعيشون ويموتون أطفالاً. لأن الله لا يحسب لهم عمراً ضيعوه في الغربة. وما هي واو التي ننفق عمرنا بحثاً عنها إنْ لم تكن ذلك الوطن الأول، المجهول؟

قدّم له الزعيم كأس الدور الأول. وضع ايدكران كأسه فوق الرمل، عند طرف الكليم. استمرّ:

ـ واصل الذهب هروبه من مدينة الذهب طوال تلك السنوات. وتتابع الحكماء على حكم السلطنة إلى أن جاء أورغ بقلب المجوسي الذي لا يحلو في عينيه إلّا بريق التّبر. قايض تينبكتو مقابل الذهب واستطعت أن أدخل الواحة الموعودة برفقة زعيم بامبارا.

مال بجسمه نحو الشيخ وقال باستفزاز:

ـ لا يخفى عليك أن التِّبر كان وسيلتنا كما أصبح اليوم الوسيلة التي قهر بها أناي أرضكم وجعلك تسلِّم في البئر بلا مقاومة.

تجاهل الشيخ الاستفزاز. انحنى على الرمل ورسم بإصبعه بعض الخطوط.

سأل ايدكران فجأة:

ـ هل زرت تينبكتو؟

ـ ثلاث مرات.

ـ هل زرت امناي؟

ـ في عهد السلاطين كان ما زال ملفوفاً في قماط الحجارة.

ـ نعم. كان محبوساً في المعتقل. وعندما اضطر السلطان أورغ أن يطلب من زعيم الأدغال مدّه بمزيد من التِّبر لإنعاش أسواق تينبكتو انتهز الزعيم الفرصة وطالب بالإفراج عن الإلّه. ولكن الإلّه القديم لم يكتف بالحرية وإنما طالبنا بالقربان. أشاح بوجهه إلى الهاوية غاضباً وسلَّط علينا أقسى أعداء الصحراء: القبلي!

من واو ارتفعت زغرودة بعيدة. تلاها إيقاع على الطبل. مرَّ بجوار خباء الزعيم عدد من الرجال يتجهون إلى واو. أنصت الضيف لتمتمتهم لحظات ثم عاد إلى تينبكتو:

- تشاور العقلاء وأشار علينا الزعيم بالقرعة فوقع اختيار الآلهة على بنت السلطان.

توقف الشيخ عن تخطيط الأرض. هتف:

- تينيري؟!

- نعم. الأميرة تينيري.

سكت مرة أُخرى. التفت إلى القرون الجبلية وراقب القمر. أضاف بنبرة خائبة:

- ولكن أورغ خدعنا بترتيب من الداهية أناي وهرَّب الفتاة إلى آزجر.

انتظم إيقاع الطبول في واو، وتناهت أصوات النساء وهي تغني «هلى - هلى».

عاد ايدكران إلى قصته:

- اقتص منّا أمناي وتنفست الصحراء بالقبلي. ولم يكن صعباً على عقلائنا أن يقرأوا في الريح الإشارة التي تتوعَّد بطمر تينبكتو وتهدد مدينة الذهب والتجارة بالزوال. تشاور مجلس العقلاء واحتكمنا إلى القرعة من جديد، ولكن اختيار الآلهة وقع على العبد الهزيل الذي يجلس أمامك كي يتولّى الأمر.

رشف من كأسه البارد الذي انقشعت عنه الرغوة. لاحظ الزعيم تحت ضياء القمر أن شفته العلوية محفورة ببقع الجدري. تذوَّق الشاي وصنع صوتاً مزعجاً بلسانه قبل أن يواصل:

- حَدَثَ معي ما حَدَثَ مع عاشق العروس الحجرية في وادي كوكو(*). هل تعرف القصة؟

(*) وادي كوكو: الاسم القديم لنهر النيجر.

هزَّ الشيخ عمامته بالنفي فتطوَّع الجليس بالسرد:

- لم يرد في «آنهي» ولا في أساطير الأجيال أن الصحراء السفلى تلقَّت نكبة، في تاريخها، كتلك التي تعرَّضت لها ذلك العام بجفاف الوادي الأزلي. ومما ضاعف من وقع القصاص أن الناس البلهاء الذين لم يعرفوا الجفاف، ولم يذوقوا طعم الحياة في الصحاري العليا المشطورة بأنهار يابسة جفَّت منذ خمسة آلاف أو خمسين ألف عام، هؤلاء الكسالى الذين دللهم الماء الوفير الذي سكبته الآلهة تحت أقدامهم بسخاء فربّى فيهم النهر الأبدي الاسترخاء، هؤلاء، يا زعيمنا الجليل، لم يتخيلوا، بعقولهم البليدة، أن الماء يمكن أن ينضب، والنهر يستطيع أن يتوقف عن العدو، أو يغوص في الأرض ليروي الحقول السفلية الخفية، بدل هذا السباق الأبدي الذي يبدأ من المجهول لينتهي إلى المجهول، عابراً حقول قوم كسالى أفسدتهم النعمة وبلّد عقولهم الترف. قرر النهر أن يغيّر المسيرة ويعود على عقبيه. يعود إلى المجهول الأول في واو الخفية. غاب كي يعلم الناس أن المسيرة ليست خالدة وأن الآثار العميقة التي تشق الصحراء العظمى كلها هي آثار أنهار أيضاً ظنَّ القدماء أنها خالدة، ولكنها توقفت وزالت. هلكت قطعان المواشي ومات الزرع والنبات. مات الناس بالعطش وحصدت المجاعة أولئك الثعالب الذين تحايلوا على القدر وركنوا في ظلال الكهوف وشربوا مياه البحيرات المختفية بين الحجارة والصخور عبر المجرى الطويل. وكلما نضبت بحيرة بحثوا عن أُخرى، وإذا لم يجدوا أُخرى، حفروا الأرض وبللوا حلوقهم بالطين، وإذا صادفتهم أرض صخرية انكفأوا على أنفسهم وشربوا البول. أدركت الآلهة أن البلادة التي شلَّت عقولهم عن الاهتداء إلى الخالق لم تمنعهم من التحايل على قدره فسلّط عليهم الجوع. قرأ الحكماء الرمز وفهم العقلاء الإشارة. اعتزلوا في المرتفعات وتفرَّغوا للعبادة. ركعوا، صلوا، سهروا الليل، واكتشفوا أن للنجوم لغة وللريح رسالة وللبدر روحاً وللأرض نفساً، وكلها تسبِّح بحمد الخالق الذي أنكروه وضلوا الطريق إليه بحياة الترف والاسترخاء. استمرَّ هؤلاء الأخيار

يعيشـون مع عـلامات الـطبيعة ويتعـاملون مع الجـان حتى جـاء إلى العـرّاف الوحي الذي يستطيع أن يلين قلب الخالق الأعظم ويـطهّر القـوم المترفـين من خطيئة الشبـع. صعد الجبـل واعتزل وصـام وتعبّد وانهمـك في نحت قربـانه الحجري. صنع من الحجر الأخرس مخلوقاً لم تشهد الصحـراء لجمالـه نظيرا. صوّر حسناء لم ترها الأرض ولا السماء. ويُروى في آير حتى اليوم عن حسنها الأسـاطير فيقـال للمقـارنـة: «انـظر مـا أبهـاهـا! إنها مثـل عـروس العـرّاف الحجرية». وعندما فرغ العرّاف من عمله انتظر الإشارة من خلصائه: النجوم والأقـمار، الشموس والـرياح. حـانت اللحـظة فنـزل بـالحسنـاء إلى المجـرى المتشقق، الظامىء، المزحـوم بجثث الكفار والـدواب. حفر الأرض العـطشى وزرع القربان وجلس على الضفة ينتـظر الاخصاب. لم تتـأخر الأعجـوبة. لم يتجمع الغيم ولم تسقط قطرة مطر. جرى القـاع بالسيـل المجنون حتى فـاض وغمر الضفاف. جاء راكضاً من المجهول كما اعتـاد أن يجيء في الماضي. إذْ لم يسأل أحد، من البلهاء الذين ختم الشبع على عقـولهم بالبـلادة، نفسه، ولـو مـرة واحدة، من أين يـأتي النهـر وإلى أين يـذهـب. اعتـادوا أن يعبثـوا بمـائـه ويتمتعـوا بخيراتـه فما حـاجتهم إلى أصله؟ يقول بعض الـرُحَّل الـذين شحذ المنفى عقـولهم إن السيل الأزلي يـأتي من واو ويعبر الصحـراء ليعود إلى النهـر الأصلي في الواحـة الخفية. ولكن لا أحـد من المستقرّين عـلى ضفاف الـوادي صدّقهم ظنّاً منهم أن المهاجرين يتعمّدون زرع البلبلة بين السكان كي يصبغوا وجـه النهر بقـداسة الأصـل الإلهي. وأنت تعلم، يا شيخنـا، أن لا أحـد في قارتنا العارية يستطيع أن يبجّل هذا السائل المدهش مثل الرَحّال الذي شوّهته نـار الصحاري العليـا وحرقـه القبـلي الجنـوبي. وأنت لن تـدهش إذا أخـبرتـك أن أصـل العرّاف يعـود إلى هذه الفئـة الشقيـة. وبـدل أن يخـرَّ النحـات ويحمـد السماوات على قبول القربان بكى وناح ومزّق عمامته حزناً على الحجـر الفقيد. رآه كل مَنْ بقي على قيد الحياة وهو يتعرّى كالصبيان وينزل إلى الفجّ النهـري العميق باحثاً عن حسنائه الضائعة. لقد اختطفها لسان السيل الشره منذ أول

الغزو وفرّ بها إلى واو المجهولة، البعيدة، حيث تعوّد الماء أن يبدأ رحلته وحيث يُروى أنه ينهي رحلته. غاص العاشق في الأوحال واختنق بالمياه المخلوطة بالطين والقش وروث البهائم وحتى فضلات الرعاة، واستطاع أن يخرج من السيل مستعيناً بالأشجار المتناثرة في قاع الوادي وحول ضفتيه. ورآه الرواة وهو يتمدد على الحجارة الشرسة ويتقيأ العفن. نجا بأعجوبة. ولم يعرف أحد كيف غفرت له الآلهة هذا التطاول وهي التي لم تتعوَّد أن ترحم مَنْ استجاب لنَذْرٍ وتراجع وطالب باسترداد القربان تحت تأثير الوسواس الخنَّاس كما تُسمونه في كتاب الله. ولكن العرَّاف البائس لم ييأس. وقيل إنه أمضى شهوراً وهو يتابع المجرى ويرصد المنعطفات آملاً في أن تعترض عروسه شجيرة أو صخرة فتنجيها من يد النهر. مضت شهور أخرى، عبرت خلالها مياه تكفي لإرواء الصحراء الكبرى كلها، وهو يتنقل بين الوادي وكهوف المرتفعات حتى تحرر من الأوهام ويئس من الفوز بالمعشوقة الحجرية.

اقترب ايدكران من الزعيم وسأله وهو يحدِّق في عينيه:

ـ هل تعلم ماذا فعل العرَّاف بعد أن يئس؟

لم ينتظر جواباً. ضاقت عيناه حتى ظنَّ الشيخ أنه أغمضهما. ولكن حدقته اليمنى لمعت تحت ضياء القمر فأكمل:

ـ اختار أعلى جبل يطلّ على وادي كوكو وألقى بنفسه في النهر. اختفى منذ ذلك اليوم.

انشغل آدّه بخلط الدور الثاني من الشاي. في ناحية الشرق استمر قرع الطبول وعلت صيحات المجذوبين. ميَّز الشيخ أيضاً من بين الأصوات أنين «امزاد».

انطلق الغريب في ضحك خفي، مفاجىء، ثم عاد فسكت لحظات قبل أن يضيف:

ـ أرجو ألَّا يسيء بي الزعيم الجليل الظن فيعتقد أني أنوي أن أصعد قرون ايدينان كي أرتكب حماقة.

قال الزعيم ببرود دون أن يتوقّف عن خلط الشاي:

ـ أعرف أن العرَّافين لا يفعلون ذلك. العرَّاف الحقيقي لن يفعل ذلك أبداً.

ـ وما يدريك أن العرَّاف العاشق كان مزيفاً؟

ـ من لهجتك. من نبرتك. لن تدَّعي الانتماء إلى قبائل المهاجرين إذا لم تتعلم أن تقرأ الأصوات.

ـ ها ـ ها ـ ها.. إني أسمع أقدم صوت في الصحراء. إني أسمع «آنهي» الذي ورثناه محفوراً على الصخور والحجارة. أعترف أنه كان عرَّافاً مزيفاً، بل لم يكن عرَّافاً تماماً. إنه نحات يحفر على الصخور. والنحات الصحراوي عاشق بالطبيعة، لأنه لن يستطيع أن يكتب على الحجر لو لم يكن عاشقاً منذ الميلاد، بل قبل أن يولد. والممتع أنه لا يعشق النساء الأرضيات لأنه لا يراهن ولا يريد أن يراهن، ولكن يعشق الحوريات الفردوسيات اللاتي يعتقد أنهن لا يسكنّ إلاّ في واو. وقد صبَّ في العروس الحجرية كل حنينه وكل لهفته، وكل شوقه، إلى الحوريات الخرافيات، ونسي خلال عمله أن الحسناء هي قربان سماوي لإخصاب العراء وإعادة السيل إلى الوادي الميت.

ـ أفهم أن ضيفي أيضاً نسي مهمته التي هاجر من أجلها في آير ووقع في عشق الأميرة؟

ضحك الغريب مرة أُخرى. أنزل طرف لثامه العلوي حتى غطّى عينيه ورفع الطرف السفلي فوق أنفه فأطبق اللثام على وجهه تماماً. تمتم:

ـ ها ـ ها.. ما الذي يحملك على هذا الظن؟

ـ أنت الذي قلت. أنت الذي قال: «حدث معي ما حدث مع عاشق العروس الحجرية..».

ـ ها ـ ها. أعترف أن ذاكرة شيخنا قوية. ولكن ألا يعني هذا أني مزيف أيضاً إذْ أخبرتك أني عرَّاف؟

ـ أنا لم أقلْ إن العرَّافين الحقيقيين لا يعشقون. أنا قلت إنهم لا يرتكبون الحماقات.

ـ ألا ترى أن المرء إذا عشق فلا بدَّ أن يرتكب حماقة، أي مخلوق بما في ذلك العرَّاف؟

ـ أي مخلوق نعم. ولكن العرَّاف لا.

ـ لا يمكنني إلاَّ أن أنحني عرفاناً بحسن ظنك بعشيرتنا. هذا يعني أن عليَّ ألاَّ أتورط في العشق إذا أردت أن أتجنَّب الحماقات وأكسب ثقة زعيمنا.

ابتسم الشيخ:

ـ أن تكسب ثقتي أمر لا يستوجب تجنب العشق.

ـ وإذا أخبرتك بقناعة تقول إن أي عشق لا بدّ أن ينتهي إلى ارتكاب الحماقة فماذا تقول؟

أعاد الزعيم وعاء الشاي إلى الجمر الخابيء وقال بصوت مرتجف:

ـ أعترف أنها قناعة قاسية.

ـ قاسية نعم. ولكنها حقيقية. وأظن أني لن أُخطىء إذا قلت إن القناعة مستوحاة من حياة الصحراويين بما في ذلك تجربة الزعيم آدّه نفسه.

رمقه الشيخ بدهشة فوجد أن العرَّاف ما زال يخفي عينيه. انتبه إلى الحيلة. فعل ايدكران ذلك عمداً كي يراقب تأثير كلامه على جليسه في حين حصَّن عينيه بالزمالة الشفافة منعاً للحرج.

الزعيم لم يعلق.

عاد الضيف إلى الأميرة.

ـ أعترف أني هاجرت وراءها ليس إرضاء لـ «أمناي» وحده..

سكت الجليس وانتظر الزعيم الاعتراف ولكن العرَّاف تهرَّب:

- . . ولكن حرصاً على الأرض، انقاذاً لتينبكتو من غدر الغبار. استجابة للنداء الخفي القديم الذي ورثته عن الأسلاف سنوات المنفى في الأدغال. لا يعرف هذا السرّ إلاّ الغرباء. أنت عشت المنفى، وهذا يجعلني لا أجد حرجاً في أن أحدثك عن النداء الغامض. عندما تعيش بعيداً على أمل واحد هو أن تلتقي بهذا المعشوق الذي يسمونه الوطن فإنك تحس بأنك مدين له بنذر مجهول، سرّي، جليل. هل هو نداء العجنة الأولى؟ هل هو الرغبة المقدسة في تسديد ثمن حفنة الطين التي جعلتها أنفاس الخالق لا تُقدَّر بثمن؟ ما معنى حياة المخلوق إذا لم يسدد ديناً جعله الخالق في يد أرض يدوس عليها المخلوق كل ساعة وكل يوم؟ هذا النداء هو ما يحوّل الجبناء إلى أبطال يرمون بأنفسهم إلى التهلكة، ويدفعهم إلى مواجهة الأعداء بصدور عارية كي يدفعوا الأتاوة للأرض ويرووا حفنة التراب بالدم.

دسَّ الزائر كلتا يديه في التراب بحركة صبيانية، ثم نزعهما ببطء. راقبه الشيخ وهو يدسّهما مرة أخرى، وتبينَّ آثار قروح الجدري في ساعديه. قال الضيف بصوت هادىء، غائب، كأن الأرض امتصت توتره:

- لا شك أنك سمعت عن خلاف أناي مع أخيه. فهل تدري لماذا تولَّى هذا الثعلب تهريب الفتاة برغم خلافه القديم مع أخيه؟ أنتم لا تعرفون الداهية. كما كرَّست حياتك للصحراء سخَّر هذا الثعلب حياته للتجارة. هذه ظاهرة يشترك فيها كل التجار المحترفين. ففي هذه الحرفة الشيطانية سرّ يستدرج ويغوي ويجعل من الكسب غاية. لعبة تبلع الإنسان وتسرق منه نفسه فينسى أن عليه أن يزاول الحياة بدل مضاربات الربح والخسارة في أسواق غدامس أو تامنغست أو تينبكتو. وأناي من هذه الفئة التي نسيت نفسها وسرقتها اللعبة. ضرب صدره لأخيه السلطان وأخذ على عاتقه أمر إنقاذ الفتاة من قدرها ليس من باب البطولة أو الشهامة أو إنجاز العمل

الفاضل كما ظنَّ أورغ المخدوع، ولكن تحقيقاً لصفقة تجارية.

أخفى يده اليمنى في التراب حتى المعصم. أهال عليها مزيداً من الرمال بيده الأخرى. رأى فيه الشيخ في هذه اللحظة طفلاً شقياً. أضاف بنفس اللهجة:

ـ لم يتسلل من تينبكتو إلاّ بعد أن ضمن ممارسة التجارة وابتزَّ من أورغ إمدادات من الذهب كي يبني بها المجد في أسواق الصحاري الوسطى الكاسدة. ولا أعرف كيف خدعكم بهذه الحيلة الطفولية. أقدم حيلة في الصحراء. لجأ إليها كل الغزاة في الماضي كي يثبِّتوا أقدامهم في القارة السخية. وهي ليست أسوأ من الطريقة التي لجأ إليها شيخ الطريقة القادرية قبله. كل مغامر يجد في نفسه الشجاعة كي يتقدم من زعيم القبيلة المسكين ويطلب الإذن بالجوار واقتسام ماء البئر. والزعيم الذي اشتهر في كل الصحراء أنه أبرع من أمسك بالعصا من الوسط لن يجد مانعاً، خاصة وأن الرقعة المطلوبة في حجم ثور أو جاموس أو ودّان أو أي حيوان بري آخر، دون أن يدري الشيخ المسكين أن الرقعة يمكن أن تُقص بأنامل حسناء بارعة في خيوط أرق من الحرير لتتحول إلى أفعوان خرافي يبلع الصحراء كلها. ومن أين للزعيم أن يعلم السرّ إذا كان منشغلاً طوال حياته كي لا يجد نفسه في أعلى عليين أو أسفل سافلين، وكأن الوسط هو النعيم الموعود؟

اعترض الزعيم:

ـ تتكلم وكأن كل شيء قد انتهى.

ضحك الغريب ضحكة مجلجلة، طويلة، جعلته يستلقي برأسه إلى الوراء. في عينيه لمعت الدموع تحت ضياء القمر. عادت له الحيوية فقال بانفعال:

ـ وهل ما زلت تشك يا شيخنا الجليل؟ ألم تر كيف رفع الحظر عن السر وأعلن بوقاحة أنه يتعامل بالمعدن المحرم في سهلكم؟ ألم تر أنه استولى على

البئر وعلى الرجال القادرين على الحرب، وسحب النساء بالنحاس الخبيث وتركك وحيداً مع بعض العَجَزَة الوجهاء؟ ألا ترى، بامناي، أنك وحيد؟

أعقب تساؤلاته بقهقهة جديدة، جسورة. اعتدل الزعيم في جلسته وسوّى لثامه حول وجهه وتولّى المرافعة:

- فليسمحْ لي العرّاف المهيب أن أدعوه إلى التمهل ويأذن لي أن أؤكِّد أني لم أهتد بالاعتدال عندما وافقت على اقتسام الماء مع المهاجرين الوافدين، ولكن، وهذا اعتراف مني، خوفي من ناموس الصحراء هو السبب. الناموس القديم الذي ورد في آنهي وحذّر الصحراويين من البخل بالماء حتى على العدو. هل نسيتم التحذير في آير؟ وإذا كان الطرف المعادي لم يرتدع بعد أن سقيته ماء الحياة من يديك وجاهر بالعداء والانتقام فإن القِصَاص والفصل في النزاع لن يقع على عاتق الطرف السخي الذي تصدَّق بنصيبه من سائل السماء وإنما يقع على الصحراء نفسها. الجزاء في هذه الحال متروك لها. وأنت لا تجهل حيل هذه القارة في معاقبة المعاندين والمفسدين عندما تحين اللحظة وهي التي تملك أشرس سلاح: الظمأ! وأخشى أن العرّاف النبيل يحسن بي الظن كثيراً إذ يصفني بالمهارة في الإمساك بالعصا من الوسط. لا أنكر أن هذا شرف. ولكنه شرف لن يدّعيه مَنْ أمضى في الصحراء حياة مغامرة، متطرفة مثلي. لا أريد أن أصدع رأسك بتفاصيل هذه التجربة، وإنْ رأيت أن العدل يقضي، بل ويجبرني، أن أخبرك بسرّ: الزعامة هي التي فرضت على سلوكي هذا المذهب برغم أني لا أستطيع أن أصف إيواء المهاجر أو اقتسام قطرة الماء مع تائه اعتدالاً بأي حال. هذا العمل، بلغة الصحراء، طاعة لأبسط ناموس. سوف تعترض وتحاجّني بالنتيجة، وسأعترض وأخبرك أن النتيجة لا تدخل في حساب فعل الخير الذي لا يضع في اعتباره الربح والخسارة.

رفع رأسه نحو ضيفه وبحث عن عينيه. ابتسم بحزن وهو يضيف:

- اغفر لي قساوتي ولكني لن أتراجع عن نيتي في الكشف لك عن رأيي.

إن ما يستفزك من اللعبة، أقصد لعبة أناي، هو أنك وقعت أيضاً في عشق الأسيرة كما وقع في عشقها ثلاثة أرباع الفرسان في السهل بما في ذلك الدرويش. ولَّما كان العاشق دائماً مخلوقاً بائساً وعاجزاً فلا بدَّ أن يبحث عن سبب لمأساته في أقرب نجع، في أقرب خباء في النجع، ومن حسن حظي أن يكون الخباء المجاور لكهف العرَّاف الزائر هو الشيخ آدّه الذي فاز باستضافة المهاجر النبيل. ولا أظن أن للأساطير الممتعة التي سمعتها منكم منذ قليل أي علاقة بالسهل.

أدار الضيف وجهه نحو الزعيم. في تلك اللحظة رأى الشيخ في عينيه الشقاء.

امتلك السهلَ السكونُ.

في واو البعيدة تناهى صوت غنائي متقطع، حزين، كأنه النواح.

(٤)

تواصلت الوليمة عدة أسابيع.

استمرَّ نحر الذبائح وإعداد الأطعمة وارتفعت في سماء السهل أعمدة الدخان وروائح البهارات والتوابل. تحولت الواحة الجديدة إلى قبلة للرعاة والتجار والعابرين. داخل الأسوار، في الأمسيات، قُرِعت طبول السمر وزغردت النساء وغنى المهاجرون أقدم الأغاني عن واو الضائعة، وجاهروا بحنينهم القديم، الحزين، إلى المجهول الموعود الذي أضاعوه منذ خرج الجد مطروداً من الواحة المفقودة. وكالمعتاد في أيام الفرح والعرس والبهجة لا بدَّ أن ينسج الفضوليون الموضوع الشيق الذي سيكون زاداً ممتعاً، أسطورة يتسلى بها النجع في أيام العزلة، والوحشة، والسكون، والخيبة، التي تعوّد الناس أن يعيشوها بعد كل فرح. ولم يلحق فريق الفضوليين ومحترفي الرواية شك في أن الزاد المنتظر من عرس واو سيكون أكبر من كل القصص التي خرجوا بها من

كل أعراس الزواج وميعاد الأفراح التي شهدها السهل في تاريخه، لأنهم تعوَّدوا أن يرهنوا الحصيلة بحجم الفرح.

لم يخب ظنّهم هذه المرة أيضاً. فإلى جانب عشرات النوادر المتعلقة بالجديد في العشق والحب والغزل وارتكاب العار والهجاء والمديح وعدد المرات التي ضبطت فيها الصبايا الفرسان النبلاء متلبسين بالكشف عن عورة الرأس، إلى جانب القصائد الجديدة التي نظمها شعراء مجهولون رفضوا الكشف عن أسمائهم، فاز السهل بأسطورة المفتاح!

الدرويش أول مَنْ روّج الرواية. جاء إلى ميعاد المغنيات قبيل الرقص وأخبر الشاعرة أن السلطان علّق المفتاح السحري في سلسلة ذهبية في رقبته. وأخبر أيضاً أن المفتاح الذهبي خاص بخزائن واو. وقد تلقاه أناي هدية من أورغ بعد أن يئس من إنقاذ تينبكتو الأم من سلطة المجوس في الواحة المنكوبة فأرسله لأخيه في آزجر ليبارك به مقامه الجديد ويطيّر النحس عن تينبكتو الجديدة. وكي يؤكد موسى هذا الدور التطيري للمفتاح أشار ضاحكاً إلى قلادة التمائم، المدسوسة في جلود الغزلان، التي أحاط بها السلطان السلسلة الذهبية. وروى الدرويش أيضاً، نقلاً عن خدم الحاشية، أن الكنوز مخبوءة في صناديق نحاسية في دهليز تحت الأرض. تلقّف تجار القوافل الرواية وهاجروا بها إلى أطراف القارة الأربع. أهل السهل رددوا الأسطورة لقتل الوحشة وإشباع الفضول ولكن التجار، خاصة التجار المطعونين بالإفلاس ومؤامرات الخصوم مثل الحاج البكاي، فإن المفتاح أثاره إلى حد جعل الأرق يرافقه لثلاث ليالٍ كاملة. ولم يكتف بذلك بل إنه تجاسر وطلب مقابلة عاجلة بالسلطان. ولكن السلطان، بالطبع، اعتذر عن المقابلة متعللاً بالأشغال التي اقتضاها ظرف الوليمة وتدشين الواحة مما أشعل ناراً جديدة في خيال البكاي وناراً أخرى في قلبه، وهو الذي ظلّ طوال السنوات الأخيرة يحاول أن يوفّق في عقد الصفقات التجارية ليستطيع أن يقف على قدميه من جديد بعد الضربة الموجعة التي وجهها له الخصوم. وطبيعي أن يثير هذا الاكتشاف تجاراً

أمثال البكاي. لقد كشف أمامه عورته ووضع بين يديه فضيحته، بل، وهذا أبشع ما في الموقف، بكى بين يديه واستعطفه بذلٍّ كي يتدخل ويجد له المخرج، ولكن أناي يومها تعلل ببناء المدينة وبعدم استطاعته أن يؤمن كمية التِّبر اللازمة لإنقاذ شرف البكاي من أعدائه في غدامس، واكتفى بأنْ عزَّاه وأوصاه بالصبر علَّ الفرج يأتي مع الامدادات التي ينتظرها من تينبكتو الأُم. وهو كصديق يجد للسلطان العذر في تدبير احتياط التِّبر كي يأمن تقلبات الزمان ويعدَّ العدة لليوم الأسود، ولكنه، كتاجر منكوب، ما زال يطمع في أن يلين قلب السلطان ويتطوَّع لمد يد المساعدة.

الزعيم لم يشارك في الوليمة. مكث في البيت وتسكَّع في الوديان الغربية. ولكن أخبار المفتاح وصلته أيضاً. مرض الشيخ باخي بالحمّى فذهب لزيارته. هناك التقى بالوجهاء وبعض المعمِّرين، من بينهم العجوز بكّة أيضاً. تحدّثوا طويلاً عن الجدب والقبلي ومرض الحمّى ولكنهم تجنبوا الحديث عن واو حتى لا يقودهم الحديث إلى قصة المفتاح المصنوع من المعدن الحرام.

(٥)

بعد يومين من اختفاء ايدكران استقبل الزعيم رجال السلطان.

راقبهم وهم ينتشرون في سفح ايدينان، ويتصايحون أمام فوهة الكهف الذي اتخذه الزائر الغريب مأوى طوال إقامته في السهل. بحثوا عن الأثر عند قدم الجبل، تفقدوا العراء الممتد شرق ـ شمال الجبل ولكن غزوة الريح الجديدة قطعت الأثر فآثروا أن يبحثوا عنه في بيت الشيخ. انقسموا إلى فريقين. غاب الفريق المكوّن من ثلاثة رجال خلف الجبل لتفقد السفح من الناحيتين الشمالية والغربية، والفريق الثاني نزل إلى بيت الزعيم. ثلاثة رجال أيضاً. حارس زنجي ورئيس الحرس يتقدمهما القاضي الشنقيطي بابا.

وقفوا أمام البيت مع الأصيل. توعَّدت الصحراء بالقبلي وتلثّم الأُفق بالعتمة.

تكلّم القاضي واقفاً:

ـ فليعذرنا الشيخ إذا أزعجناه باستفسارنا عن جاره المجوسي.

ـ كلكم جيراني. الصحراء أيضاً جارتي، ولكن لم أستقبل قبل اليوم مَنْ يستفسر عن مصيرها الشقي.

تبادل القاضي مع رئيس الحرس نظرة ذات معنى قبل أن يقول:

ـ حسب علمي أن جارتك الشقية لم تكشف لمخلوق عن سرّها حتى الآن، عكس جارك الآخر، المجوسي.

ـ سرّها..

قاطعه القاضي:

ـ يُجْدر بشيخنا المبجّل أن يتحمّل ويتذكّر أن هذه الصحراء الشقية آذاناً تسمع وعيوناً ترى...

أطلق ضحكة مكتومة.

ابتسم الزعيم وتمهّل قبل أن يعلّق بتسامح:

ـ هذا ما لم أشك فيه يوماً يا سي القاضي. وإنْ رأيت دائماً أن علينا أن نعكس الآية إذا أردنا أن نعطي حكمتك وزنها الصحيح فنقول إن للصم آذاناً تلتقط الهمس في سكون الصحراء وللعميان عيوناً ترى الأشباح التي يرسمها السراب في أفق الخلاء، فكيف بجواسيس السلطان الذين ينعمون بالسمع والبصر ولا تنقصهم الكفاءة ولا الخبرة..

ـ أرجو ألاّ يؤاخذنا الزعيم إذا رأى في زيارتنا هتكاً لخلوته. جئنا بنيّة أن نستفسر عن مغامر هو أقرب الناس إليك من حيث موقع بيتك من الكهف. وليسامحنا الزعيم إذا أسأنا التعبير باستعمالنا لكلمة «الجار».

ـ ليس في استعمال كلمة «الجار» ما يسيء. ما يسيء هو أن تبحثوا عن الغريب في بيتي بعد أن عاش في السهل سنوات.

ـ المعذرة. هل في السؤال ما يسيء؟

ـ وما يدريني. ربما تطاول في الجبال المجاورة بحثاً عن الكنوز، وربما.. هرب!

ـ هرب؟

ـ ولِمَ لا يهرب؟ إذا كان عرّافاً حقيقياً فلن يصعب عليه أن يعرف نوايا السلطان.

تبادل القاضي نظرة أخرى مع رفيقه قبل أن يهتف:

ـ ها أنت تعترف بأنه عرّاف. المعروف في السهل أنه باحث يائس عن كنوز مزعومة.

ـ وهل في أن أعرف أنه عرّاف مكيدة؟ لقد اعترف لي بهذا السرّ حقاً، ولكني لا أرى في اعترافه مكيدة موجهة ضد أحد. قابلت قضاة كثيرين ولكني لم أشهد أغرب من هذا الاستجواب.

أقبل الفريق الثاني. زنجيان ماردان يتقدمهما أحد الأتباع. كان أطول قامة من القاضي وأكثر نحافة أيضاً. يرتدي جلباباً أبيض بائداً وعمامة هزيلة سوداء. أمّا القاضي فيبدو، في ثوبه الناصع الفضفاض، الواسع الأكمام، أكثر بدانة. يلفُّ رأسه بزمالة مخططة، متوسطة الحجم. يده اليمنى مبتورة حتى المعصم. ويُقال إنه تلقى هذا القصاص على يدي قاطع طريق شهير حكم عليه بابا، عندما كان يمارس القضاء في بلاد شنقيط، ببتر اليد مستنيراً بشعار الشريعة الذي يقضي بقتل القاتل وبتر يد اللص وحرق لسان النمّام. ولكن اللص الشنقيطي العريق اعترض قافلة كان القاضي يرافقها وحكم عليه بنفس العقوبة. بتر يده اليمنى بالسيف وحشا المعصم بالزيت المغلي كي يوقف النزيف وقال له: «العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم». فاضطر القاضي أن يهجر البلاد ويلتحق قاضياً في تينبكتو. مكث هناك طوال العصر الذهبي للعاصمة، وعندما غدر بها الزمان وتخلّى عنها التبر هاجر، مثل غيره، وراء المعدن المسحور الذي يزرع الحياة في الصحراء ويبعث واو الخفية من المجهول.

انحنى رجل الأتباع نحو القاضي وهمس في أُذنه لحظات، ثم فتح قبضته عن بعرتين من روث الجمل. فركها بين يديه وقال بصوت مسموع:

ـ ما زالت طرية. خرجت من كرش الناقة أول أمس. وجدناها أمام فوهة النفق.

تفقَّد القاضي البعر المسحوق وعاد لاستجواب الشيخ:

ـ ما رأي الزعيم: هل يستطيع المهاجر البائس أن يقتحم بيت الجن ويدخل النفق؟

ـ لم يجسر مخلوق أن يفعل ذلك في الماضي، ولكن للمجوس وحكماء الأدغال ناموسهم الخاص.

ـ ضيفك لم يغادر السهل. الأثر الوحيد وجد أمام فم النفق. الدلائل تشير إلى أنه دخل الدهليز المظلم، فهل يعقل أنه دخل الجحيم بنفسه؟

ـ الله أعلم. الحكيم لا يدخل إلى الجحيم إلاَّ إذا كان هارباً من جحيم أسوأ.

هزَّ القاضي رأسه موافقاً. ردد وهو يحدق في الزعيم بعينيه الصغيرتين العسليتين:

ـ صدقت. الحكيم لا يدخل إلى الجحيم إلاَّ إذا كان هارباً من جحيم أسوأ. أُقسم أن هذه الحكمة سوف تفوز بإعجاب السلطان. أُقسم بأجدادي الأربعة أنها ستفوز...

رفع يده المبتورة للتحيّة قبل أن ينصرف ويغيب في موجة الغبار التي نفثتها الصحراء.

(٦)

انكسر كبرياء الشمس وسكبت في الأفق سحابة أرجوانية. زحف المساء. اجتاز العراء الذي يفصل الخباء عن ايدينان. صعد الرابية وراقب الخلاء

العنيد الممتد إلى الأبد. صبر طويلاً على الانقباض. فكَّر أن يبحث عن العزاء بين المعمِّرين الحكماء، ولكنه تراجع ليس هرباً من مواجهة بكَّة أو أحد أفراد الفريق المؤيد له، وإنما لأنه عرف سرّ الانقباض. عرف أن هذا الداء لا يزول بين الجماعة إذا لم تمتصه العزلة. إنه داء قاتل، وباء، إذا لم تقتله سلطة الخلاء. فخرج وحيداً، مستنجداً بالصحراء. خرج لأنه عرف أيضاً أن السبب ليس في ضربة التحدّي التي وجهها له السلطان، ليس في قراره برفع الحظر عن التعامل بالذهب، وليس في تهربه من لقائه عندما طلب المقابلة، وليس لغارته على مغارة ايدكران أيضاً. السبب في إحساس خفي قديم ولد، بعد المنفى الأول، وتحوّل مع الأيام إلى قناعة غامضة رفض طوال الوقت أن يعترف بها. وكما يحدث للمريض الذي يأبى الاعتراف بمرضه في البداية، فإن تجاهل الإحساس لم يقض على القلق، بل ضاعف المرض وتحوّل إلى هاجس غامض، مزمن. فهل هو الثقة البلهاء بالناس؟ هل كُتِبَ الشقاء على كل مَنْ وهب قلبه للناس وآمنهم على حق الأرض وحق السماء مفترضاً أن يبادلوه حسن النوايا؟ إذ كيف يستقيم الحكم بين الخلق إذا استبعد الزعيم التعامل بهذه العملة؟ أم أن السرّ يكمن في تلك المفارقة المجهولة التي تجعل من الشيخ مداساً يدوسه العابرون من الجنوب كما يركله الغزاة القادمون من الشمال، كما يحدث مع الفلاحين في الواحات، لمجرد أنه رأى أنْ يحكم بين الناس بالعدل ويجعل لله ظلاً على الأرض؟ ولكن «آنهي» يروِّج لسرّ آخر، ويرى السبب في مجاهل أبعد. يرى أن مَنْ أقام بأرض وآثر الاسترخاء والعبودية لن يستحق لقب «العابر» المقدس. لأن مَنْ وجد في نفسه الشجاعة ورفض تلقي الخبز هبة من يد الأرض يكون قد رفض ضمناً عطية السماء، فيستحق أن يفوز باللقب الجليل، ليس لأنه أصبح، بهذا المنفى الأبدي، المخلوق الوحيد الحرّ، بل لأن عبء المسؤولية، عبء الحرية، التي تطوع ووضعها أمانة في عنقه تجعل منه ذلك المكابر الذي لن يرى، في بحثه عن واو، سوى الأفق والسراب والملكوت. نعم. السرّ ولد من جوف الاستقرار. ولو لم يطب له المقام بالقبيلة في السهل، مشدوداً بحبل البئر، محاصراً بالجدب والجفاف

والقبلي طوال السنوات الماضية، لما تجاسر شيخ الطريقة أن يقطع رحلته إلى توات ويعود ليضع القيد في رقبته، ولولا الاستقرار والاسترخاء لما استطاع أناي أن يبني هذا المعتقل الفظيع أمام عينيه ويسميه «واوا» كي يغوي ضعاف النفوس والمتعطشين إلى النعيم الكاذب. ولولا الاستقرار لما استغفل السلطان البلهاء وأغراهم بالذهب كي يتبعوه للدخول في بوابة المعتقل كما قاد مهاجر الأساطير الناس إلى فوهة الهاوية واعداً إياهم بالوليمة.

السرّ في الاستقرار، وليس في الاعتدال وحكم العدل بين الناس. وهو لا يتفق مع العقلاء الذين لا يكفون عن ترديد الحكمة القاسية التي تقول إن الثقة في الناس دائماً مطعونة بالخيانة، ويرى أن المطعون بخنجر الخيانة هو مَنْ داهمه العابرون ساكناً، خانعاً، ذليلاً، مستقراً مثل أهل الواحات. فالويل لَمْن أُخِذَ على حين غرة ووجده العابرون على هذا الحال. تعويذة الصحراء، عقيدة الصحراء، هي الاستنفار. وإذا غفل عنها الصحراوي لحظة عرَّض حياته لخطر الزوال.

(٧)

لم يستغرب عندما استدعاه السلطان.

استقبله في القصر، في دار واسعة، تتوسطها الأعمدة، مفروشة بالسجاد العجمي الأحمر. فوق البسط تناثرت وسائد جلدية مزخرفة بالنقوش، محشوّة بالريش والوبر. على الجدران عُلِّقت الأدوات الحربية (سيوف وحراب وسهام) ومستلزمات الفارس المهاجر (السوط المفتول من جلد الجمل، والجراب المنقوش، وطبق النحاس، والحبال المضفورة من شعر الماعز التي تُستعمَل لتثبيت السرج فوق المهري)، أمّا السرج نفسه فاستقر عند قدم العمود الحجري المركزي في قلب الدار، مزيناً بالمفارش الجلدية وألبسة القماش والكتان.

جلسا متقابلين بجوار الجدار. جاءت الجارية بمبخرة نحاسية (وربما

ذهبيـة) دقيقة. نفثت فتحـاتها دخـان البخور وتـوَّجت رأسها مئـذنـة يعتليهـا هـلال. وضعت المبخرة بينهـما، على الفـراش، وغابت في الـرواق المؤدي إلى البهو. تابع الشيخ خيوط الدخان وهي تطارد الذباب وتسرح في الهواء لتصبَّ في نهر الضوء المتدفق من شمس الأصيل عبر النافذة المثلثة المحفورة في الجـدار الشرقي حيث جلس الشيخ متوكئاً على وسادة جلدية مستطيلة.

تكلم السلطان:

ـ ها أنت ترى بعينيك أن شيئاً في حيـاتي لم يتغيّر بـرغم أني أعرف مـدى صعوبة أن تقنع الناس (الذين يرون الدنيا بعيون الفضوليـين) بواقـع الحال. ولكن ثقتي بـأن زعيمنا ليس كبقيـة الناس تجعلني عـلى يقـين من أنـه سيراني وسيرى حياتي بعيداً عن أوهام العوام ومبالغات الدهماء. خاصـة وأني لم أفعل شيئـاً سوى أني استبـدلت خباء زعـماء القبائـل المصنوع من الجلد (كـما في آير وآهجـار، أو المنسوج من وبـر الجمال أو شعـر الماعـز كما في آزجـر) ببيت من الحجر. خباء من الحجر على عادة سلاطين عاصمتنا القديمة تينبكتو. فهـل في هذا ما يعيب؟

الزعيم لم يجب. استمر السلطان:

ـ لم يرد في بال الزعيم أن يؤاخذني على حياة الترف التي يرى العـوام أنها مصـاحبة لـلإقامـة في البنيان، ولكنـه استاء كثيـراً (أُراهن على ذلـك) لأني لم أتمكَّن من استقبـاله طـوال الزمـان المـاضي. وإذا كنت أعيـد لـلأذهـان هـذه الخـطيئة الآن، في هـذا اللقاء، فـإني أسوقهـا هنا للتـأكيد عـلى الخطيئـة لا للتكفـير عنهـا. ولكن على شيخنـا النبيل أن يمنحني فـرصـة الـدفـاع كـما يليق بـزعيم القبيلة، ويمهلني ريثما أعرض المبررات.

جاءت صبية خـلاسية أخـرى. تحمل طبقـاً نحاسيـاً أيضاً مليئـاً باللبن. خامر الشيخَ شكٌ في عِفّةَ الأواني. قال في نفسه إن هذا النحـاس مصنوع من تـبر تينبكتو الـذي سبكه شيـاطيـن الحـدادة. قال في نفسـه أيضا إن [illegible] يغفر له هذا الاعتداء.

واصل السلطان:

ـ لن أوجع رأسك بالحديث الطويل الذي يستلزمه بناء واحة في الخلاء. فأنت عاصرت هذا الإنجاز ويرجع لك الفضل الأول في صنع الحلم بموافقتك لنا في الاستقرار والجوار واستغلال البئر والسهل. ولولا شجاعتك لما تحقق أمل الصحراويين في بعث واو حقيقية في الصحراء الوسطى، لا واو المستحيل التي قطعت ظهورنا جميعاً بالبحث والانتظار حتى أصبحنا نكذِّب شهود العيان ونشك في وجودها من الأساس. ولكن دعنا نؤجل حديث البحث عن واو إلى حين، لأن النية سبقت لتقديم المبررات. حسناً. أعترف أن الانشغال بالبناء واستقبال التجار والقوافل ليس السبب الوحيد لعزلتي عن جمعكم. هناك سبب آخر، أهم، أقدم، لا يعرفه إلاَّ الآلهة، وظلالهم الأرضية المجسّدة في الزهاد المعتزلة في الكهوف، أو الهائمين في خلوات الخلاء. ولا أدري مَنْ مِن سلاطين تينبكتو اهتدى إلى السرّ، وعرف أن الخفاء هو الذي صنع عظمة الآلهة، فاعتزل، مثل الزهاد، ليخلق مسوح الجلال والهيبة لجناب السلطان. ولا أظن أنك ستدهش إذا قلت لك إن سبب غربة الأنبياء الذين تحدث القرآن عن عذابهم وتجريدهم من كرامتهم في أوطانهم يعود إلى اختلاطهم بالناس بعد مباشرة الدعوة إلى الصراط ففقدوا الكرامة الجليلة، الإلهية، التي نسجتها العزلة الطويلة على وجوههم سنوات التعبد في المغارات والخلوات قبل أن يفقدوا الكرامة الأرضية على أيدي المواطنين الرعاع. الشياطين في نظر الدهماء أقوى من حجاب العزلة الذي تنسجه الآلهة على وجوه الأنبياء والأولياء وعبدة الوحدة. فكيف تريدني أن أربي الطاعة في الرعية دون أن أحبس نفسي في الجدران وأبتعد عن طريقهم وأسواقهم وجموعهم؟ كيف تكون سلطاناً على واو دون أن تستر وجهك بالظل؟ كيف تتجنّب وقاحة الوجهاء الذين يسمحون لأنفسهم بأن يرفعوا أصواتهم فوق صوت ولي الأمر لمجرد أنهم معمَّرون أو مجرد ادعاء عن حرص مزعوم لحماية القبيلة من الفناء كما فعل معك الشيخ الجسور بكة؟ هذا يقودنا لوضع الفرق بين حكم

الـزعـامـة وحكم السلطنـة. فـأنت لن تلوم الـوجهـاء، ولا حتى الـدراويش والبلهاء، إذا تجرأوا وجاهروا لـك بالمعـارضة في الـرأي ما دمت تتسكَّـع أمام وجوهم كل يوم. إن المخالطة لا تلد إلاَّ الاحتقار والكراهية. المخـالطة مقـبرة الكرامة والكـبرياء والنـظام. أمَّا السلطان فعليـه أن يختفي في أظلم كهف إذا قرر أن يتولَّى أمـر الضعفاء، إذا أراد أن ينقـذ هؤلاء العَجَزَة من ضعفهم ومن أنفسهم ويقـودهم بـالسـلاسـل إلى واحـة السعـادة. لا تـظن أن واو كعبتكم وحدكم في آزجر. إنها قبلة كل الصحراويين. وقد عبرت هذا الجحيم أيضاً، أقصد جحيم البحث، والحلم، والسهر، والتنقل القاسي من عـراء إلى عراء، ومن جبـل إلى جبل، ومن واو إلى واو. صرفت في الـطلب نصف عمـري في تلك السـنـوات عنـدمـا كنت أزوال التجـارة بـين تينبكتـو وأغـاديس وكـانـو وتامنغست وآدرار. لست في حاجة كي أخبر الشيخ الحكيم بمتاعب الطلب في الصحراء، بداية بالظمأ ونهايـة بالجـوع والضياع. نعم. عـطشت كثيراً ولكن رجال الواحة الموعودة لم يهبطوا من المجهول ولم يدلوني على الطريق إلى الواحة الخفيـة. التقطني تجـار القوافـل ثـلاث مـرات، وأنقـذني الـرعـاة في المـرتـين التاليتين. وظلت واو أملاً مستحيلاً، قاسياً، بعيـد المنال. وفي ليلة ظلماء، في صحـراء «آضـاغ»، فكـرت في الأمـر طـويـلاً، ثم قـررت أن ألجـأ لأُسلوب العرَّافين في تفسير الأمل. أُسلوب أدركت فيما بعد أن العرّافين يتقاسمونـه مع شيخ الطريقـة القادريـة في تفسير الـرموز وفـكّ طلاسم الكنـوز. نعم. كان لكنوز الذهب ومناجم التِّبر الفضـل الذي أومـأ لي بالإشـارة الأولى. التقطت العلامة وفتشت في سرّ المعدن. في سرّ الشقاء الذي يدفعـه الباحث لـلاهتداء إليه. وهو شقـاء يقابـل الشقاء الـذي يدفعـه الصحراوي لـلاهتداء إلى بـوابة واو. فلماذا لا يكون الكنز هو واو ولماذا لا تكون واو هي الكنز؟ لماذا لا يصنع الذهب واواً أخرى، حقيقية، هنا، على الأرض، كما يصنع بقية الأعـاجيب؟ كما صنع تينبكتو وكانو وأغاديس ومـدناً أخـرى عجيبة لا نعـرفها؟ لمـاذا يعجز المعدن المسحور عن بعث واحة السعادة ولمِّ شمل المهاجرين المشتتين في القـارة

الجرداء وهو القادر على إنعاش التجارة وإحياء الملكوت الميت في الصحراء السفلى وجعله ينبض بالحياة من خلال عفريت اسمه: التبادل؟ نعم. التبادل عماد الحياة، والذهب عماد التبادل. إذن السرّ الأول في الذهب.

رشف جرعة كبيرة من اللبن. أعاد الكوب اللامع إلى الطبق، ولعق شفته العليا بلسانه كي يمسح آثار اللبن وعاد إلى آير:

- يومها عرفت أني لن أنعم بواو ما لم أحصل على الذهب. قررت أن أكون غنياً مثل كبار التجار الذين يملكون مدن شمال القارة ومدن الجنوب ويستولون على أنفاس حياتها بقوافل من الجمال. ومن خلال تجربتي في التجارة عرفت أيضاً أني لن أفوز بثروة كبيرة إذا اكتفيت بالتنقل مع القوافل بين تينبكتو وأغاديس أو بين كانو وتامنغست. الثراء يشترط صفقة، والصفقة تستوجب إحدى معجزتين: المجازفة أو ضربة الحظ. ولما كانت ضربات الحظ مجهولة الأصل والغاية وقاصرة على الأخيار فلم يبق لي إلاَّ أن أجازف وأرهن كل ما أملك مقابل الحصول على بضعة أرطال من التبر الخام أو الذهب المسبوك لاستغلالها في الصفقة. ولمَّا كانت ممتلكاتي لا تتعدّى قافلة من الجمال تسرح في صحراء «آضاغ» وبيت حجري في تينبكتو فإن المقابل لن يتجاوز قيمة الرهن كثيراً. أقلعت عن هذا الحل وقررت أن أستدين. والحق أقول إن أحد التجار الدهاة هو الذي أشار عليَّ بهذا المخرج. قال إن عليَّ أن أستثمر بضاعة يراها التجار أبهى وأثمن هي شريان الدم الذي يربطني بالسلطان أورغ. أشار عليَّ أن أستغل القرابة وأستدين المال من كبار التجار. ولكن التجار رفضوا العرض لأن تينبكتو كلها تحدَّثت عن تصاعد خلافي مع أورغ بعد إجهازه الغادر على عمنا همَّه. جاهرت برأيي المستوحى من آنهي وقلت للناس في الجامع أن لا خير يُرجَى من راعٍ رفع يده على عمِّه أو أبيه، والرعية في حلٍ من طاعة ولي أمرٍ دَنَّس العُرْف والناموس والدين، فاعتبر السلطان هذا الرأي تحريضاً على العصيان ومساساً بهيبة السلطنة وطمعاً مني في كرسي الحكم.

أطلق ورائي الجواسيس وحذَّر التجار من التعامل معي، وأخيراً منعني حتى من دخول تينبكتو. ولم يبق لي إلاَّ أن أسرح في الصحراء وأعتني بإبلي، حتى تدخَّل القدر وألقى بالأميرة في الهاوية.

جاء زنجي بدين، ملثم بزمالة سوداء، يحمل طبقاً ذهبياً مزخرفاً بنقوش الحدادين. فوق الطبق استقر وعاء شاي نحاسي (وربما ذهبي) وكوبان من الزجاج مملوءان بالرغوة إلى منتصفهما. ركع الزنجي على ركبتيه في الزاوية وصبّ الشاي بمراسم خبير. زحف نحو السلطان ووضع الطبق بجواره. تناول أناي الكوب المتوج بطربوش كثيف من الرغوة وتأمله في الضوء المتدفق من النافذة. مدّه للزعيم وتناول الكوب الثاني. رشف الرغوة وتذوقها في فمه مطقطقاً بلسانه. تناول رشفة أخرى قبل أن يعيد الكوب إلى الطبق ويواصل:

- لا تسيء بي الظن. ولا تعتقد أني من أولئك الذين يجرأون على انتهاز الفرصة واستغلال موقف السلطان. ليس لأنه أخي ولكن لقناعتي بأن النبل أنفس نيشان على صدر الصحراوي، إذا فقده فقد جرَّد نفسه من السلاح. هذه القناعة هي التي جعلتني أقبل تحدي زعماء الأدغال وأهرب بالفتاة إلى آزجر. والله وحده هو الذي كافأني على الزهد ورتّب لي كل ما حققته فيما بعد من نجاح في تنفيذ الخطة القديمة. شعر أورغ بالخطر وأدرك أنه وضع رقبته في يد المجوس إلى الأبد عندما قبل شروطهم في مد الواحة بالتبر. بعث لي بالقوافل المحمَّلة بما يكفي لتشييد الحلم ونقل واو من رحابها السماوية المجهولة إلى الأرض، في صحراء آزجر. وكان ينوي أن يلتحق بنا أيضاً لولا غدر الخدم الذين دسّوا له السم في الطعام تنفيذاً لمكيدة زعيم بامبارا. ولا أنوي أن أطيل عليك وأثقل رأسك بتفاصيل ما عانيته خلال هذه السنوات الثلاث، خاصة وأن البنيان قام في السهل أمام عينيك وبفضل تعاونك ورغماً عن قساوة الغبار. كما لا أخفي عليك أن الرحلة لم تبدأ إلاَّ اليوم، بعد نحر القرابين.

استدار ليواجه الزعيم فانحسر لثامه الأزرق عن صدره فبرزت القلادة

الأسطورية المضفورة بالسلسلة الذهبية الكثيفة. في نهاية السلسلة، فوق السرّة، تدلّى المفتاح السرّي، تعلوه نقوش سحرية، وربما تعاويذ آير أو أيات القرآن، متوج بمئذنة يعلوها هلال مشدود القوس، أمّا الفوهة فمستديرة، مسننة بأنياب وحشية كأنياب الأسد، في حين انتشرت النقوش على الرقبة والساق والقدم الذي يدوس فم الفوهة الشرسة.

اعترف السلطان:

ـ فكيف لا يحق لي أن أشارك الأهالي الفرح وقد أقمت لهم أرض السعادة وقدت واو الحقيقية، واو الأرض، إلى ديارهم، وجعلت منها قبلة تملك أكبر احتياط من الذهب كي يحجّ إليها أغنى التجار ويجلبوا إليها أنفس البضائع في القارة؟

مال نحو الزعيم وأضاف بلهجة غامضة:

ـ لا أخفي عليك. تلقيت حتى الآن عشرات الالتماسات من أكثر تجار القارة ثراءً وجاهاً لاتخاذ واو مقاماً، في الوقت الذي تبقى فيه قبيلتك الفئة الوحيدة في الصحراء التي تتردد في الدخول إلى السور وتُقاد إلى الجنة بالسلاسل لمجرد خوف من انتقام الجن إذا نكثوا العهد المزعوم وامتلكوا الذهب. فهل سمعت بالله أغبى من هذه الخرافة؟

رشف الشيخ آدّه كأسه واعتدل في جلسته. رفع طرف لثامه السفلي وثناه فوق أنفه وقال:

ـ ما دام يروق للسلطان أن يتحدث عن الخرافات فيجدر بي أن أحتذي بجنابه وأبدأ أيضاً بالخرافات على عادة أجدادنا الحكماء الذين لم يتركوا لنا ثروة غير آنهي. أخبرونا أيضاً بوصية قيل إنها وردت في نهاية الكتاب، تقول إن الصحراوي لا يحتاج إلاّ للحكمة كي يكون سعيداً. وهذا هو السبب الذي جعلهم لا يتركون لنا إرثاً آخر غيره. وأسوار واو في الزمان القديم محصورة بين دفتي آنهي. والصحراويون القدماء لم يبدأوا في البحث عن الوطن الضائع

إلاَّ عندما أضاعوا الكتاب. وأظن أن حكماء آير يعرفون تفاصيل عن الوصية تفوق ما يعرفه عبد الله الذي بدأ يعاني من ضعف الذاكرة بسبب الاسترخاء وطول المقام. نعم، يا سي السلطان. الخرافة تقول إن الضيف الزائر كان أول مَنْ هاجم الطريقة وقال إن الخير مثل الحقيقة، مثل طائر البرية، يموت إذا حبسته في قفص. أوه، المعذرة فإن الذاكرة تخونني مرة أخرى. الحق انه لم يشبِّه الخير بالطائر وإنما. . وإنما، آه «تذكرت». شبهه بالماء الطليق والهواء الطلق. قال: إذا حبست الماء في الجابية ركد وفسد، وإذا أحكمت إغلاق الزمزمية المملوءة بالهواء بالسدادة ركد الهواء وكسد. كنا نتحدث عن انحراف شيخ الطريقة القادرية يومها. واتفقنا معكم أيها السلطان في ذلك اليوم أن كل شيء إذا دخل الجابية، أو وقع في قناة، فسد وانحرف وانقلب إلى الضدّ. فماذا فعل الزمان بهذا القانون؟ الحق أن القانون ظلّ هو القانون لأنه سماوي، ولكن يجدر بنا أن نسأل: ماذا فعل السلطان بهذه القناعة؟ كيف خان قانون السماء وهرع لبناء السجون ناسياً أن واو الأرض غير واو السماء، والصحراويين العقلاء لم يبحثوا يوماً عن واو الأرضية ولو شاءوا أن يتمتعوا بالنعيم الأرضي لذهبوا إلى واو الناموس أو واو الكبيرة أو غيرهما من الـ «واوات» والواحات التي لا حصر لها في الصحراء؟ كان يجدر بالسلطان أن يسأل نفسه لماذا تفسد الأشياء عندما تدخل في جبِّ الطريقة قبل أن يشرع في بناء مشروعه الجريء. ولست أنا مؤهلاً كي أخبره بأن الأشياء تفسد في الطريقة إذا مستها يد الإنسان. الأشياء تبقى سماوية ما لم تمتد إليها يد الإثم والنجاسة فتتحلل وتدبّ فيها ديدان الفساد وتؤول إلى الزوال. وهي سيماء ختمت على هذه اليد منذ اليوم الذي تجاسرت فيه وامتدت لتقطف الحرام من البستان المقدس وتضعه في الفم، في العورة الحقيقية، لتسد نداء الجشع. ولو سأل جناب السلطان نفسه لما اضطر أن يتطاول في السماوات ويقيم بنياناً مهدداً لمجرد أنه صنع من يد الإثم. من اليد التي لا تبني إلاَّ للخراب ولا تلد إلاَّ للفناء. واعترف لك الآن أني لم أشك لحظة، عندما رأيتك أول يوم، أنك

من الباحثين عن واو. ولو أعطيت أذناً صاغية لهذا الهاجس لما تغيَّرت طبيعة السهل. ولكن هل تدري ما الذي ضللّني؟ لم أظن يوماً أن البحث عن واو يمكن أن يكون جماعياً. تعودنا في الماضي أن نلتقي في الصحاري بالمهاجرين المعتزلين، وتوارثنا عن أهلنا أن العزلة قدر الباحث عن واو. ولم يخطر ببالي أن أرى نجعاً كاملاً يهيم في القارة بحثاً عن الوطن المفقود. وها أنا أدفع ثمن هذه الغفلة. ولكن لا بد أن يحضر إبليس كي يلقي بحجابه على الحقيقة ويوسوس في صدر المخلوق ليدفعه إلى الخطأ كما وسوس في صدره يوم دفعه إلى الإثم وأطعمه لقمة الحرام في البستان. أنت تتحدث عن السعادة وتظننا بلهاء لأننا نساق إلى جنتك بالسلاسل. أوافقك. نحن دراويش لا لأننا نرفض الدخول إلى الفردوس ولكن لأننا قايضنا الحياة نفسها بعدم، بفناء، بضياع أبدي اسمه: الحرية. وهو قرار لا ندعي أننا خلقناه، وإنما ورثناه مع آخي، ومع النبل، ومع اللثام الذي نستر به أفواهنا. رضعناه في الحليب، وتعلمناه منذ همنا في الصحراء. فما هي هذه الهجرة الأبدية التي تراها إنْ لم تكن هرباً من الأصفاد والأرض والاستقرار والواحات؟ ما سبب التيه الخالد إنْ لم يكن تلك المحاولة الجليلة، الشجاعة، في التخلص من الاستعباد والسعي العنيد إلى الفضاء؟ وما هو الفضاء إنْ لم يكن ذلك الوعاء الذي يستطيع أن يحمي الأشياء من الفساد ليبقى الهواء طليقاً نقياً، ويظل الماء قطرة مطر بكر معلقة في سحابة تتجول في سماء الصحراء؟ اخترنا، كما ترى، أن نبقى خارج «الطريقة»، بعيداً عن الجدران، حتى نستطيع أن نضمن لنفوسنا استمرار الوميض في العراء، تحت شعاع الشمس القاسية. وهذا البحث الشرس، هذا السباق العجيب في القارة التي لا نهاية لها، هو طلب واو الحقيقية. واو الخفية. واو السماوية، وليست واو الملوثة بيد الإثم. فكيف تريد للقبيلة أن تعود طوعاً إلى المعتقل الذي هربت منه منذ آلاف السنين لمجرد أنهم قرروا أن يلتقطوا أنفاسهم من الرحلة الطويلة ونسوا أنفسهم بجوار البئر فأقاموا أكثر من أربعين ليلة؟ أجل. فنحن الذين غفلنا وصنعنا القيد بأنفسنا قبل أن تأتي

إلى السهل وتبني لنا حبسك الفظيع بتلك العصا المسحورة المسماة بالتبر. وإذا جاريناك وقبلنا الإغراء فإننا لن نستطيع أن ندّعي النقاء، الذي لا يضمنه إلاَّ التيه فحسب، ولكننا لن نستطيع أن نقبل لقب «الصحراوي». فهل جئت من آير كي تسرقنا من أنفسنا يا سي السلطان، لتودعنا حبساً هربنا منه منذ عشرة آلاف عام عندما كشفت لنا الصحراء عن صدرها وتعرَّت خصيصاً كي ترينا أن واو أقرب لنا من حبل الوريد؟ هل جئت لتخدع بصرنا ببريق المعدن المنحوس وتعرض علينا واواً مزيفة بدل واو الإلهية، واو السماوات؟

هيمن الصمت.

في الخارج علا رغاءُ الجمال وتصايح الرعاة. من السطوح بكى طفل وتضاحكت امرأتان بصوت مكتوم.

دخل الزنجي بالدور الثاني من الشاي فتكلم السلطان:

ـ لن تصدق إذا قلت إني توقعت هذا الرد. توقعته بالحرف. هذا يعيد لي ثقتي بخبرتي في الناس. هذه الثقة التي حاولت أن تنالها بضربة واحدة. لأن عرق الكبرياء لا بدَّ أن يتكلم في الصحراوي. عرق الغرور الذي يجعل الملثم يموت بالجوع مقابل ألَّا يكشف فمه، عورته، أمام الأغراب. هو نفس الكبرياء الكذَّاب الذي يضلل العقل ويجعل المتكبر الأبله يخلط بين الشرف والركض وراء السراب، كما يخلط بين الحرية وسكينة الاستقرار. فالصحراوي الذي لا يكفُّ عن طلب السكينة في الآفاق سيصعق إذا وجد أنها أقرب له من حبل الوريد، يكفي أن يتوقف عن مطاردة السراب ويزيح الأعباء عن جمله ليجد أن الخلاص في الاستقرار، و«واو» التي يبحث عنها في الصحراء هي في مكان آخر، أبعد من الصحراء. أعني أنها في نفسه. ومَنْ لم يجدها هنا (ضرب السلطان صدره بقبضته) لن يجدها في أي مكان. وكل شهود العيان الذين عثروا على الواحة الضائعة إنما دخلوا مدن الجن التي تعلم يا شيخنا أنها لا تقل عدداً في صحرائنا عن واحات الإنس. فأين يكمن يا

ترى شيطان الإغـواء الأول: في لسان السراب أم في بـريق التبر؟ صـدقني إن العزيز الجليل لم يخلق شيطاناً أقوى من سراب الخـلاء. وهو وحـده مَنْ أوحى للصحراويين البؤساء بالدنيا الخفيـة ووعدهم، كـذباً، بـواو مقابـل أن يتبعوه ويعبـدوه. وها أنت تضـع تـاريخـاً لهـذه المسـيرة الشقيـة فتتحـدث عن آلاف السنين. وما هو سراب الصحراء إنْ لم يكن ذلك الشيطان الذي تتحدث عنه الأساطير وتقول إنه سيقبـل في مسوح مهـاجر حكيم ليغـري الناس بـالألعاب والبريق والوليمة ليلقي بهم في الهاوية الظلماء؟

ـ أولست أنت مَنْ يدعو إلى الوليمة ويوزِّع الألعاب؟ أوَليس السلطان هو نفسـه المهاجـر المنتـظر؟ ألاَ تنـوي أن تحشرنـا في السجن وتشـترينـا بـالأرزاق والطعام؟ ألاَ ترى أن كل سكـان واحتك قـد باعـوا أنفسـهم مقابـل حفنة من الدقيق؟

ـ انتظرْ. من بين سكاني اليوم يـوجد عـدد غير قليـل من أفراد قبيلتـك. تفتحت عيون كثيرة على خدعة السراب وعادت إلى العقل ودخلت السور.

ـ في كـل قبيلة يوجـد ضعـاف النفـوس. في كـل قبيلة يـوجـد مَنْ يؤثـر الاسترخاء والسلاسل على شقاء الترحال. وأنـا لا أدعي أني أستطيـع أن أقنع كل مَنْ لفَّ زمالة على رأسه بأنـه من الأخيار الـذين عليهم أن يكتشفوا واو. هـذا المصير مكتـوب على فئـة قليلة. الفئة التي رفضت أن تـأخذ الصـدقـة، العطية، من يد السلطان، لأنها تعرف أن في كأس الدقيق ثعباناً سيلتف عـلى رقبتهـا بمجرد أن تمـد يدهـا لتفتح الكيس. مَنْ اختـار اللقمـة اختـار القيـد. اللقمة عدو الصحراء، عدو مَنْ احترف الهجرة. وأنـا أنصحك أن تقبـل أهل الواحات في مـدينتك إذا أردت ألاَّ تشقى في تـدريب الصحراويـين المعانـدين على الطاعة وحياة الاستكانة.

ـ السكينة. كان الأجدر أن تقول «السكينـة» بدل «الاستكـانة». سـوف أعطيهم السكينة بدل التعب والمنفى والزوال المؤكد. وفوق هذا كله سأكافئهم بـ «كيس الدقيق»، بـ «اللقمة». سيلزمون الأرض ليطلقـوا جذوراً، يـزرعون

أو يـزاولون التجـارة، يتزوجـون الصبايـا لينجبـوا منهن أولاداً. سينجـون من الهلاك الذي تهددهم به الصحراء كل يوم، ويعيشون سعداء. وأنا لا أعـرف ماذا يريـد إنسـان الصحـراء أكثر من أن يعيش سعيـداً وينتظر الفنـاء في هدوء وسكينة.

ـ أنت تتعمد أن تخلط بين نـوعين من السكينـة كما سمحت لنفسـك بأن خلطت بـين «السكينة» و«الاستكـانـة» منـذ قليـل. فسكينـة عـمادهـا اللقمـة المسمومة هي سكينة العبيد. وسكينـة أخرى عـمادها الخـلاء والهواء وقـطرات المطر والتجوال في الصحـراء الوأسعة هي السكينة المـوعودة في وأو السـماوية. هي سكينة قديمـة زرعها خـالق السماء والصحـراء في وجدان الجـد الأول منذ حرمه من الجوار وفضّأ له بقعة أرض، فأنزله فيها ليتخذها وطناً. من هنا نرى أن الخلط المتعمـد بـين السكينتـين ليس تضليـلاً في حق النـاس فقط، وإنمـا تجديف في حق الدين أيضاً.

ـ اللقمة المسمومة! لم أتخيل يومـاً أن الرجل الذي اشتهر في آزجـر، بل في كل الصحراء، بأنه أمهر من أمسك بـالعصا من الـوسط يمكن أن يستعمل هذا اللفظ الغريـب، القاسي!

ـ انتظر يا سي السلطان. أنت تتعمد أن تخلط الدقيق بالتبن مرة أخرى. أمهلني كي أخـبرك لماذا هي مسمـومـة هـذه اللقمـة. لن أبـالـغ إذا قلت إنها مسمومة مرتين. المرة الأولى لأنها شرك صنعه الإنسان ليصطاد أخاه الإنسان، ومسمومة للمرة الثانيـة لأنها مدفـوعة الثمن بعملة يملكهـا سكان «ايـدينان». نحن حرّمنا التعـامل بهـذا المعدن وفـاء لعهد ورثنـاه. والجن لا يغفرون الحنث بـالوعـد. فمنذ فتحنـا عيونـا على الحيـاة والصحراء ونحن نعلم بـأمـر الختم المكتوب على كل قطعة ذهب: «مَنْ ملك هذا المعدن ملكناه». في هـذا الختم تقبع اللعنة. ولا يليق بالسلطان أن يجهل هذا السرّ طالما قرر أن يغـزو السهل بسلاح أهل الخفاء.

التفت السلطان نحو الشيخ بعنف. تألق المفتاح على صدره وصاح بغضب:

ـ بل حجتك هي المسمومة. حجتك هي التي سممت عقول الحجّاج الذين قرروا أن يضعوا حدّاً لشقائهم ويهجروك إلى واو. اسمح لي. اسمح لي.

بلع ريقه مرتين وكتم انفعاله ثم واصل وهو ينظر في الفراغ عبر النافذة.

ـ أنت الذي وضعت نهاية الماء والملح بيننا. أنت الذي اخترت هذا الطريق.

رشق الزعيم بنظرة خفية وسأل بغموض:

ـ هل تفهمني؟

التقط الزعيم الإشارة في لحظة. ابتسم بحزن ونكس رأسه. هيمن صمت طويل قبل أن يرد الشيخ:

ـ أظن أني فهمت. فهمت قبل أن آتي إلى ديارك وقبل أن تحاورني لتلقي السؤال.

رفع السلطان رأسه وسأل بفضول:

ـ حقاً؟ أرجو ألّا أكون قد أخطأت في تقدير حكمتك.

ـ فهم نية الخصم لا يشترط حكمة كبيرة يا سي السلطان.

ـ أنت افترضت الخصومة قبل أن تبدأ. فهل هذا اعتراف؟

ـ الخصومة لم تبدأ اليوم. الخصومة بدأت منذ خنت العهد وأقفلت الأبواب على الحدادين ليسكّوا لك المصنوعات الذهبية في الرواق الخفي في السرّ. لم أصدق الشائعات ورفعت أمري إلى العقلاء، ولمّا كان الاحتكام إلى هذا الحرم في زماننا، وربما في كل الأزمنة، مجازفة يجني ثمارها العقلاء فقد حكمت على نفسي بالمنفى منذ ذلك اليوم.

ـ المنفى؟ أرى أنك اخترت الجزاء أيضاً.

ـ لست أنا مَنْ اختار الجزاء يا سلطان بل عرش العقل العاري دائماً، الأعزل دائماً، المُضْطهَد دائماً. من الطبيعي في هذه الظروف أن ينسحب الطرف الأعزل من الساحة. العقل لا يعجز في أن يملي هذ المخرج برغم أنه يعجز في الدفاع عن نفسه.

ضرب السلطان يداً بيد:

ـ أعترف أن فراستك تجاوزت تقديراتي. اعترف أن فراستك تفوق ألعن عرّاف في آير ثلاث مرات على الأقل. لم أتوقع أبداً أن تأتيني بالقصاص جاهزاً لأني لم أتخذ الحكم إلاّ بعد حوارنا. أنت سبقتني.

أُقسم لك...

ـ الحمادة الحمراء وطني. جنتي. واو السماوات التي سبق لها أن أطعمتني من جوع وآوتني من خوف في عهد شيخ الطريقة. المنفى قدر الصحراوي الذي رفض أن يتلقى كيس الدقيق، والاستنفار عقيدته. الصحراوي لا يتوقع الرحمة من أحد.

تبادلا نظرة كئيبة. انتصب الصمت. جاءت جارية حبشية بدورق الماء. الدورق ذهبي أيضاً، مزخرف بالنقوش.

قال السلطان بنبرة جديدة:

ـ لن أدعك تفقد شيئاً أبداً. لن أبخل عليك بالعبيد والأتباع وسأبعث إليك بالقوافل والمؤن. أعرف أن الحمادة ستطعم عاشقها القديم من جوع ولكن جدب السنوات الأخيرة شمل حتى الحمادة. لا تنس ذلك.

ـ اتفقنا أن عقيدة الاستنفار تحرِّم على الصحراوي أن يتلقى الحسنات، علاوة على أني لن أحتاج إلى تلك الأشياء التي يظن أهل الاسترخاء والواحات أنهم لن يستطيعوا أن يعيشوا بدونها.

ـ هذا عناد المكابرين.

ـ بل قناعة المهاجرين.

ـ ربنا يهديك.

ـ ربنا يهدي الجميع.

شيّعه إلى الباب مودِّعاً فانحسر طرف اللثام عن الصدر وتألق مفتاح الخزائن. قال الزعيم:

ـ هل يعرف جناب السلطان لماذا يرفض الإنسان أن ينقاد إلى الجنة بالسلاسل؟ لأن الجنة تكفّ عن أن تكون جنّة بمجرد أن يُجْبَر المخلوق على الذهاب إليها مسلسلاً في القيود. السرّ في الأصفاد نفسها، والمجازفة في الاستهانة بالخيار. المعزة تمشي بمحض إرادتها فإذا أمسكت برقبتها وقدتها بالإكراه عاندت وقاومت وغرست ساقيها في الأرض إمعاناً في الممانعة. لن تندم إذا انتبهت إلى سرّ السلسلة.

ابتسم السلطان وتألق على صدره المفتاح مرة أخرى.

(نهاية الجزء الأول)

أوباري (الصحراء الليبية)

طرابلس ـ ليماصول (قبرص)

موسكو ـ سرت

في الفترة بين

١٩٨٩/١٢/٢٠م و ١٩٩٠/٧/٢٢ م

الفهرس

القسم الأول

القسم الثاني

في هذا العمل الملحمي ندخل عالماً يأسرنا من الوهلة الأولى بغرابته وفرادته وجدّته، عالماً تتقاطع فيه الأساطير الموروثة وتعاليم الأسلاف بتأملات الحكماء والشيوخ والعرّافين وأشواق الباحثين عن الله والحرية وصبوات الطامعين بإمتلاك الذهب والسلطة.

لكن عالم الصحراء أوسع من أن يقتصر على الإنسان، فهو يمتد ليشمل عناصر الطبيعة الصحراوية القاسية وكائناتها الخفيَّة وحيواناتها ونباتاتها. ففي هذا العالم حيث تطرف الطبيعة وقسوتها تندفع الأشياء والكائنات والأحداث والبشر حتى النهايات القصوى لتكشف عن مضامينها وأبعادها وحدودها، إذ لا مجال هنا للتسويات والمساومات والمهادنات. فلا توسط بين الله والذهب، بين تطلب الحقيقة وشهوة السلطة، بين نبالة الروح وشهوة التملك طالما أن المجوسي «ليس مَنْ عبد الله في الحجر ولكن مَنْ أشرك في حبِّه الذهب».

ما من وجه واحد للمجوسي هنا إذْ يتجلَّى في العديد من الشخصيات اللاهثة خلف الثروة والمال والسلطة والنفوذ، فالمجوسي قد يكون حاكماً (السلطان أورغ) أو صوفياً مزيفاً (شيخ الطريقة القادرية) أو تاجراً (الحاج البكاي) أو عرّافاً (العجوز تيميط) أو باحثاً عن الانتقام (القاضي الشنقيطي) أو. . . ، بل لعلَّ في كل إنسان يكمن مجوسي يتحين غفلة من العقل والروح ليطلَّ برأسه ويتلبَّسه.

دار التنوير للطباعة والنشر

تاسيلي للنشر والاعلام